جائزة كتارا 2017

سميحة خريس

فستق عبيد





رواية

فستق عبيد

فستق عبيد (رواية)

سميحة خريس (كاتبة أردنية)

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنيّة (5514/ 10/ 2017)

ISBN: 978-9957-698-52-2

الطبعة الثانية 2018

الرواية الفائزة بجائزة كتارا للرواية العربية 2017



General Manager: Jafar Al-Oqaily المدير العام: جعفر العقيلي

شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة "الرأي"، عمارة البيجاوي، ط3

ص. ب 713680 عمان 11171 الأردن

Queen Rania st., near Alrai newspaper, AlBijawi building 3rd floor

Tel. +962 6 562 0722

Mob. +962 77 0 400194 | +962 79 716 27 20

E.mail: alaan.publish@gmail.com

alaan.publishing alaan_publish

P.O Box: 713680 Amman 11171 Jordan

تصميم الغلاف: بسام حمدان

سميحة خريس

فستق عبيد

رواية



كامونقة

- كضاب[*] وإلا عيوني ما بتشوف!

قهقهت رحمة مشككة برواية جدها، حدجها أبوها عبدالله كما لو كان مستاءً منزعجاً، تفتقر البنت إلى الانضباط والفهم، ويفرغ قلبها من الرحمة والتعاطف رغم أن جسدها نضج مثل ثمرة حلوة. إذا تحدث جدها؛ صلصلت ضحكتها متقطعة كما يرشرش الشاي من فوهة الإبريق. يؤنبها عبدالله بنظراته، لكنه في أعماقه يبتهج لضحكتها؛ فهي أثيرته، إنها زهرة تتفتح في اليباب.

لا تفطن أمها ونسة إلى فرحة زوجها الخفية بابنته، تصدق مظاهر انزعاجه فترضيه؛ تهوي بكفها على مؤخرة رأس البنت قاطعة ضحكتها الرنانة. عادة ما تطلق رحمة ضحكاتها ساخرة من الحكايات الملتاثة بالدموع والآهات والتلذذ، فلا يلتفت أحد إلى سخريتها، «بنت فاكّه منها»، حتى لو توفر هناك سبب وجيه لضحك الآخرين، تهمد ضحكاتهم المحسوبة المقتضبة وتواصل هي صهيلها، يجتاح الضحك أطرافها ويهزها بصورة معيبة كأنما تستخف بكل ما يستوجب الوقار.

(*) كضاب: كذاب

يمضي الجد سارداً ويحدق الأخرون باهتمام. يتكرر الأمر كلما هبطت الشمس في مشوارها اليومي موشحة الأفق بحمرة قانية، يتلاشى ضياؤها تدريجياً ويخفت لمعان انعكاسها في فراغ الهواء، وتبرد سياطها مخففة غلواءها، وقد يداعب المكان نسيم خفيف فيحلو السهر. يقرفصون على عراقيبهم القوية مرجعين مؤخراتهم الصلبة النحيلة حتى توشك على ملامسة تراب الأرض، يشمون عبق الكفتيرا(*) وهي تفور بالشاي المختر فوق جمر الكانون(*)، حيث ينبعث ضوء نقي من التماعات الجمر؛ يضيء زاويا الوجوه وهياكلهم المقرفصة، ويبث في الفراغ ظلالاً تشبه في انحناءاتها وحركاتها الأصول.

يجود كامونقه بحكايته منذ البدايات: عندما ساقوه إلى زريبة تاجر العبيد، وحتى التحق مجاهداً في ثورة المهدية، فتحرر وصار يدعى «معتوق».

لا تسترعي حياة الجد انتباه الحفيدة، ولا يعنيها تعدد أسمائه، هو نفسه غالباً ما يقاطع سرده الحكاية بما يشبه حكمة علمها الزمان له قائلاً:

(*) الكفتيرا: ابريق الشاي.

(*) الكانون: الموقد.

- كل واحد منا مسكون بكائنات خفية تديره وترتب له حياته الوهمية، تماماً كما يحدث لعابر تحت ضوء الشمس؛ مرّ خلسة ولثوان استراح فيها تحت ظل شجرة، جلس فوق ظله، فظن هذه هي الدنيا، ثم عاد ماشياً مكشوفاً للضياء الباهية الساطعة، الحياة التي نعرفها مجرد ثوان في الظل، ليست كل شيء.

مع ذلك لن يغادر الجد الحياة قبل أن يحدث أبناءه وأحفاده بتفاصيلها الكاملة، يذكرهم بأنه لا يقوى على تناول لقمة عصيدة دون مشاركتهم إياها، كيف إذا لا يشاركهم لحظة مروره في حياة الظل الوهمية؟ تلك التي شقلبت عمره وغيرت مساره للأبد، أما الحقيقة تحت الضوء الساطع فبإمكان كل انسان أن يخبرها بنفسه. كلنا أتينا من مكان مضيء وسنمضي إلى كون رحب أكثر إضاءة حيث تستطيل ظلالنا وتتمدد، أما الحياة القصيرة العابرة المختلفة، تلك التي تهرب منها الظلال، فهي التي تستحق أن تُحكى. تكون الحفيدة فكرتها الخاصة عن الحياة الوهمية في الظل واثقة بتصورها الخفي، فليست أقل من جدها، لها عقل وجسد وأفكار وأحلام بوسع الكون.

يقص معتوق- كامونقة الحكاية مكررة ومزدانة بالزيادات والمتغيرات كأنه يكذب أو يلاعبهم، ينسى ويتذكر عامداً. يتحلق رجال القبيلة ونساؤها وأطفالها حول النار الموقدة في جمر الحفرة من مغيب

الشمس وحتى يتسيد القمر المساء؛ يسمعون حكاياته. في ذاكرتهم حكايات وتفاصيل مماثلة ومختلفة عديدة، لكن زهوهم يتضاءل خجلاً مقارنة بفخره وبراعة استعراضه، «زول حكاي»؛ تفيض الدهشة من كلماته، تنتفخ أوداج رقبته المعروقة النحيلة، يرفع ساعده مكوراً قبضته أو باسطها لتساعده في توصيف الحكي، كأنه لم يقتحم السبعين من عمره منهكاً أدرداً، وما ابيضت شعراته القليلة الملتفة عند طرفي رأسه الصغير. يمد ذراعه النحيلة الطويلة كسارية عندما يصف مشهد إعلانه رجلاً حراً ليس لأحد أن يلاحقه أو يبيعه أو يشتريه، يضرب بقبضة يده الأخرى صدرهُ محدثاً خبطة لها صدىً كما لو أنها قرع على طبل. يصير العجوز النحيل أكبر وأعرض بحكاياته الملونة، يتأرجح ظله كما يفعل جسده، ويلتمع وميض الجمر على وجهه المغضن، وفي تناقض لا يمكن تفسيره يبدو فخوراً بالزمنين، زمن نيل حريته وزمن عبوديته.

استقامت رحمة على قدميها فارعة فتية، وأشاحت بجسدها كله كأنها تنصرف، فالحكايات التي تثير إعجاب السامعين توقعها في الضجر، خشخش الخرز والودع المعلق في حبل الرهط المشدود إلى خاصرتها، ارتج نهداها المرتفعان كما يجدر بابنة العشرين عاماً، مشت خطوات فتابعتها أعين الرجال الذين عشقتهم وعشقوها

وأولئك الذين خيبت أمالهم وصدتهم، انتبهت «ونسة» لحصار النظرات الولهى، شدت ذراع ابنتها وأعادتها عنوة لتقعي برفقة العائلة وتعاود سماع حكايات جدها المكرورة.

***

يقول كامونقه:

- لم يكن كامونقه أول أسمائي، نادوني في طفولتي باسم سيد، وهو اسم عربي استعاره أبي من عسكري مصري شاركه مع جمع من البرامكة(*) مجلس شاي العصرية يومياً عند بوابة معسكر الجيش قبل أن يرحل المصري وجيشه تاركاً لي اسماً والحلبة للانجليز، لكن اسم سيد فارقني مبكراً.

انسحب عسكر مصر وانقطعت حلتنا من الإمدادات وضرب أرضنا الجفاف، لم تتوقف دوامات الريح عن اجتياح القطيات(*) وثني فروع الأشجار القليلة واقتلاع جذوعها لأيام، سفت عواصف الهبوب أتربتها في أفواهنا وعيوننا وتلافيف شعرنا، ثم ساد صمت لم يعد هناك

(*) البرامكة في دارفور هم المجموعة المتجانسة التي تجتمع لشرب الشاي وفق طقوس ونظام في غاية الدقة و الانضباط، يمتازون بالأدب والكرم والظرف، ينشدون الأشعار في مديح الشاي.

(*) القطيات: أكواخ القش.

إلا أنين خافت للأرض، بارت الوطاة ونفقت المواشي فوقها، حتى الدُخن لم يعد بالامكان الحصول عليه. دفعت بنا المجاعة جموعاً وأفراداً لاجتياح البلدات القريبة.

عندها كنت فتياً قوياً، شهيتي مفتوحة لاقتحام العالم، خرجت باحثاً عن رزقي وقدري، لا أنتظر معجزة سماوية، ولكني أتعامل بحماقة مع الدنيا. أجرتُ ساعدي لمن يطعمني حيناً، وسخرتُ خفتي وجسارتي لتطعمني حيناً آخر، أسطو على ما تناولته يدي خلف أسوار بيوتات المزارعين الصغيرة، باتوا ينادونني كامونقه نسبة إلى قبيلتي. ولأني صغير مغرور غشيم فقد تهت وسط المعمعة وانسحاب الجيوش ودخول أخرى واختلاط القبائل، ابتعدت عن أهلي وضعت بين قيزان(*) وهضاب دارفور، أُوشك على اقتحام قدري الكبير تحت حر الشمس الأفريقية، أمر في لحظة الظل التي ستغير مجرى حياتي، شريداً وحيداً وهدفاً ثميناً للصيادين الباحثين عن طرائد.

قبضوني جائعاً أحاول القفز فوق سور مزجج لبيت في «كردفان»، جروني بعد مقاومة خرقاء إلى زريبة الرقيق حيث الفتية الهاربين من مطارحهم، والنسوة الضائعات اللواتي لم يعرفهن الحظ، هناك اكتشفت وضاعتي، روضوني وكسروا زهوي، في غفلة عن نفسي

(*) قيزان: جمع قوز- تلال رملية.

والدنيا؛ بت عبداً. ضاعت الأحلام هباءً، وانفطرت النفس وخضعت الروح كسيفة وراء قضبان الزريبة الخشبية التي حُبست فيها.

زعق النخاس في بوق «أم بايه»(*) مفتتحاً السوق في يوم شديد الحرارة قائظ، عرضوني على منصة البيع أتصبب عرقاً، عارياً إلا من خرقة ربطت حول خصري وتدلت لتستر قضيبي عن العيون، ينتصب جسدي بعنفوان شبابه، لكن الكبرياء كسيرة منحنية.

***

لا تعرف رحمة كيف يقوى جدها على سرد حكايته الكسيرة بفخر شديد!

***

يقول:

- التيجاني عابر سبيل لا يكترث بالربح والخسارة رغم أنه ابن سوق، يبدو مستمتعاً بالسفر دون البيع والشراء، يتصرف مثل من يملك الدنيا، ولا ينظر إليها بعين، لفرط ما سحرني الرجل خيل إليّ أني لن أفارقه ما حييت، حر في مرافقته، طمنت نفسي أن عبوديتي معه خيار عميق لي كما هو قدر من الله. لم يغير اسمي؛ ظللت معه كامونقة، لقد حرر جسدي من قفص زريبة العبيد المعقودة

(*) بوق عاجي يجمع صوته الناس.

بالأشـواك الحـادة والأغصـان الجافـة القويـة. فاشـترى امتنـاني وولائـي، صـرت خادمـه وسـاعده القـوي وأمـين أسـراره وحارسـه وصبيه المخلص.

يتاجر سيدي بشوالات السمسم المجلوبة من كردفان على أسنمة الجمال. أردفني سنام جمله أسبوعاً وليلتين قاطعـاً وقافلته ثمانمائة كيلو متراً من بلاد دارفور في غرب الدنيا إلى الشرق عبر درب الأربعين حيث القفار قاحلة والشمس والغبار رفيقا رحلتنا، لا تكتحل أعيننا إلا بظلال شـجرة العُشـر التـي تصـادفنا علـى الـدرب وقـد تـدلت ثمارهـا كأقمار تختزن حليبها المسموم، ومدت أغصانها أسيافاً متخشبة.

وصلنا بقعة أم درمـان التـي سـماها الخليفـة المهـدي البقعـة الطـاهرة، وقد انقضى عامان على وفاة المهدي(*) الذي دحر الكفار.

دخلنا مدينة منبسطة تعج طرقاتها الترابية بالأغبرة لكثرة المارين مشاة وخيالة وأبالـة، تمـور بـالحراك، ملتقـى للنـاس مـن كـل لـون وصـنف، مررنا ببيوت طينية سقفت بسيقان الـذرة والحبـال، وسـدت مـداخلها بأغصـان أشـجار شـوكية تمنـع دخـول الغربـاء، واختلطـت البيـوت في أحيائهـا بزرائـب البهـائم، عبرنـا طرقـات ضـيقة قـذرة مثـل سـبخات المستنقعات، تفوح منها الروائح الكريهة، قطعنا تلك الأحياء مسرعين

(*) محمد أحمد الملقب بالمهدي قائد الثورة على الانجليز.

إلى أخرى أكثر تنظيماً وأقل اكتظاظاً ببيوت طينية لطيفة شاسعة مسورة بجدران مزججة، أكترى سيدي داراً في حي الأغنياء، وزع حجراتها على زوجاته وأبنائه وعبيده، وأقام مربطاً للدواب في طرف حوشها الواسع.

بدأت عملي الحقيقي في «أم درمان»؛ أُنِيخ إبل القافلة الصبورة فوق رمضاء لا تحتمل، وأرفع بساعديّ اللذين اكتنزا واشتدا شوالات السمسم عن الأسنمة، أنزلها قرب أبواب الدكاكين في السوق، أوزعها وفق تعليمات سيدي بدقة ونظام، أحمل قفة الماء لمرات ذهاباً وإياباً من بحر النيل إلى البيت، أقضي حاجات سيدي بين المشوار والآخر، صرت معروفاً بوصفي: العبد الطويل القوي. أنجز آخر مهماتي الشاقة مع آذان العصر، أنتظر سيدي لينتهي من صلاته، فأهرع وراءه والشمس تغطس في الأفق للمغيب لتبدأ فقرة متعة التيجاني الخاصة.

لسيدي ليلتين: ليلة سرية خاصة لا يعلم بها أحد سواي، يرتاد فيها مواخير الحبشيات المستترة في الأحياء الفقيرة البعيدة، أحرسه عند الباب الذي ولجه. تليها ليلة عائلية معلنة يدخل فيها سوق الحلال فيبتاع كبشاً يكفي البشر الكثر الذين يسكنون حوشه ومحيطه من أهل بيت وأبناء وعمال وعبيد وأجراء ونسوة ولودات تتباين مهامهن، في تلك الحالات أقوم بعمل بسيط لا يتطلب ساعدي المفتول، بعض

الترتيبات هنا أو هناك، تمرير سيفي على رقبة الكبش، ثم سلخه وتقطيع لحمه، والتوزيع والتدبير.

يتنقل التيجاني بين الليلتين المتنافرتين بدقة وحرص وتنظيم، في الحالتين لا يفقد وقاره وكياسته، يسير بثقة وتسليم كأنه يخطو فوق الغيم مستمتعاً لا عجلاً ولا متمهلاً، ندخل حلة المواخير بعد هبوط الظلام، هو لمتعته، وأنا؛ طيفه الحارس، تلاشيت فيه بسرعة، لعلي كنت غضاً لا أعرف ماذا خبأت الأقدار، أقف ضجراً، أهش البعوض اللزج والكلاب الشريدة، وأتسلى بالأحاديث المبتسرة مع نسوة يستفسرن عن وقفتي أو رجال يلوكون السفة(*) وينتظرون حدوث جديد في المكان. عرضوا عليّ شراء حجاب الريدة(*)، وقال أحدهم وهو يبصق السفة في بصقة طويلة من فمه إلى الأرض:

- أعمل ليك حجاب يخلي النسوان ما يشوفن غيرك، واللي تريدها تريدك، تباريك(*) مثل ظلك، تمشي وراك مثل غنماية.

لم أكن أريد امرأة تتبعني مثل غنماية، اكتفيت بحماية سيدي من حارات السوء، أما في ليلته العائلية فإننا نعود بكبشنا المذبوح قبل

(*) السفة: مسحوق أوراق التبغ مخلوطة مع العطرون.

(*) الريدة: المحبة.

(*) تباريك: تتبعك.

المغرب بقليل، نشم فوح التراب المبلل في الحوش وقد هيأته النسوة لجلسة المساء، أوزع لحم الكبش على تكليّ(*) امرأتين اقترن بهما وخفف عنهما وطأ فحولته بليلاته السرية.

يتناول سيدي العشاء مع عائلته ورفاقه وزوار متغيرين، وتنتهي به كلتا الليلتان في الهزيع الأخير من الليل جالساً بمفرده في حوش بيته هادئاً راصداً لنسمة عابرة ترطب المساء، مكتفياً في العتمة بضوء القمر أو إشعاع النجوم، متأملاً أشكالها وأسرارها في السماء الداكنة، منتظراً بأناة وبلا ملل أن يخر شهاب من الأعلى إلى الأرض. أركع عند قدميه صامتاً محترماً تأمله، أهش عن وجهه الذباب والبعوض -اللذان لم تثنيهما العتمة عن عزمهما- بمروحة قشية تمرر نسمات لطيفة فتخفف فحيح الهواء الساكن الساخن، عندها أسلم نفسي كاملاً للسكينة وهناء خفي يهدهد فؤادي.

مقارنة بسواي؛ كنت عبداً محظوظاً لرفقتي مالكي المهيب المهاب الطيب، لا أغلال بيننا ولا سوط ينظم تعاملنا، لا يخطيء أحدنا في فهم الآخر، محسودان على التناغم الفذ الذي نبدو عليه إذا ما سرنا؛ قائد وتابعه.

***

(*) تكليّ: مطبخين.

يقطع كامونقة حكايته حين يصل إلى الذكرى الأعذب، يتلمظ بشفتيه الغليظتين مرتشفاً الشاي من كبايته، كأن الشعور الماتع يعاوده فيرده شاباً، ويكمل:

***

- أها... حبابكم عشرة[*].

أمرق مسرعاً في السوق لو صادفتنا منصة عرض، لا تعوزني الجرأة لاستعجال سيدي للمغادرة إذا مررنا في سوق الإماء، يصيبني غضب واخز يذكرني أنني عبد، أرتعش كلما مررنا بدكة تعرض خادماً للبيع، أتذكرني وحيداً خائفاً، عارياً دبقاً بعرقي على منصة البيع في كردفان، في محاولاتي للنسيان صنفت نفسي بصورة مخادعة رجلاً حراً برفقة التيجاني الطيب الذي يمتلكني، لا أفكر في الفرار منه ولكني على يقين بأني أستطيع الذهاب بعيداً إذا ما عَنَّ لي، وناداني مصيري.
أقنع نفسي وأختار دخول حالة من الحياد والإنكار لتفارقني قشعريرة التذكر، ويصيبني خمول واستسلام تام لحرارة الهواء ورتابة حركة مروحة ريش النعام في يدي وأنا أحركها جيئة وذهاباً أمام وجه سيدي كما حدث في ذلك اليوم.

(*) عبارة تفيد الدعاء بكثرة الأحبة.

تُفرز الإماء الشابات السمحات(*) والنسوة العاملات القويات داخل ديم(*) المعسكر الخاص بالمهدي وبإشراف بيت مال المسلمين، أما المنصات خارجه فلها تصاريح، ولا تحتوي عادة إلا كل أمة معيوبة، كهلة أو معطوبة أو طفلة كسيحة، أو امرأة وقع عليها خلاف مُلكية ورافقتها المشاكل.

منع المهدي بيع الرجال في أمَ درمان وضمهم إلى عسكره أحراراً، وستر عري النسوة اللواتي يعرضن للبيع بأغطية من قماش الدمور مخففاً من غلواء الفحص الدقيق الذي يجري عادة في مناطق بعيدة عن الديم، حيث يتهاون الباعة في حجم الأقمشة التي تستر النساء، فيكتفون بالقليل الذي يستر العورات.

حتى تلك اللحظة كان مصيري معقوداً بمصير سيدي في حبل متين.

وقف التيجاني تاجر السمسم الكردفاني وسط الساحة مقابل المنصة التي اصطفت الإماء فوقها يعرضن لحمهن في العراء بذلة وانكسار، نظر سيدي نظرة خاطفة بلا اكتراث، لم يكن هناك ما يستوجب النظر مرتين، الهواء حار وخانق والباعة يتصايحون.

قلب البائع امرأة في مقتبل الكهولة رافعاً الغطاء عن صدرها وردفيها

(*) السمحات: الجميلات.

(*) ديم: معسكر.

وسترها مجدداً في طرفة عين صائحاً:

- آدمية حوة اللون، مشلخة(*)، مقدودة(*) الشفتين، في بطنها وتحت شطرها(*) اليسار أثار الكي بالنار.

أرجع المرأة التي لم تسترع استحسان أحد إلى الخلف، وشد أخرى إلى منتصف المنصة الخشبية:

- دينكاوية(*) زرقة(*) مربُوعة مفصدة(*) على الجبين، في سنونها فلجة، وده أثر سوط في ظهرها، ودي آدمية مشلخة، صفرا مولدة(*) لكن مشلخة، العين اليمين كريمة(*).

واصل التيجاني سيره لأمتار وأنا إلى جانبه، وبعدت الأصوات لولا أني

(*) مشلخة: في وجهها شلوخ.

(*) مقدودة: مخرومة.

(*) شطرها: ثديها.

(*) دينكاوية: من قبيلة الدينكا.

(*) زرقة: شديدة السواد.

(*) التفصيد: آثار كي بالنار.

(*) مولدة: مختلطة الدماء بين البيض والسود.

(*) كريمة: عوراء.

هـززت ردن ثوبـه الواسـع بإلحـاح، لا يجـرؤ عبـد مثلـي علـى فعلتـي، ولكني فعلت، فوقف.

لم يفهم لماذا أعيده أمام منصة البيع وعلى وجهي تلك النظـرة البلهـاء كأن مسـاً أصابني، بدون جميعهن في ناظريه إناثـاً فائضـات عـن حاجـة الكون، لكني أشرت إليها باستحياء. استهجن اشارتي:

- الصغيرة الصفرا دي؟

هتفت متحمساً:

- أأأي.. أي... دي.

وقفت الصبية خماسية[*] عارية تمامـاً إذ لم تصـنف أنثـى بالغـة، كانـت طفلة لا يستوجب سترها بقماش الدمور، تثيرالتعـاطف حتـى الحـزن، تثني هيكل جسدها جانبـاً تستر بفخذها عانتها، في حين يتـدلى رأسـها واهنـاً فيدفعه البـائع بـين لحظـة وأخـرى بطـرف عصـاه، يـذكرها برفـع هامتها ليراها المشترون الذين زحموا سوق بيـت المـال، لـم تسـتوقف أيـاً منهم، لا يغري جسدها النحيل باتخادهـا سـرية اسـتمتاع ولا عبـدة خادم تنجز المهام الصعبة، رغم أنها لـم تكـن مشلـخة أو مصـابة بعلامـة من علامات الكي والتشطيب التي تسم الإمـاء فتـدل علـى هـروبهن أو

(*) خماسية: تباع بخمسين ريالاً.

تبعيتهن لمالك بعينه، إلا أن وهنها والاصفرار الباهت الذي خالط خضرة جسدها أبعد المشترين.

ضحك التيجاني لحماستي، أنا العبد اليافع القوي أكاد ألتهم الصبية في وقفتها اللينة، لم يشق ثدياها طريقهما في الصدر النحيل بعد، مع ذلك فضحني تغرغر حدقتيّ عيني بدمع أمسكه، وهزة اللهفة الطفيفة التي لا أقوى على كبحها في وجنتّي. أيقن سيدي أن الدافع الذي حمل الشاب الأسود الغربواي(*) على نسيان مقامه لوهلة ليشد ردن سيده لافتاً نظره إلى بضاعة المنصة لهو سبب عظيم لا يجدر تجاهله.

ساوم البائع ليبتاعها بسعر طفلة، لكن البائع صنفها شابة فرخة(*) خماسية هاملة(*)، عبدة شاردة لا تتبع أحداً صادها في رزية(*)، وأدعى أنه إذا لم يجد لها مشتر ستتم مصادرتها منه وردها إلى بيت المال.

لم يطل البائع المساومة، كان متهاوناً متعجلاً الخلاص من عبئه،

(*) الغربواي: من الغرب.

(*) فرخة: عبدة.

(*) هاملة: لا مالك لها.

(*) رزية: غزوة صيد العبيد.

وقرع قلبي كما طبل الغارة، أصابتني هواجس مضنية. ماذا لو انصرف سيدي ولم يبتاع الفرخة السوداء المصفرة؟ ماذا لو استكثر هدر نقوده من أجل أنثى تبدو ضعيفة لم تبلغ مبلغ النساء؟ هل سأتركها أنا أيضاً وأمضي وراء سيدي مستسلماً؟ أم سأرابط عند منصة العرض لتكون البنت لي؟ ماذا لو ابتاعها لنفسه وسخر من نبض قلبي؟

***

لا يجد كامونقه تفسيراً للوثة التي حبست أنفاسه وأطارت لبه، سوى أنها بنظرة واحدة وبلا كلمات كشفت له إنها نصفه الضائع، وضلعه المكسور الناقص في صدره، توأم نفسه وشقيقة الروح. اهتز بدنه حين التقت نظراتهما، واختفى السوق بمن فيه، احتواها بنظرة شاملة، لا يعنيه صدرها المنبسط على أضلاعها ولا ضمور بطنها وغياب العجيزة التي تُشرى السرائر لاكتنازها، لوهلة، خال أن البنت المنكسرة نجمة سقطت من السماء بلونها الأسود الكالح وعينيها الذابلتين، وغمره تعاطف وشفقة عارمة، تمناها ابنته وهو أب لها، أو حتى أم رؤوم، اجتاحته رغبة في ضمها بين أحضانه وتركها تتدفأ وتكبر هناك، أثقلت الأماني روحه فأوشك على البكاء لولا تذكره واقعه: العبد الضعيف الواقف وراء مالكه.

خلا جسدها الغض من العلامات التي تدل على ملكيتها لواحد بعينه،

كما بدت أسنانها سليمة، ووجهها وظهرها خاليين من التشطيب أو وسم مالكها، يعرضها البائع فرخة غضة صادها شاردة في غزوة في غابات النيل الأزرق، ملكية لمن يشترى، والتيجاني الذي تختلف مقاييسه عن مقاييس الرجال من حوله، سلم مع رغبة عبده أنه يرى خامة جميلة يمكن تشكيلها. حين بصم بابهامه على صك البيع مشتريًا كاد كامونقه يموت واقفًا، تملكته نشوة لا حدود لها مادت بجسده، وصاح سيده:

- مالك؟ لازمك يعصروا ليك لمونة تصحيك.

تمالك جسده وعاد إليه وعيه وقد أنهى السيد الصفقة، غادرا سوق ساحة البقعة في أم درمان مصطحبين معهما البنت التي استحقت اسم اللمون لفيض الرائحة التي غمرت المكان فصحت ذكورته وروحه المغيبة، هذه اللمون الواهنة تبعته كغنماية دون أن يقتني حجابًا، هذه الضعيفة قادرة على زلزلة جسده بالقشعريرة كلما رفعت ناظريها إليه.

تضحك رحمة حين يصف جدها لقائه الأول بجدتها اللمون، تكركر هازئة متأكدة من أنه يهلوس ويتخيل. فمن هي تلك الفتاة الصغيرة النحيلة التي يتحدث عنها، ويفوح منها أريج الليمون وتكاد تنكسر لو طوق رجل خصرها؟ لا تراها في المرأة الطاعنة الماثلة أمامها كومة عظام تعبق بعطن الشيخوخة الحامض، ترتعش وقد انكمش رأسها

وتوزعته شعرات قليلة شعثاء، واحتل الأنف الوجه كله حتى وارى العينين الصغيرتين، تتنفس بصعوبة، يغيب عنها الكلام ولو كان عنها، تسمع الحكاية كأنها لا تخصها ولم تكن فيها.

ماذا فعل الزمان بها؟ وأين ذهبت «اللمون»؟

لا يمكن أن تكون تلك حكاية لقاء جدها كامونقه الأدرد، الطويل النحيل بجدتها؛ كومة العظام التي عورت عينها اليمنى منذ سنين، لكليهما رائحة جسد يغازل الموت، يعبقان بشيخوخة يطالها العفن شيئاً فشيئاً.

تضحك رحمة في وجه جدتها ويعجبها بريق عيني جدها كامونقة وهو يصف كيف سار بمحاذاة الفرخة فتخالسا النظرات وراء ظهر السيد الذي تخلى عن عمامته الكبيرة الملتفة حول رأسه، ورماها للبنت تلفها حول وسطها ساترة عورتها، لم تعرف وهي تفك قماش العمامة ثم تنشغل بلفها حول جسدها العاري وتخالس الفتى المفتول العضلات النظرات كم فرح بها حتى أوشك أن يطير.

تمنى كامونقه الفرار من «أم درمان» الصاخبة العامرة، والعودة إلى ربوع «كردفان» الجميلة ليكبر والبنت معاً بعيداً عن العصف، صارت له إلهاماً يمده بأحلام صغيرة يريد تصديق احتمال وقوعها، ليس كثيراً على الله أن يجعله وفتاته حرين – كان قد نسى أنه عبد– فيكون لهما

سقف وأطفال، وربما أمتار من أرض متمناة تطعمهما جني زرعها.

ترك سيده البنت في عهدته مانحاً إياه أنثى تدفىء فراشه في عريشة لهما في زاوية الدار، انتسبت إليه أمام الجميع؛ العبيد والأحرار. فواصلت الأحلام بسط نفوذها على نهاره وليله، ربما في «نيالا» قريباً من أهله، يكون له مكان فيه زوجة وأبناء وزرع وبهائم يرعاها، منحته خيالاته سعادة قصوى هي سنده وسر قوته واقباله على كل مهمة توكل إليه بحماسة غير معهودة، فقد صار بين يوم وليلة رجلاً له امرأته، مسؤولاً عنها، ومتفرغة له، إذا عاد مساءً مع سيده تركت كل ما يشغلها في قطيات زوجات التيجاني من أعمال، قش الحوش أو عواسة الكسرى، أو غسيل الأواني أو الثياب، وهرعت لرجلها الذي اختارها دون العالمين، وصارت حصته كما صار كل أهلها وعالمها.

باع السيدُ السمسمَ واشترى حاجاته وأعد إبله وضم عبيداً أشداء إلى ركبه. مستعداً للعودة إلى كردفان، لكنه قبل أن يرحل بأهله وقافلته خرج بعبده كامونقه من السوق إلى «الديم»(*). حيث يعسكر الخليفة وجند الجهادية وأنصار المهدي.

لم يكن التيجاني غافلاً عن مخاطر اصطحاب عبده إلى معسكر يعبث برؤوس العبيد فيحرضهم على أسيادهم، ويبيعهم أوهام الحرية

(*) الديم: المعسكر.

المرتبطة بالجهاد والذوذ عن دين الله أمام هجمة الكفار صفر الوجوه أصحاب العيون الخِرزية الزرقاء، لكنه لا بد أن يخاطر، فهو على كل حال يؤمن بأن ما يحدث هو تقدير من العزيز القوى لا يمكن رده أو تحويل مساره، كما يستبعد أن عبده يطمح إلى حياة تفوق ما يوفره له، لا شك أن الفتى يعرف أنه مدلل بين العبيد.

لا يمكن لتاجر كردفاني أن يبرر تجاهله الخليفة الذي يُقرب أهالي كردفان ويمنحهم الحظوة والأمان، كما يعرف التيجاني أنه لا يستطيع البقاء حاضراً والصمود منافساً في السوق الأكبر في البلاد لو تجاهل الديم، فهناك تعقد الصفقات الأهم، وهناك يُبارك التجار وينالون الحماية وينتمون، أما خارج ديم الخليفة فلا سوق تشفع لبائع أو مشتر، إنه زمن المد الكبير الذي ليس من الحكمة إنكاره أو التغاضي عنه، فأينما حاول تفادي التعامل معه سيرتطم به كما لو أنه قدر مسلط على الدنيا، فقد تمكن أنصار المهدي من السيطرة على الخرطوم ودحروا الإنجليز والمصريين وحكموا الدنيا التي يعرفها على أرض السودان، وراح الناس من كل القبائل والجهات يقدمون ولاءهم للمهدي الذي أنقذهم، ومن بعد موته لخليفته، لكل هذه الأسباب مجتمعة اختار التيجاني ولوج العرين بنفسه، مصطحباً عبيده في استعراض نفوذ وقوة وملكية، راقب الناس قافلته تقطع الديم بأبهة

وخيلاء، والإبل تميد من ثقل هداياه للخليفة، ومع كل هذه الأبهة كان التيجاني قلقاً، فهو في طريقه للقاء عبدالله ود تورشين الذي صار ينادى بالخليفة عبدالله التعايشي، واختلطت حكايته بالأساطير والشائعات.

وصلت القافلة منطقة أبي سعد حيث المعسكر على بعد ألفي متر من مياه بحر النيل، اجتازت المدخل الواسع بحراسه الذين يدققون هوية الداخل والخارج، مرت برجال يرتدون جلاليب الدراويش المرقعة وقد خيطت فيها الجيوب من الأمام والخلف، كانوا يشيدون بناءً مبهماً من الجالوص والطوب، يسوون كتل الطوب بأيديهم ويدكون الفراغات، وآخرون يصفون ألواحاً من الصفيح تعكس ضوء النهار، يسوونها ويبثتونها مقابلة لقبة المهدي الأول عند مدخل المعسكر، يعملون بصمت وتثاقل في نهاية نهار صيفي قاس. توقفوا يرقبون قافلة التاجر الكردفاني تعبر الدرب، وكامونقه وحده دون العبيد يمتطي حماراً قوياً يوشك أن يقارب هيبة الحصان، يتلفت حوله كأنما يبحث عن تفاصيل حكاية المهدية المجيدة.

مضى عامان على وفاة المهدي الأول محمد أحمد الذي خرج من عباءة الصوفية إلى موقع المجاهدة بالنفس لقتال الكفار، واقتفى أثر نبي الإسلام في كل صغيرة وكبيرة حتى قادته ناقته (كما النبي) لاختيار موقع معسكره الذي أسماه الديم، وهو الذي وافاه النبي في حلمه

ويقظته واختاره مهدياً وخليفة للمسلمين، بدأ نضاله وثورته على الإنجليز ومن والاهم برفقه أتباعه الذين تكاثروا وتدفقوا كمجاميع النمل إلى قلب أم درمان البقعة الطاهرة دون أراضي الأرض أجمعين، مشتهياً فتح «الخرطوم» المدينة القريبة التي يرتع فيها الظلم والمظالم وتبنى فيها مساكن من ظلموا أنفسهم.

أنجز المهدي الأول فتوحاته العظيمة ووطد أركانه في البقعة وضم الخرطوم وقطع رأس مبعوث بريطانيا العظمى «غوردون»، كأنما أنجبت أرض السودان الوادع أسداً هز البلاط البريطاني، وقض مضجعه وغير موازين القوى، ثم، بعد ستة أشهر من الفتح العظيم مات المهدي وفتر الانبهار بالكرامات التي رافقت مسيرته، وتسلم الراية خليفة أشد بأساً وأكثر التصاقاً بالحياة العسكرية وأدهى سياسياً، لكل هذه العوامل ما كان بامكان التيجاني إلا أن يعيد حساباته ويأتي محملاً بالهدايا.

يعرف ابن كردفان بأس التعايشي، منذ أصدر المهدي الأول فتواه وكتابه الشهير يهيئه لخلافته ويرد عنه سهام الحساد واستنكار العرب لاختيار غرباوي خليفة عليهم: اعلموا أيها الأحباب أن الخليفة عبدالله، خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق، فهو خليفة الخلفاء، وأمير جيوش المهدية المشار إليه في الحضرة النبوية. فذلك

عبـدالله بـن محمـد، حمـدَ اللهُ عاقبتـه في الـدارين، فحيـث علمـتم أن الخليفة عبدالله هو مني وأنا منه وقد أشار سيد الوجود، فتأدبوا معه كتأدبكم معي، وسلموا إليه ظاهراً وباطناً، كتسليمكم لي وصدقوه في قوله، ولا تتهموه في فعله، فجميع ما يفعله بأمر من النبي، أو بإذن منّا. فحيث فهمتم ذلك، فالتكلُّم في حقه يورث الوبال والخذلان وسلب الإيمان، واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتيَ الحكمة وفصل الخطاب»(*).

لم يكن الكردفاني غافلاً عن الدنيا التي أقبلت على التعايشي، ولا عن شجاعتة وجرأته وهو يخاطب ملكة الدنيا البريطانية: «أسلمي تسلمي، إن أسلمت وحسن إسلامك ربما زوجناك من أحد أمرائنا».

يمكنه تصور وجه البريطانية وقد اكفهر وأرجف الغيظ أطرافها، وربما ظنت أن عليها أن تؤدب السودان الذي يتمرد على واقعه كأرض مرعية لبريطانيا العظيمة ومصر القوية، ولكنه يعرف أن تاجر سمسم مثله لا يملك إلا إظهار انتمائه وابتهاجه وتقديم خدماته والإفادة ما أمكن من علاقاته الطيبة بأمراء المهدية الذي يشترون سمسمه.

فكر التيجاني بكل العوامل المتشابكة المعقدة وهو يعبر الديم عصراً

(*) كتاب المهدي لمريديه يمنح الخلافة للتعايشي أرسل إلى أنحاء الدولة بتاريخ 26- يناير 1883م.

وفي الهواء بقايا من حرارة اليوم الذي كان، وقد انقضت الصلاة وسط حركة عبيد وجند تتباين ألبستهم بين الثياب المرقعة وجلاليب بجيوب من الخلف والأمام وجلابيات «على الله» القصيرة التي يرتديها عسكر مستنفرون للجهاد دون إبطاء، بينما تكتظ الساحة بالعربات التي تجر باليد وقد رُصت بالبضائع، ونسوة يقطعن الساحة عشوائياً متبوعات بأطفالهن، يعج المعسكر بحياة حافلة أبهجت وجه كامونقه ليبتسم ابتسامة واسعة كاشفاً كل أسنانه، ثم فاتحاً فاه دهشة شاداً رسن الحمار ليقف خشوعاً حين اقترب من جمع ساجدين في الساحة يرفعون رؤوسهم في تناغم كامل يقرأون راتب(*) المهدي:

- « اللهم يا مذكوراً بكل لسان، ويا مقصوداً فى كل آن، ويا مبدئاً لكل شأن، ويا من بيده الأكوان، ويا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن، ويا مالكا لكل جرم وعرض وزمان، أسألك بما توليت به الأولياء المقربين الذين لهم عندك شأن، أن تصلى وتسلم وتبارك على سيدنا محمد وعلى آله عدد ما يكون وما كان، وأن تصيب قلوبنا بنورالعيان، وأن لا تغفلنا عنك وأنت القريب، فلا تنسنا قربك يا رحمن».

أومأ له التيجاني ليواصل المسير فاستجاب متلفتاً، وانخفض صوت

(*) إنشاد صوفي خاص باتباع المهدي.

المقرئين تدريجياً:

- «اجعل قلوبنا واعية بك عارفة بما أسديته من الإحسان، ولا تجعلنا فى ذكرك غافلين عنك يا مالك، يا قاهر يا ظاهر البرهان».

اقتربوا من المجلس يحيط بهم رجال الأنصار ممتشقين سيوفهم، وبعضهم يُردف ظهره بارودة الخواجات المزودة بسكين طويل، تملكت الرهبة عبيد التيجاني وهم يحاطون بكل هؤلاء الحراس، ترجلوا عن بهائمهم التي اقتيدت بالهدايا التي تحملها لتربط، انفصل السيد وعبده عن القافلة وسارا راجلين في موكب يتقدمه رجل قدم نفسه باسم الزاكي طمل، أمين سر الخليفة، ابتسم التيجاني بحذر صامتاً، وعينا عبده ترقبان مصير الهدايا التي سلكت درباً غير الدرب التي تقود إلى مجلس الخليفة، فجأة غمرتهم رائحة شذية لطيب الصندل والمحلب، ولم يتمالك كامونقه نفسه من الوقوف لثانية يعب فيها الهواء مستمتعاً بالرائحة، ضحك الزاكي متباهياً:

- هذه رائحة الجنة التي ترافق الخليفة كيفما سار وأينما جلس.

اكتمل بناء الحجرة التي يقادون إليها حديثاً، ولم يجف طينها بعد، عند الباب الخشبي تم ايقاف العبد والسماح لسيده بالدخول.

عن بعد كان يمكن لكامونقه رؤية صف من الرجال عراة إلا من قليل يستر عوراتهم، وقد أحنوا رؤوسهم المثقلة بالسلاسل والدوائر

الخشبية تغل أعناقهم، بينما أدمت عراقيب أقدامهم دائرة حديدية غليظة تدعى المكية، تنتهي إلى سلاسل ثقيلة تجعل الحركة بطيئة، تقاطروا كما سرب من النمل دالفين من المدخل الرئيسي للديم مارين أمام أكواخ القش ميممين صوب الساير(*)، التقط سمعه صفير سوط الغنج(*) وهو يهوي على ظهر أحدهم فيشخر ثم يصيح.

تحولت الصيحات إلى مرارة في حلق كامونقه الواقف في انتظار خروج سيده من مجلس الخليفة.

تقدم الزاكي الضيف بخطوات داخل المجلس ثم توقف واستدار فارداً يمناه على آخرها مدليًا ردن جلابيته «أم جكو»(*) كأنه يحول بين التيجاني ورؤية الخليفة، هتف بصوت خاشع:

- «عبدالله التعايشي، ود تورشين»، زين الحياة ونعيم الوجود، حبيبنا وخليفة حبيبنا.

انزاح في حركة مسرحية بمقدار ضئيل وأرخى ذراعه فانكشف الخليفة وعبق فوح الطيب. قال الزاكي معرفًا بالضيف في صوت بارد

(*) الساير: حجرة الحبس.

(*) الغنج: سوط من جلد الخرتيت.

(*) أم جكو: جلابية خاصة بالانصار لها أردانٌ واسعة وجيوب كثيرة من الأمام والخلف.

وتواضع مصطنع:

- أخونا تاجر السمسم التيجاني من كردفان.

لم يكن التيجاني غراً يمكن افزاعه بهالة السلطة، كما لم يكن مهتماً بعالم الحرب والنفوذ والقوة والتنافس على المكاسب، ولا يقع بسهولة في فتنة روحية يشيعها شذا البخور أو أقاويل وأخبار المعجزات. في عالم التجارة هو أقرب إلى رجل مهمل؛ يربح مصادفة أو بالحظ في كل مرة. لكنه ورغم استهانته بما يُجل الناس ويعتقدون لا يفتقر إلى الكياسة والبراعة في التصرف وفق الحاجة

لهذا اقترب بأدب جم محيياً الخليفة الذي استرخى على العنقريب المجلل بالفرش كما لو كان عريساً. رجل ربعة، هكذا قدر في نظرة ذكية قصيرة ألمت بالتفاصيل: وضعية جلوسه تشي باعتدال القامة، عمامته البيضاء ثقيلة فوق رأسه، يرتدي ثوب الداوريش المرقع في أربعة رقاع ملونة، وتتدلى مسابح كثيرة فوق صدره، تميل بشرته إلى خضرة مليحة وترتفع وجنتيه ليبدو أنفه منقارياً يكسب الوجه قسوة رغم أن عينيه الواسعتين الذكيتين تفيضان بالبشاشة، من الصعب تجاهل آثار الجدري التي نهشت وجنتيه كنقرات طائر، والتي توارى بعضها تحت شعرات خفيفة في الخد تتكثف عند الدقن وفي الشاربين الصغيرين المصففين بعناية.

ظل الخليفة على جلسته متربعاً فوق العنقريب العالي، وأشار بيده يأذن للضيف بالجلوس إلى الحصيرة التي مدت مقابله، تبادل الخليفة والتيجاني المجاملات كأنهما صديقان يلتقيان بعد زمن طويل، وتلطف الخليفة بالتعريف بمن جلسوا حوله في مجلسه:

- علي الحلو، أخونا وصهرنا وخليفتنا، قاسم، وذاك المدثر، هما اللذان يقرآن الكتب والرسائل التي تصل ويكتبان ما أملي به عليهما، شقيقي يعقوب، عبد القادر صلاح الدين، وهذا أخونا الأحمر(*)، كان اسمه «سلاطين» قبل إسلامه، وهذا طبعاً الزاكي طمل، ساعدي الأيمن، هذا عندي مثل «اسماعيل» لـ«ابراهيم»(*).

انتشى الزاكي للمكانة التي وهبها الخليفة له، وحرك كل من علي الحلو وقاسم ومدثر رؤوسهم في ترحيب مهذب، بينما بدا سلاطين متعجلاً غير قادر على الوقوف مزيداً من الوقت في حضرة الخليفة وضيوفه، تهامس والخليفة ثم علا صوتيهما في عبارات موجزة حول سفر ينوي سلاطين الملقب بعبد القادر القيام به إلى منطقة سنار، انسحب سلاطين باذلاً جهداً في استرضاء الخليفة متجاهلاً الآخرين، تململ التيجاني وشعر أن زيارته لا معنى لها، تقتحم جدول اهتمامات

(*) الأحمر: أبيض البشرة.

(*) النبيان ابراهيم وابنه اسماعيل.

الخليفة وتثير السأم المتبادل. كسر الحلو رتابة الملل منبهـا حواس التاجر حين سأله في جملة مباشرة إذا كان قد استلم ثمن السمسم الذي باعه للمعسكر كاملاً غير منقوص.

لا يعبأ التيجاني بخفي الكلام لدى التجار والساسة وأصحاب الشأن، يعرف في تلك اللحظة أنه غير قادر على الإفصاح عن هداياه التي سحبها الرجال بعيداً وإلا بدا وقحاً يتمنن على الخليفة، ساوره الشك أن الخليفة لن يعلم بهداياه، وأن السؤال عن ثمن السمسم يهدف إلى تحجيمه في خانته المحدودة؛ مجرد تاجر سمسم عابر يتقاضى ثمن ما يبيع وإن كان من كردفان. في الواقع لم يكن التيجاني يطمح إلى اعتباره أكثر من هذا التاجر، ولكنه لا يريد أن يصغر في عيني الخليفة، أو أمام نفسه على هذه الصورة. أسعفته الحكايات التي يسمعها ليقول:

- قبضت ما دفعتم ولم أعُد النقود، ما عندكم يزيد ولا ينقص، وقد علمت أن الخليفة قال: إن المال لعنة.

ضحك الخليفة مبتهجاً، وأدرك المحيطون أن رجلاً ذكياً يمثل أمامهم، هز الخليفة رأسه راضياً وتنحنح مشوحاً بأصابع طويلة طرية مسدلاً جفنيه في نصف إغماضة:

- أاااي.. المال لعنة. ومن كان غنياً في الدنيا لن ينعم بنعيم الفردوس، الجنة للفقراء.

همس التيجاني في خشوع أدهشه نفسه:

- اللهم اجعلنا من الفقراء، وقوى إيماننا لتكون لنا جنتك.

تغرغرت عيني الخليفة بالدموع وران صمت مهيب، لعب كل منهما دوره بصدق مقنع. همس الخليفة بورع شجي:

- ماذا نريد غير جنته؟ لقد حارب المهدي أعداء الله والدين، قطعنا رأس غوردون المنافق، المهدي كان يعرف أن زعيم الخواجات بعينيه الزرقاوتين كاذب منافق، عندما جاء إلى الخرطوم قال إنه يريد حماية الناس من أن يباعوا رقيقاً، أساساً أكبر سوق للعبيد بلاده، بعد انتصارنا أراد مداهنة سيدي ومولاي المهدي فسمح بالرق وعين مولاي والياً على كردفان، ، والله يومها ضحك المهدي؛ كيف يعني الخواجا الغبي هذا يعينه أمير كردفان! وهو أساساً قد غنمها بسيفه وليس بحاجة لاعتراف الكفار الإنجليز، وبعدها أصدر أمراً يسمح ببيع الخدم والعبيد، أي والله، يحسب أنه يرشونا، أساساً هم من يشترون عبيد الله.

تنهد كأنه ينتهي من الحكاية:

- أأأأاه ما علينا.. غوردون قطعنا رأسه وما همنا مكاسب الدنيا ولكننا نرتجي الجنة، اللهم اجعلنا جميعاً من أهل الجنة.

كأن الحديث انتهى، رفع التيجاني رأسه بتؤدة ناظراً الخليفة:

- باركنا يا مولاي، فأنا عائد بأهلي إلى كردفان، ورأيت أن أمر بكم متبركاً مودعاً.

أبعدت كلمته الوداعية القلق من صدور المحيطين، فالرجل مسافر، لم يأت بحثاً عن دور، ابتسموا بود، وعاودوا هز رؤوسهم والخليفة يقول كمن امتلك مفاتيح الحقيقة والمعرفة:

- الله يهب القوة للمؤمنين الصادقين الذين يسلمون أنفسهم وما يملكون لأجل الايمان.

تمتم التيجاني كأنه يتأهب لطلب الإذن بالانصراف:

- اللهم اجعلنا من المؤمنين، أسمح لي يا مولاي وبارك سفري.

تلفت الخليفة كأنه لم يسمع الرجل، ونادى:

- الماس.. أين الجبة؟ الماس.

لم يكد نداؤه يسمع حتى قفز عبده الماس من زاوية المجلس حاملاً على ذراعه جبة بيضاء، ناولها لسيده بخشوع كبير.

ارتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء، ووقف الخليفة يرتدي جبته ويعدلها فوق جلابيته المرقعة، وينفض ذراعيه كأنه يتمطى، قبل أن يقول لمعاونه دون أن ينظر إلى التيجاني:

- ضيفنا لا يغادر قبل العشاء، والصلاة طبعاً.

ثم التفت إلى التيجاني بوجه ساخر وفم مبتسم سائلاً:

الا تصلى؟

هز ذاك رأسه:

بلى.. بلى.

هرع صبية عبيد وخصيان من جوانب المجلس وتبعوا الخليفة الذي سار حاملاً عصاه، محاطاً برجاله، وسار التيجاني بركبهم، فإذا خرجوا من الباب متجهين إلى القبة حيث تقام الصلاة، تفقد التيجاني الوجوه وأومأ لكامونقة الواقف بالباب ليتبعه إلى المسجد. سار الركب مسرعاً ملاحقاً مناداة المؤذن.

اصطف نفر كثر للصلاة وتراجع العبيد إلى الخلف، وتابع المصلون الخليفة إماماً، يركع فيركعون ويسجد فيسجدون، فإذا سلموا تحلقوا حوله يتلمسونه، ويبعدهم رفاقه أو هو باشارات من كفيه وكأنه يطلب تمهلهم. متربعاً على فروة خروف في موقع الإمامة في المسجد، أغمض الخليفة عينيه وانساحت دمعة واحدة جعلت الصمت يسيطر على القوم ويحبس أنفاسهم، قبل أن يفتح فاه ليخبرهم بأن المهدي يعاتبهم لابتعادهم عن الدين وسعيهم وراء الدنيا، بكى فبكوا، وطال البكاء.

هبط الليل ووقف التيجاني مشيراً لعبده أن يتبعه بغية الانصراف، أوقدت النيران في مقابس موزعة في المعسكر، وتحرك الخليفة

وصحبه في حين سمعت زعقات أبواق أم بايه كأنما المعسكر في مهرجان للحظات قبل أن يدلف الخليفة حجرته ويخرج الضيف من بوابة المعسكر الكبيرة بعد أن سجل حضوره؛ مكتفياً بتلك المهمة الثقيلة على قلبه.

ليلة لا تشبه الليالي المنتظمة التي اعتادها تاجر السمسم وعبده، والتي ولت إلى غير رجعة.



يقول كامونقه:

- تلك كانت ليلتي الأخيرة مع سيدي التيجاني.

ركبني عفريت اسمه الجهاد، وأنا ما عرفت قبل اليوم أن عليّ أن أجاهد جندياً؛ أقتلُ الإنجليز أو المصريين، وأسلم أمري بالكامل لخليفة المهدي، كنت أخاف ضرب رجل يفاجئني أيام ما كنت لصاً ينط فوق الأسوار المزججة، كيف جرؤت إذاً على التفكير بالجهادية؟ لعلي تمنيت في أعماقي الحرية المصاحبة للجهاد والتي يهبها الخليفة لكل أجناده، وإن لم أعرف أي قدر تتيحه الحرية لعسكري في جند الجهادية، بالنسبة لي أقدر أن خدمة تاجر السمسم وتبعيته أقل قسوة من مهام جنود الخليفة، ولكني جننت وأنا أفكر بأن هذه فرصة لن تسنح لي ما حييت، أن أكون حراً أنا وزوجتي، سأذهب وإياها إلى

المعسكر وسيتم إعلاننا رجل وامرأة حرين.

جف حلقي وارتعشت أطرافي كأني أعترف بكفري، مع ذلك وقفت أمام سيدي أبلغه رجائي في صوت واهن خجل، لم يظهر التيجاني غضبه، بدا مندهشاً ثم منزعجاً وهو يستفسر عن سبب قراري هذا، وأنا لا أفسر؛ إذ لا أملك تفسيراً، فلم يلعب أي من القاطنين في الديم برأسي في تلك الزيارة، على العكس نظروا إليّ شزراً، وتجاهلوني عند الباب.

لا أعرف كيف واتتني الجرأة للمطالبة باصطحاب اللمون معي زوجة شرعية.

أمهلني سيدي حتى الصباح لأفكر؛ فما نمت. هذا ليس خياراً: أن تكون فوق منصة عرض العبيد، أو في مقام الأحرار! العبودية حياة راكدة، حتى في أحسن أحوالها كما حالي مع بائع السمسم الكردفاني، يخاتلني أمل انضمامي إلى الجهادية، لعلها مغامرة مجنونة، أو انقلاب حقيقي أكون فيه خاسراً أو رابحاً، ولكني في الحالين، أكون.

سمعت وراء أسوار الديم نداءً غامضاً يغويني ويشلعني من حياتي السابقة، لو مت جوعاً أو أرهقتني حياة المجاهدين، فإن للعالم بوابة مشرعة سأمر منها، ولو منعني سيدي فقيد قدميّ أو جلدني وهو يأمرني أن لا أذهب، لربما كنت أطيعه، يقيناً كنت أُطيعه؛ فلست أملك ترف

مخالفته. وما أنا إلا عبده الذي يساوي عنده مالاً خسره. خفت أن يحسبني ناكراً للجميل أساومه من موقع العارف بسلطة الخليفة الذي يحرر العبيد ليضمهم إلى جنده، قررت: في الصباح سأقسم له أني لا أريد الإساءة له، ولا أستغل سلطة الخليفة ولا أستقوى به، ولكن شوقي للحرية يجرفني في هذا الدرب. لكنه لم يمنحني الوقت للكلام، عند الفجر حدق في عينيّ المتعبتين اللتين لم تعرفا النوم ليلة كاملة، وهز رأسه هامساً كمن يحدث نفسه:

- خسارة.

أخرج من جيب ثوبه نقوداً دسها في جيب ثوبي فأماتني خجلاً وعرفاناً، وأكمل همسه ممتعضاً:

- خذ البنت وأمشي.

هل يفيد لو اعتذرت له أو بكيت واستعطفت ورجعت عن قراري؟ كنت ماضياً في دربي حتى نهاية المطاف، وألقيت باللوم على النداهة الغامضة التي شتلتني من خاصرة الروح باتجاه الديم، لو لم يكن هذا الرجل لما كان لمثلي أن تنقلب حياته على هذا النحو، قبلت كفه قبلة خاطفة، بالكاد لامست شفتيّ أنامله فقد سحب كفه نافضاً ذراعه كأنه غاضب، واستدرت بسرعة متفادياً لقاء العيون، انصرفت من أمامه لا ألوى، يكاد قلبي يقفز من صدري هولاً وحماسة وفرقاً وحزناً

وفرحاً.

في ذلك الصباح فكك العبيد حاجيات سيدي، ولمو أشياءه، وسار بأهله ودوابه في قافلته ميمماً كردفان، وتوجهت واللمون إلى الديم.

قريباً من بوابة الديم في ظل حائط طيني لمحل في السوق بتنا أنا واللمون يوماً وليلة قبل أن يسمحوا لنا بالدخول، لم يكن الدخول سهلاً كما في رفقة سيدي، مع أني شرحت رغبتي في التطوع للجهاد. قابلني عدد يستفسرون ويدققون خوفاً من أن أكون عبداً هارباً يأتي سيده وراءه مطالباً به، لم يجدو لي اسماً في دفاترهم، حملوا حكايتي للزاكي فسمح بدخولي المعسكر، نقّلوني وزوجتي بين العشش لأيام، قبل أن يسمحوا لي بالمثول بين يديّ الزاكي وقد لقنني مدثر ما وجب عليّ قوله ليتم قبولي وتعلن حريتي.

ارتعشت قدماي تحتي، وخرج صوتي متقطعاً مبحوحاً حائراً بالكاد يسمع وأنا أتمتم:

- بسم الله الرحمن الرحيم... بايعنا الله ورسوله.. وبايعناك.. لا نشرك بالله.. ولا نأتي البهتان.. ولا نعصيك في المعروف.. بايعناك على ترك الدنيا لأجل الاخرة.. وأن لا نفر في الجهاد.

ذاك النهار لم أعد كامونقه، لقد نزل اسمي الجديد من السماء ليرافقني في ما تبقى من حياتي، هكذا ظننت وقالوا، لهذا لا أحب أن تنادوني

كامونقة، فاسم الحر الذي يحدثكم اللحظة معتوق.. معتوق.

***

قالها مفخمة وتلامعت عيون أهله وهم يسمعون.

تركتهم رحمة في انبهارهم وانسلت من الجلسة، بعيداً عن بريق الجمر الذي يومض أسفل كافترية الشاي، دخلت في عتمة الفضاء المحيط بها، أصغت إلى صوت الهواء الصامت تتخلله صرصرة حشرات هائمة، حدقت في التماعات النجوم العالية في قفطان السماء الأسود المنسدل على الدنيا، سارت وسط الظلمة الحالكة تتحسس رطب التراب تحت قدميها الحافيتين، وتمد ذراعيها إلى الأعلى تتضاحك كأنها ستلتقط نجمة هائمة في السماء، أعادتها صرخة أمها تناديها إلى الجلسة مجدداً.

تنهد معتوق منتظراً أن يصبوا له كباية شاي جديدة، تمهل مقطعاً حديثه مستمتعاً بانحباس أنفاسهم ورهبتهم من تعبئة الفراغ الماتع بتعليق، ينتظرون بصبر وترقب ارتشافه رشفة الشاي الجديدة، وأن يمسح شفتيه بردن جلبابه، ويعاود التنهد قائلاً:

***

- تغيرت حياتي في الديم، في الأيام الأولى كدت أجن لأنهم أخذوا اللمون إلى عشة واسعة فيها نسوة كثر، وكلفوني بقش قبة المهدي

التي انتهى بناؤها، شارك كل من أراد نصيبه من الجنة في بنائها وساعدتهم ملائكة لا يراهم إلا أصحاب الحظوة، نقل العمال أنقاض الطوب والأبواب والنوافذ لمنازل غنموها من الخرطوم ومن مبنى الكنيسة الكاثوليكية، رصوا الطوب والجالوص بأيديهم وشارك الخليفة بنفسه في هذا الشرف، وكان المهندس اسماعيل أفندي الذي رسمها يتفقد عمل الرجال راضياً.

شيدت القبة على أربع زوايا، كل زاوية سبعة عشر ذراعاً عرضها يفوق المترين، وترتفع في مثمن طوله خمسة أمتار ينتهي إلى استدارة. كانت مهمتي تنظيف القبة من الداخل والخارج ورش الماء على الرمل المحيط لتلين الأرض لجموع المصلين والمتبركين باسم مولانا المهدي، وكنت أمسح التراب وآثار الأيدي التي تتلمس التابوت الخشبي المشغول في مصر والمكسو بالجوخ، كما أتشعلق لمسح المصابيح والمقصورة النحاسية والثريات المطعمة بالذهب والفضة، ثم أقش باهتمام السجادة الفاخرة موطئ أقدام الداخلين والخارجين.

مع ذلك أهرع بعيداً عن القبة حين يقترب موعد الغذاء أو العشاء، لعلي في ساحة الديم التقي باللمون وهي تنقل مع فتيات أخريات قصع الطعام من المطبخ الكبير إلى بيت الخليفة، أطمئنها أننا سنكون

معـاً قريبـاً، أجـدد عهـدي مخافـة أن تضـيع البنـت مـن يـديّ وسـط المعسكر المكتظ بالذكور الجائعين ذوي العيون الطامعة.

متى يمكننا أن نذهب للجهاد؟ وماذا علينا أن نفعل؟ أغضبني أنهـم لـم ينتبهوا لشبابي وقوتي وحماستي، أوكلـوا إلـيّ صـغائر الأعمـال، بينمـا أرى جنـد الأنصـار يتـدربون في السـاحة علـى سـيوفهم ويتسـابقون في ركوب الخيل وقطع أشواط يطاردون فوق ظهورهـا، يهـزون رمـاحهم بفروسية مرددين: - المجد لله وللرسول.

وماذا أفعل أنا؟ أنتظر أن يتوقفوا عن منحي شرف تنظيف القبة ومسـح الأغـبرة وفي حـالات أخـرى تقـديم قرعـات طافحـة بالمـاء والعسـل للضـيوف، وجـر شـوالات البلـح إلـى المخـزن وراء سـجن السـاير في منتصف المعسكر، أأتمر بأمر كل من يأمر ولا سيد محـدد لـيّ أعرفـه، قايضت سيدي بكثر. كدت أقـع في فـخ اليـأس لـولا صـبر جميـل تنـزل علـى قلبـي وأنـا أسـمع رجـال المهـدي يقـرأون الراتـب عصـراً بعـد الصلاة، فأردد معهم:

- «الحمد لك يا الله حمداً يـوافي نعمـك ويكـافيء مزيـدك، سـألتك يـا رب يا إلهي ويا مولاي ويا ملجئي، أسألك بحـق المصـطفى نبيـك المؤتمن المأمون، أن تلقي في قلبـي عظمتـك وجلالـك وكبريائـك وكمـال قـدرتك علـى كـل شـيء، لا تجعلنـي مـن المعرضـين أهـل

العصاوة(*)، ولا ممن فيه لخطابك قسوة، آمين يا رب العالمين، يا مجيب دعوة المضطرين، أجب دعائنا وقابل كسرنا وفناءنا برحمتك يا أرحم الراحمين، آمين».

يفتر حماس قلبي إذا سمعت زعيق بوق أبو بايه العاجي، نفس الصوت الذي يطلقه النخاس ليجمعنا على منصة عرض العبيد في الماضي، بات صداه يجمعنا حول الخليفة في المعسكر، وإن لم أجلس قريباً وجالت الرؤوس المعممة حوله بيننا، فإني أمط رقبتي وأدس رأسي بين الرؤوس علي ألمح طرفاً مباركاً، وأصغي بانتباه حين يصلني صوته كأنه آت من بعيد.

قال التعايشي:

- فتحت عينّي، فرأيت رجلاً لا شبيه له، رأسه يناطح السحاب، وخصيتاه كجبلين، لم أخف فسلم علي: سلام عليك يا خليفة المهدي، بل أنت المهدي، قلت: من أنت؟ قال: جان يسكن وراء جبل قاف، ولدت في زمن الخليل، وصرت ملكاً على قومي في زمن الكليم موسى، وسرت مئات السنين للقاء المهدي، ولما وصلت وجدته قد مات وحلت روحه فيك، أُمرت أن أسكن قربك لأكون مستشارك.

(*) العصاوة: العصيان.

أفسح الرجال للجان القادم من وراء جبل قاف، قدروا أنه إذ يجاور الخليفة لا بد سيقبع بين بيته الجديد الذي شيد من الجالوص وبين بيت شقيقه يعقوب، في الممر الواصل بين البيتين، ولدهشتي أمرني الحلو أن أعتني بنظافة البقعة الطاهرة حول البيتين، ثم في حظ عرفت أنه سيأتيني التقيت بيعقوب وعرضت خدماتي للعناية ببيته ودوابه على وجه الخصوص طالباً أن ترافقني زوجتي.

هكذا انتقلت اللمون من عشة النساء الكبيرة إلى عشتنا الخاصة في حوش يعقوب، في خصوصية عشتنا الصغيرة المشيدة من الأغصان والأشواك المتعالقة تطمنت إلى أنها امرأتي، احتضنتها ووهبتها روحي وشربت روحها، عندها أيقنت أني حقاً في أول الطريق لاستحق اسم «معتوق» وعاودتني الأحلام.

يقع سكن شقيق الخليفة يعقوب قريباً من بيت الخليفة المبني من الجالوص والطين، حول مسكنيهما تتناثر عشش بسيطة للخدم والحراس، هناك كانت جنتنا الأولى أنا واللمون، وصارت أعباؤنا قليلة تنحصر في ترتيب سكن شقيق الخليفة وإعداد طعامه ورعاية أسرته، وملاحقة العقارب واصطيادها منعاً لتسللها لبيت الخليفة أو العشش المحيطة، والأهم الحفاظ على الممر بين بيته وبيت الخليفة نظيفاً، كنت أمد فيه الحصير كما في ممرات بيت الخليفة، لعل تلك

العناية بموقع سكن جني جبل قاف تنعكس سلاماً علي وعلى زوجتي، لكني ورغم تلك الهناءة القصيرة أتحين الفرص للحديث مع يعقوب وفي النفس غاية.

كان الرجل أقصر قامة من شقيقه، لا يتمتع بسحر وجهه، آثار الجدري ظاهرة في وجنتيه بصورة فادحة أقرب إلى الدمامة، يخترق أنفه الكبير شاربيه ولحيته مرتفعاً قليلاً. رأيته يعيد كتابة بعض الدفاتر، قيل لي أنه يقرأ ويكتب بعكس الخليفة الذي يحفظ ما استطاع عن ذاكرة ذكية، لعله العقل المدبر والمسير لشقيقه! ثم يجلس لقراءة القرآن، تحينت فرصة إغلاق يعقوب كتاب الله خاشعاً واقتربت، وقفت صامتاً أنتظر أن يؤذن لي بالكلام، رمقني الرجل بنظرة فضولية، وقال كما لو أنه يسأل:

- ها؟

قرفصت راكعاً وأحنيت رأسي أخاطبه بصوت خافت وجل، لكنه سمعني على أية حال:

- سيدي، أنا تطوعت في الجهادية لأجاهد، متى أجاهد؟ أريد أن أتدرب.

صمت لحظة خلتها دهراً، ثم تنحنح قائلاً:

- ألست تنظف بيتي وجوار بيت الخليفة؟ ألم تكن تنظف القبة؟

أليس العمل جهاداً؟

ارتعشت هامساً:

- فوق رأسي، شرف كبير، لكني أريد محاربة الكفار.

لم يكن يسيراً على فتى مثلي تفسير معنى الجهاد، كما لا أعرف من هم الكفار الذين سأحاربهم، وأخجل من البوح بأني لم أكن كسواي في حوش الخليفة؛ واقعاً تحت سحره، وإن بدوت منساقاً أفعل ما يفعل الآخرون. في ليال كثيرة تذكرت افتتاني بالتيجاني وأظنه فاق مشاعري تجاه الخليفة، ولكني لم أفصح عن ذلك الارتباك الذي يعصف بي ولا حتى لامرأتي الصغيرة، كما لم أجد سبباً يجعلني أفصح عن جهلي بفحوى الجهاد تحديداً، في أعماقي أظنه سبيلاً إلى الحرية، هكذا دون تفصيل ولا شروحات عسيرة، ناهيك عن ضياع رشدي تماماً في فهم معنى الحرية، لقد ولدت طفلاً حراً، هذا ما أعرفه وما كان قبل القبض عليّ، تبلبل يقيني بعد عرضي عبداً في منصة البيع، أصاب كبريائي العطب، ولن يعيد ترميم هذا الشرخ إلا فعل عنيف جارح دامٍ، قتال في خضم الجهاد، في زمان ما ومكان لا أعرفه وضد بشر لا أعرفهم، فهمي للحرية والعبودية مضطرب ملتبس، فكل ما أفعله في حاضري استمرار لحياة العبودية، يبدو حاضري أكثر ضبابية من ماضيّ، ملتاث بالخوف، مرة من تخيلي فقد زوجتي، ومرة من

أزيز السوط يزغرد في الهواء قبل أن يهوي على ظهور العبيد المارقين وهم في طريقهم إلى سجن الساير، ومرة من تفاصيل صغيرة جداً كأن أعرف أني لا أستطيع رد أمر صدر لي بقش حوش يعقوب مثلاً، لست حراً هذا ما أعرفه، لست حراً حتى أمتشق بندقيتي وأخرج لقتال العالم.

قال يعقوب وهو يبتسم:

- لا عليك، متشوق للجهاد! سيكون لك ذلك عندما يصل النجومي.

والله أني حسبته يعني نجماً بعينه يظهر في السماء في زمن معين، كنت غراً ينتظر قدره وينتظره زمان فادح.

بانتظار الوعد رفعت مع الرجال الكرات النحاسية الثلاثة التي أضافها الخليفة إلى ضريح المهدي، وقمت بجلب الطين والحجارة من النيل القريب، وجبلت ما نقيم به السور الحقيقي للديم، كان السور الجديد يمتد من ضفة النهر إلى منزل الخليفة، ويلتف شرقي المسجد وينتهي إلى ضفة النهر مرة أخرى، كل الرجال الذين ساهموا في جبل الطين ودك الحجارة ورفع السور لم يتقاضوا أجراً، ولكن الكثير من بركات الخليفة، وإن لم يرحم من وجده من العمال يتعاطي التدخين، هذا كان يجلد ثمانين جلدة في ساحة الديم، عن نفسي لا ألتزم بالأوامر والنواهي عن طاعة بقدر ما أني لم أفكر يوماً بتجربة التدخين ولا

حلمت بالحج إلى مكة المكرمة في الأراضي البعيدة، ووجدت تعليمات الخليفة بالحج إلى ضريح المهدي تيسيراً على الناس، ولكني وسط هذه الحياة كنت أزداد أنساً وولهاً بالبنت اللمون فقد اكتنزت وتدورت وتعلمت طرائق مثيرة في الغنج، لم تفارقها الدهشة في العينين ولا نعومة الملمس إذا عانقتها، صارت امرأة حقيقية. انتظرنا النجومي معاً، ولقد عرفنا أنه رجل من رجال المهدي؛ شجاع صنديد كانت له صولات وجولات في فتح الخرطوم، وما يزال يقود الرجال في أصقاع بعيدة مجاهداً، صار لي نموذجاً بطلاً أُجِلَه وأحترمه وأنتظره.

رغم رتابة الحياة في الديم بالنسبة إلى رجل مثلي، فإن متغيرات كثيرة حدثت فجأة، أدركت أن مشكلة جدت أدت إلى تقليل الحصص الغذائية، تمر أيام طويلة لا نتناول فيها إلا قمعاً من الذرة وبعض الماء، حتى الخير الوفير الذي يحمل بالقصاع إلى بيت الخليفة وأهله بدأت كمياته تقل، وترددت في المعسكر كلمة «المجاعة»، هذه أعرفها منذ فقدت اسمي الأول.

يتحرك العسكر كما زيت يفور، تدريباً وتنقلات، ومساعد الخليفة طمل ينتقي الفرسان الأشداء لاصطحابهم معه شرقاً حيث معارك ضارية مع الحبش، ماذا عني؟ سألت يعقوب بتذلل، أخبرني أن

النجومي قادم.

أتمدد في عشتي أحلم كثيراً بوصول قائدي البطل، راق لي أن يعقوب صرف لي ثوب الأنصار المحاربين «على الله» الثوب القصير بجيوبه المتعددة من الأمام والخلف، ومركوب يصلح للقدمين دون تحديد اليسرى من اليمنى، كانت هذه الثياب تعني استعداد المجاهد للنداء حين يسمعه. قطعت اللمون وجدي وحماستي بضربة مفزعة، حين أخبرتني بأن طفلي يتحرك في أحشائها. كيف سأصطحبها معي إلى ساحات القتال كما يفعل المجاهدون؟ لقد تمنيت في غفلة من العالم إبان عبوديتي أن تكون لي عائلة، كيف لي جر عائلتي ورائي إلى الموت؟

وصل عبد الرحمن النجومي إلى المعسكر وروحي القتالية قد انكسرت بمخاوفي، ولكني أيقنت أن لا رجوع. فُتح مخزن السلاح وتم إعطائي بندقية قالوا إنها نوع غربي يسمى «رمنجتون»، تدربت على التعامل معها لأيام، وقلبي منتش حماسة ورهبة، فها هو مصيري يضعني بين رجال النجومي فاتح الخرطوم، رَافع الراية الحمراء، قائد السرية الأولي، سرية المقدمة الذاهبة لفتح مصر، وما أدراك ما مصر؟ باب من أبواب الجنة، من يجلس على عرشها فقد ملك العالم بأسره، إليها يهدر النيل وعلى ترابها يستقر وفي بحرها يندلق، قاب قوسين أو

أدني من عرش الرحمن.

***

تشوق معتوق متوجساً إلى الحياة التي سيقبل عليها بجسارة الإقبال على الموت الذي يرافقها، وارتفع بطن اللمون أمامها يثير قلقه، بالمقابل اجتمع قادة الخليفة العسكريين على قلق يخططون لحملة الشمال المتوجهة إلى مصر، فالمواصلات سيئة لا تبشر بمسيرة سهلة، والرجال الذين يشكلون جيش المقدمة يفتقرون إلى التجانس والتدريب، عدا عن صعوبة توفر المؤن والإمدادات وزحف المجاعة على أرجاء شاسعة من أرض السودان،

كان الرجال الذين يحيطون بالخليفة يطمعون بمعونة الملائكة وبشيء من المعجزات، بينما أدرك النجومي أنه مقبل على سعير، فهناك على الحدود المصرية سيكون بانتظاره ما يقارب اثنى عشر ألف جندياً مسلحاً مدرباً موزعين على حاميات الحدود في آبا وقاليب وكركر وحلفا، وستكون أسوان في العمق المصري مستودعاً لمزيد من الجند. في حين لن يتوفر للحملة التي يقودها إلا ألفان وثمانمائة محارب يحملون ثلاثة مائة بندقية وعدد أقل من الجياد والإبل، إلا أن الخليفة يستعجل الحملة. دق الرجل العسكري صدره معاهداً وخرج بسرية المقدمة وسط رجاله المهللين الباحثين عن الشهادة والجنان

الموعودة، تسير خلفهم عائلاتهم نسوة وأطفالاً.

***

قال معتوق:

- ناس كثرون، وإبل وخيل ورايات، مشينا على أقدامنا وصوت البوق يصدح والرجال يهللون ويهرولون وراء المقدمة، عجاج يصل أفق السماء ويباب مقفر موحش يفوق الصحراء التي قطعتها يوماً وأنا عبد في درب الأربعين، تتقافز حيوانات صحراوية ضئيلة أو تتسحب الأفاعي حولنا ثم تهمد الحيوات كلها جوعاً وعطشاً، وتقف الأشجار متباعدة مجردة من أوراقها أخشاباً مسننة ميتة تماماً، يفتح الكون شدقيه لابتلاعنا في هذا الفراغ المخيف. كان موقعي في الخلف قريباً من امرأتي وسط جمع مذهل من الحريم والأطفال يصل إلى أربعة آلاف نفس، هذا التصنيف يعني ببساطة أني لست عسكرياً، ولكني أسير في حملة بطلي النجومي. لا يهم أن زادنا قليل وما زلنا في أول المسيرة، أسمعهم يتحدثون عن تصميم القائد وشجاعته وهو يقود الحملة المندفعة شمالاً، مثل سواي أنتظر المعجزات ولا أتصور الخسارة، صابر بانتظار أن تمطر السماء فجأة فيرتوي البشر والدواب، موقن أننا سنصل ضفاف نهر النيل بمياهه العذبة.

توقفنا في أول محطة؛ بلدة معتوقة، عسكرنا وسط تهليل السكان وصولات وجولات طراد الخيل واللعب الخشن الذي يتدرب الرجال عليه، قيل لي حينها أن الجيش سينقسم إلى ثلاث سرايا، وقد كان. أعلنوا صباحاً عن التقسيمات الجديدة فساد هرج وتصاعدت الأتربة والجند يغيرون مواقعهم وفق التقسيمات الجديدة، قسم لقبائل الجعلية والبطاحيين، وقسم للدناقلة والمولدين، وقسم للبقارة والمسيرية، رتب النجومي جنده ليتجانسوا ويتوافقوا قبل المعركة، ولكني خرجت من الحسبة بالكامل، فما أنا جعلي ولا دنقلاوي ولا بقاري، ولا أي من الأطياف الأخرى الموزعة بدارية، لدهشتي وجدت هذا الافتقار إلى قبيلة وهوية في صالحي، لقد تم نقلي إلى المقدمة لأكون برفقة النجومي نفسه، ترقيت مقاتلاً.

لم تهلع اللمون لابتعادي عنها، أصبحت امرأتي الصغيرة الضعيفة امرأة قوية ثابتة يعول عليها، منشغلة بحملها وما همها لو نقلوني إلى مقدمة جيش تسير هي فيه في المؤخرة برفقة الخدم والعائلات.

من موقعي الجديد تمكنت من معرفة الخطة التي تقضي بسرعة الوصول إلى الماء، وبالتحديد إلى ضفة بلدة أرقين. مساءً وقد شملت العتمة كل شيء تم استدعائي وعشرة آخرين لنمثل أمام النجومي، رأيته للمرة الأولى قريباً بهياً كاملاً أمامي، قاومت رغبتي في لمسه. في

سعة جبينه عالم يمكن الضياع فيه، وفي سعة عينيه ما يحرك قلبي، وفي منكبيه العريضين ما يثير هلعي.

قابلنا بوجه وضاء واقفاً مرجعاً ذراعيه خلف ظهره وحدثنا بلهجة الواثق، تحدث عن ما أسماه الولاء لحركة المهدية التي ستغير وجه العالم، في أعماقي حتى لو تطوعت مجاهداً فقد ظلت قناعاتي مهزوزة حتى سمعت الرجل يتحدث بكل التفاؤل مبدياً إيماناً كبيراً بالنصر، وبالفكرة التي خرجنا من أجلها، أعترف أنه أقنعني، وبت مستعداً للسير على خطاه ولو قادني إلى الجحيم، ليلتها صرت رجلاً حراً يشكل مستقبله بيده إذ كلفني النجومي بأول مهامي العسكرية، وقع على عاتقي أنا والعشرة الآخرين التسلل لاستكشاف حال أعدائنا، بدت مهمتي التجسسية لسبر الأحوال واستكشاف الطريق كأنها أم المهام في هذا الكون.

على مشارف بلدة أرقين ولما تبزغ الشمس بعد والليل الحالك يتحلل من طبقاته الكثيفة، روعنا المشهد الذي غطى ضفة النهر والأفق الذي ينتظر الضياء، كان للباخرتين الرابضتين في الماء هيكلين عملاقين يصنعان ظلالاً غامقة بلون السكن المحروق في الأفق الرمادي، وكلما انكشفت الرؤية قليلاً اتضحت فداحة الحال، باخرتين مزودتين بالمدافع الحديثة وبما لا يمكننا تقديره في بطنهما، ومئات الهجانة

يتجولون حول تنظيمات العسكر السودانيين المرافقين للمصريين والذين تمتد تشيكلاتهم على امتداد النظر، ما يعني أن الوصول إلى الماء دونه الموت، وددت لو أني وزملائي نعود بأخبار مغايرة، ولدهشتي وجدت أن أخبارنا المهولة العكرة لم تذهب بتفاؤل وحماسة القائد الذي وجه الجمع إلى خطة بديلة، فقد وجد أن الاشتباك مع العدو لن يكون مناسباً قبل أن يرتوي العطاشى، تحركت الجموع بانحراف بسيط عن الهدف وتمكنا في يوم وليلة من الالتفاف حول نقطة الاشتباك لنصل إلى خور متصل بالنيل، انهمرنا جموعاً منهكة عطشى نرتوي من مياه الخور الشحيحة ونبعئها في أوانينا وقرعاتنا، فقد بات واضحاً والمؤن تتناقص أن الأيام القادمة قاسية مريرة، لا أنكر أن زهوي كجندي في المقدمة جعلني مختالاً أحمل نفس فرحة قائدي وإيمانه الأكيد بالنصر، وبأني في خضم امتلائي بذاتي لم أفطن إلى معاناة اللمون وهي تتقدم في الحمل والجوع وحيدة. رأيتها عند مصب الماء ذاوية جائعة تترنح ببطنها المتورمة المندفعة أمامها فتغرغرت الدموع في مقلتي وهي تنظرني بلا عتب أو فرح برؤيتي، صرت في خضم شهور قليلة رجلاً غريباً عنها، هل تراها كرهتني وأنا أجرها إلى هذا المصير وهي تكاد تضع حملها؟ للنساء أسرار لا نفهمها، وللرجال أحاسيس متبلدة وقلوب قدت من حديد،

فجأة صرت من هؤلاء.

أعاد القائد تقسيم جيشه مرة ثانية إلى جناح يناط به مهاجمة ميمنة البلدة وجناح يهاجم الميسرة وآخر يندفع إلى القلب، وأشهد أني لم أكن جندياً أبداً كما كنت في تلك المعركة، أضرب يمينا ويساراً وسط اصفرار التراب الذي هاج تحت وقع أقدامنا عجاجاً تناثر حتى غطى الأفق، لا أشعر بأوجاع جروحي وقد أصابني جرحان، كأني في عالم من الغيلان أو الوحوش الضارية أقاتلها وحدي، كنت حراً، حرية أستحقها، حراً جداً لأموت، ولكني لم أمت في تلك المعركة التي خسرناها بمرارة. قتلوا تسعين رجلاً، وأسروا خمسمائة، شتتونا فعدنا بذل العبيد جرحى مكلومين إلى معسكرنا، ولم نوقع فيهم من القتلى أكثر من أحد عشر رجلاً. هل كنت أضرب رصاص بندقيتي في الهواء؟ هل حاربت الظلال وأشباح الرجال؟

حُملت إلى مؤخرة عسكرنا لأطبب قبل عودتي إلى موقعي، نظفت اللمون جراحي صامتة رغم وهنها، ولم أنبس ببنت شفة، بدت جائعة هزيلة شاحبة بالنسبة لامرأة تحمل طفلاً في أحشائها، بطنها متورمة كما ثمرة دوم عجفاء، ومن فوق ثوبها الكتاني الخفيف الملاصق لجسدها رأيت الحياة تتشكل، رأيت بوضوح قدم ولدي أو يده ترتفع فتدفع الجلد والقماش وتحيينني بنبضات خافقة سريعة متتالية،

أمسكت البكاء بل العويل، فقد عادت إلى فكرة أني رجل عبد، رجل عبد ميت.

خنقتني الأحاسيس، كيف أعتذر للمرأة التي تبعتني كالغنماية وجرتها إلى جحيمي؟ كيف أشبع جوعها وجوع طفلي القادم، وكيف لي أن لا أخذل الرجل الذي يجادل قادة سراياه ورجاله في أمر الانسحاب أو الاستمرار، رحت أستعين بكائنات خفية أستجدي عطفها بين الحلم والآخر، أنا أؤمن بوجود هذه الكائنات التي تحلم نيابة عنا أحلاماً سعيدة تاركة لنا أمر تخليق الكوابيس. كان الجنود يقعدون حول اجتماعات القادة منتظرين ما تسفر عنه متشككين. ساد المعسكر ارتباك كثير وتململ علني، فالرجال الذين خرجوا بعائلاتهم كما فعلت وقعوا في مخاوف شتى، وصلت إلى مسامعنا أصوات الرجال وهم يحاورون النجومي مشيرين عليه بالانسحاب، كما وصلنا صوته الحزين:

- لن أعود.

في خضم هذه المعاناة وضعت زوجتي ولدي ضعيفاً لا يقوى على البكاء، أسميته عبدالله ولكني كنت قد فارقت القدرة على الفرح كما يجب، قطعنا أطراف ثوب اللمون فانكشف فخداها الضامرين، لففنا الصغير ووقعنا في صمت ثقيل، لم تهزني قطعة اللحم التي تحاول دون

جدوى امتصاص الحليب من ثديّ اللمون الجافين، في أعماقي قدرت أنه سيموت، ولن يتحقق لنا العيش عائلة نضحك ونلعب حول حفيرة النار وكفتيرا الشاي، لقد انطفأ وميض الأحلام تماماً وتبلدتُ على نحو مريع.

***

لم تحمل الأيام التالية حلولاً، فبعد أن ائتمن النجومي كاتبه ليخط رسالة إلى نائب الخليفة واصفاً الوضع المزري مطالباً المدد بالرجال والعتاد والمؤن، فجع باختفاء الكاتب وقد فر بليل من المعسكر قاصداً معسكر الإنجليز والمصريين متبرعاً بأدق المعلومات عن حالة المعسكر. شاع الخبر فتفتت تركيب الجيش وانفرط عقد الرجال، فر بعض القادة مصطحبين معهم رجالهم ومن يدينون بالولاء لهم. وراحت عائلات الجند تطوف في الأرجاء بحثاً عن الطعام وقد نفذت المؤن، اجتاحوا حقل البامية وراء البلدة مصطدمين بالفلاحين وأهالي القرية، أكلوا ثمار الحقل نيئة، ولما استمر جوعهم عادوا لذات الحقل ونبشوا عن جذور البامياء الصلبة يمضغونها بانتظار المعجزة.

ارتفعت معنويات الرجال فجأة عند وصول تعزيزات مكونة من خمسمائة مقاتل وثلاث آلاف بندقية، لكنهم عادوا وجزعوا حين

علموا أن المتطوعين جاءوا بسلاحهم ولا مؤن لانقاذ الجوعى، جاءوا ليتقاسموا معهم الهواء والجوع والموت.

تساقط الضعفاء تباعـاً ودفنوا بصمت، بات الأمر مملاً أكثر منه مفجعـاً، كأنما الموت عادي وبطيء، والناس واقفون في صف ينتظرون دورهم ليحصدهم الموت تباعـاً، في ذلك اليباب ووسط المجاعة ظهر سيدي تاجر السمسم التيجاني مجدداً.

***

قال معتوق:

- ما كنت أظن أني ألقاه أبداً، فقد سقطت حياتي خلفي كأنها شوال سمسم راح في الطريق لا أعرف أين، وأنا في جزعي على المرأة التي تذوي وولدها أمامي، لم أكن أُكثر من الذهاب إلى المقدمة، وما كنت بحاجة إلى الادعاء بأن جروحي ما زالت تحتاج إلى تطبيب، فالفوضى عارمة ولا من يعرف تحركات الأفراد وحالهم، كنت أحاول بما تبقى لي من القوة استرجاع امرأتي، فتخذلني منهارة كأنها بانتظار الموت بتسليم كامل، عندها شاهدت سائس التيجاني الذي كان يربط له الإبل ويطعمها ويعنى بها، هرعت إليه دون أمل بمعجزة من أي نوع، عرفني الرجل وأخبرني أن التيجاني في خيمة النجومي يحمل إليه رسالة ومؤونة. كم خجلت من نفسي

أمام السماء، فقد قنطت من رحمتها، وما ظننت أن غضبها ينقشع.

قادني الرجل قريباً من خيمة القائد فجلست على عقبي أنتظر سيدي، المعجزة التي ستتحقق لي قبل الموت، حين خرج، أقسم أني رأيت الرحمة تنشق عن الأرض، ورغم أني من انسحب من حياته متسبباً في خسارته، على الأقل للثمن الذي دفعه بي وبزوجتي، إلا أنه ابتسم فرحاً لدى رؤيتي.

كان التيجاني يمر مرور التاجر العابر السريع في منطقة متوترة، ولم يسمح له الإنجليز بالمرور ببعيرين محملين دخناً وتمراً جافاً إلا إذا حمل رسالتهم إلى النجومي، وعندما انتهى من تسليمها بدا مستعجلاً وعارفاً بالمخاطر التي تحيط بالمعسكر والجند، اقترب مني ملاصقاً وهمس يسألني إذا كنت أرغب في الرحيل معه.

بكيت مثل بنت صغيرة، كيف أغدر بقائدي وقد سمعت صوته وسط الشك والوجع يقول: لن أعود؟ وكيف أبقى وزوجتي لملاقاة حتفنا؟ كأنما كل الأحلام ذهبت أدراج الرياح، لكني وسيدي يأمرني بمسح دموعي وإعطائه القرار سريعاً همست:

- أنا لن أهرب يا سيدي، أنا رجل حر، والحر يربط من لسانه، الحر لا يقول رقبتي ويفر، وقد عاهد لساني القائد، ولكني أرجوك اصطحاب زوجتي معك، خذها إلى ديارك، اجعل ابني عبدالله

ابنك حتى أعود، سيدي، اللمون حرة، ووليدها كذلك. وإذا سافرتَ أو غادرت كردفان أرسلهما إلى قبيلتي كامونقه في دارفور، أو أهلي في نيالا، أعود فأجدهما، أو أموت فيعيشان بين أهليهم.

أكثرت من قولة «عندما أعود» و«سأعود»، ولم أكن صادقاً، فالصدق يعني الإفصاح عن هواجسي الحقيقة، كنت متيقناً من موتي في تلك المعركة، ليس لأني صدقت حكاية الشهادة والجنة الموعودة للمقاتلين الذين يموتون، ولكن لأني لم أرتض إضافة اسمي الحر إلى قائمة الذين خذلوا النجومي، سأموت، وسيأخذ التيجاني امرأتي وولدي، سيصير ولده، أثق أن الرجل سيعتبرهما حرين وهذا يكفيني.

حرصت على وداع مقتضب خال من الانفعالات الحمقاء، كذلك فعلت زوجتي، لم تعد قادرة على الانفعال وهي تُرفع على محفة فوق الناقة، نظرتني بعينين غارقتين في محجريهما، كأنها لا تعرفني ولن تنتظرني، ورحلت مع التيجاني.

شاع نبأ الرسالة التي جاء بها التاجر الكردفاني من القائد الإنجليزي الجنرال جرانفيل، وقد شمت الكافر بالبؤس الذي تعانيه الحملة القادمة لاحتلال مصر، ولم يتورع أن يكتب في رسالته (أرسلكم الخليفة للهلاك، فإن تقدمت تجد جيش الإنجليز متعطشاً لدمائكم، وإن عدت فقوات حلفا جاهزة لابادتكم، وإن بقيت مكانك؛ مت

ورجالك من الجوع والعطش، فلا أمامك إلا الإستسلام)، لم يكن التهديد الإنجليزي وحده يحيق بالحملة، ولكن الرجال الذين أخذوا بالإنسحاب، وآخرون ذبحوا إبل المعركة ونحروا خيل العسكر والمواشي الهزيلة ليأكلوا، أما السكان المحليون فقد عادونا خوفاً على القليل الذي يمتلكونه، منعونا من الاقتراب من مساكنهم، وكان المغامرون من فتيانهم يقتربون من المعسكر ليبيعوا كوب الماء بريال ويشتروا حمار العسكري بريالين، يفرون سراعاً إذا شاهدوا حصاناً قادماً من المقدمة يرصد المخالفات والهروب، تنشب الصراعات داخل المعسكر وتنتهي سريعا بغض النظر عما يفعل الجائعين.

إلا أنه يصعب التهاون مع من رموا أسلحتهم وفروا بأقدامهم الواهنة صوب العدو يستسلمون، شاعت فوضى عارمة لم يعد بعدها من الممكن تسمية الرجال القلائل الصامدين جيشاً نظامياً، اهترأت ثيابنا ولم يلامس الماء أجسادنا وتشعثت شعورنا وتقشرت جلودنا، وامتنع أهالي القرى والبلدات المحيطة عن التعاون معنا، كانوا يرصدون بحس سليم موقع المنتصر وموقع المهزوم. في صخب الاندفاع إلى الهلاك المحتوم، كتب النجومي للقائد الإنجليزي (ندعوك للإسلام، ولا تعتمد على قوة جيشك وعتادك فإن الله سينصر عباده المؤمنين).

***

بين تصنيف القائد النجومي كرجل شجاع مقدام، وبين اعتباره مغامراً

عنيداً متهوراً، تحرك الجمع مفارقاً موقعه باتجاه تلال توشكي مبتعدين عن نيران الإنجليز التي تمنعهم الوصول إلى النيل، وانضم معتوق إلى الرجال الصامدين الذين لم يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف مقاتل، في المقابل حشد الإنجليز قادتهم العسكريين، الجنرال السردار جرانفيل، واللواء كتشنر باشا، واللواء ود هاوس، القائم مقام وندل بك، مصحوبين برشاشاتهم ومدافعهم وآلياتهم ورجالهم، وعتاد وفريق طبي متكامل، توزعوا في أكثر من جهة يحاصرون الحملة.

***

يحك معتوق جبهته مطولاً ويهز رأسه، ويتنهد:

- أأأيه.. كانت أيام، لم ندرك أن شهوراً تمر ونحن في كر وفر، عامان منذ خرجنا وكأن الزمن توقف، جريت حتى تقطعت ثيابي وصارت هلاهيل، نتأت عراقيب قدمي وغطاها تراب الأرض وشقوق الجفاف، بلاء من البشر ومن السماء التي لم تمطر بتاتاً، قتلتنا جفافاً، سمينا زمان الجوع هذا مجاعة سنة ستة(*)، إذا لم تقتلنا مدافع الإنجليز، قتلتنا بطوننا الفارغة وحلوقنا الجافة.

أشهد أن القائد ما لان ولا بدل إيمانه، اجتمع بمن تبقى في أعلى تلال توشكين وقال لنا:

(*) أي 1306 تقابل 1888.

- إما النصر وإما الشهادة.

كان النصر محالاً، لا خيار إلا الشهادة، في ذلك الأوان غض القائد النظر عن الذين فروا بأولادهم ونسائهم. شالت الناس عيالها وولت راجعة، تهيم في الخلا المفتوح على المصيبة.

النجومي قائد عسكري همام، ولكن له قلب إنسان، طلب من من تبقوا من النساء والأطفال والجرحى أن يتنحوا في واد منخفض خلف التلال، صاروا بعيدين عن النيران، وقال لمن رافقوه:

- من أراد الرجوع منكم فليرجع فإني لا آمنه، أما أنا فبايعتُ المهدي على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وسأموت شهيداً حيث لا أمل لنا في النصر.

الذين حلموا بالجنة أملوا أن تنزل الملائكة لتحارب معنا في السهل المنبسط الذي عينه النجومي، وأنا لست عسكرياً ولكني لم أفهم الحكمة من تجميع المقاتلين في مكان منبسط مكشوف، إلا أن يكون استسلاماً للموت واستجلاباً للشهادة، كأنه يختار مكان النهاية لحكايته وحكايتنا.

صف القائد القوات بترتيب، رجاله وحملة البنادق في المقدمة، يليهم حاملو السيوف والحراب. اندفعت عساكر المصريين نحونا في وضح النهار، يا زووووول.. مثل الأسود الجائعة نحارب ونهجم بلا عقل

ولا ترو، أصلاً لا خيار، يا قاتل يا مقتول، أنا بصراحة لم أر ملائكة ولا محاربين خفيين، تخرج الرصاصة من فوهة البندقية فتثقب الصدر محدثة فجوة بحجم قمر السماء ثم سيلاً من الدماء يغطي القتيل على أرض المعركة ويمتصه تراب الأرض العطشى، اخترقنا صفوفهم وطالت رصاصاتنا القليلة بعض قادتهم فتبلبلوا، تقهقهروا إلى الخلف، وثبتنا مكاننا، والنجومي يعيد ترتيب ما فككته المعركة، كنت أصرخ بعلو الصوت لحاملي الحراب الذين وجلوا وابتعدو لينضموا إلى التنظيم العسكري مجدداً. حلاوة الروح حلوة، من يدري فقد يكتب لنا النصر بعد كل هذا الصبر. بدأت الصفوف تنتظم، ولكن المعركة لا تمهل، ليس لنا فسحة لتنظيم أو استراحة، قبل أن نرفع رؤوسنا بوغتنا بسيل من عسكر الإنجليز الراجلين حملة البنادق الحديثة الفتاكة، أنا قدمت إلى هذا المكان في المقام الأول للجهاد ضد الكفار، ولكن رصاصي نفذ، وما تمكنت من التقاط حربة أو سيف، كان الهجوم مخيفاً يحصد الرجال مثل جمع النمل يندثر تحت مداس الرجل، ولما دخلت فرق الخيالة وراء قوات مشاة الأعداء، تبرجلت خطاي، لم أعد أعرف الاتجاهات، وغبش العجاج ناظري، وشعرت بالدم الحار ينز من ذراعي ويلتصق بصدري، ذهبت يمنياً ثم يساراً ثم وقعت أرضاً، وكأن صمماً أصاب سمعي، عبرت

المشاهد مهتزة مبهمة أمام عينيّ دون صوت، وعندما حركت رأسي أرفعه، أصابني الدوار، ولكني كمن يرى حلماً رأيت أعداءنا يرصصون الرجال الذين يتساقطون تباعاً، وجسد النجومي الجهم يسقط فيرفعه رجاله إلى ظهر الجمل ويخبون به بين المتقاتلين، يطالهم الكفار ويشدون جسده مرة أخرى فوق ظهر حصان لهم ويغنمونه، غامت الرؤيا تماماً ووقفت على عتبة الموت.

أنا واحد من قلة تُركوا على أرض المعركة لأيام، فقددت شمس أغسطس جلودهم، واصطادتهم عقارب البيداء، يداوون سمها باستحلاب ثمار العُشر وأغصانها يمسحون بها جراحهم. وكان من الرحمة أن يموتوا، لكني نجوت. مات من مات وهرب من هرب، وأراد ربك أن أعيش. في طريق عودتي الطويلة الموجعة حاملاً انكساري وجراحي معي إلى دارفور، متفادياً دروباً يتم فيها اختطاف من تبقى من جيش الأنصار، أي والله صرنا ونحن عسكر الله الأحرار طرائد تجار العبيد، من قال ولى زمن العبيد عبيط أو كذاب، فقد جنت الدنيا وعاد تجار الرقيق: أولاد بلد وجلابة، بيض وزرق، إسلام ونصارى ويهود، لابسين جلابيب أو بنطلونات، عمم أو قبعات أوروبية، رجعوا، يدفعون رجالهم لاصطياد المحاربين، يباع العسكري الحر للمساليت مقابل بندقية ومائة طلقة، كما يبيعون

الجواري كل ثلاثة نساء مقابل أوقة شاي وعشرة رؤوس سكر، ويمكن بيع الجاريتين بحق من عطر الصندل. باتت الحرية رخيصة على الدروب الخطرة.

وصلتُ قبيلتي بعد عام 1900 مقرح القدمين نحيلاً مدمى، مثل شبح «بعاتي»(*) طالع من ظلمة قبره، لم أعد صالحاً للانضمام إلى جيش «على دينار» الذي أصبح حاكماً لدارفور، كان همي الوصول إلى موقع قبيلة كامونقة المسماة بالمجانين، بصراحة سأكون مجنوناً لو خرجت من دياري مرة أخرى، ولو كان ذلك إلى جنة الخلد، فالأمير علي دينار أيضاً يلاغينا بجنة الخلد تلك، ويحارب المصريين والإنجليز حتى انتصروا عليه بعد ستة عشر عاماً وضمونا لمملكة الكفر، أنا التقيت بزوجتي وولدي لدى قبيلتي حيث تركهما التيجاني قبل أن يرتحل. من يصدق؟ أعيش أنا وزوجتي وولدي، ويموت التيجاني! بكيته كما لو كان أبي، دنيا غرورة مغرورة مجنونة.

ارتحلت وعائلتي إلى نيالا عند أقارب لي من البرقد(*)، كان عبدالله صبياً عندما وصلت، وانتفخت اللمون مجدداً مثل البقرة؛ ممتلئة قوية لعينة - يضحك الأبناء والأحفاد- من تشبيهاتي، أي والله لا أبالغ، هذه

(*) بعاتي: موتى يخرجون من القبور.

(*) البرقد: قبيلة كبيرة تجمع عدداً من قبائل دارفور.

العجوز الضامرة كانت سمينة كبقرة، صيرتني في حبها مجنونكي(*) حقيقي، ولكن تمتعت بكوني رجلاً حراً، ومن يومها ونحن نزرع سهل الرمل الأصفر بالفول السوداني، نبيعه ونشتري احتياجاتنا من نيالا، ونرعى ماشيتنا القليلة على ما نبت من الأرض، نعيش بشرفنا أحراراً. قد تسألون لماذا الفول السوداني؟ أما كان من الأسهل زراعة الدخن؟ حين عاش عبدالله وصار لي سواه ستة أبناء وعدد من الأحفاد، تذكرت كيف كان الجلابة وقطاع الطرق يقتنصون الصغار الجوعى عارضين عليهم ملء أكفهم حفنات من الفول، مستغلين جوعهم وهم يختبأون وراء الأشجار مادين أكفهم لطفل جائع يهمسون:

- مجاوه.. مجاوه(*).

تغري حبات المجاوة في أكفهم الأطفال الجوعى، هكذا اختطفوا السذج في الماضي، وأنا أردت تحصين أولادي من غواية الفول، الذي يسمونه في أماكن كثيرة فستق عبيد، إنه الفستق الذي يمكن أن يوقعك في العبودية، قلت لنفسي أزرعه، فيشبع الأولاد، ولا يذهبون إلى العبودية بأقدامهم، ها أنتم حولي، لا يعوزني شيء بعد رحمة الله وفرح اللمة، لا أعير انتباهي لما يشعل البلاد وما يشغل العباد، لا سألت

(*) مجنونكي: تعبير يطلق على أفراد قبيلة كامونقة.

(*) مجاوه: اسم حبات الفول السوداني.

عندما قتلوا السلطان على دينار ولا عندما طالبت الناس بالحكم، ولا جاء الإنجليز وراح المصريون أو تسيد أولاد البلد، قلت لنفسي: لقد قدمت ما عليّ للدنيا والآن على الدنيا أن تمنحني حصتي من راحة البال، حتى عندما ضموا دارفور للسودان وقالوا تغيرت الدنيا، كان أهم ما حدث عامها أن جاءت حفيدتي رحمة إلى الحياة.

أحب صخب وتهور الحفيدة الغالية رحمة التي تشبه مهراً برياً لم يروض، ولدت يوم صرنا تبعاً للبلد، يومها فرح الناس في دارفور وجنوا؛ فوضى ورقيص وطبول هنا وهناك، قلنا يا رب ارحمنا، وسمينا البنت رحمة، كانت تبكي ككل الأطفال ولكنها تصهل بضحكة خلابة، شلعت قلبي من بين كل أحفادي. وها أنتم جميعاً هنا حولي وأنا على وشك الانتقال من الظل إلى النور، وقد أترك لكم تذكاراً، هذه - مشيراً لزوجته - الجالسة بينكم قفة عظام نخرة، حليل اللمون الذي كان.

***

ضحكوا في بهجة جماعية، وانقلبت رحمة بينهم على قفاها مطيحة بوقار وانتظام الدائرة حول جدها الحكاى.

طوحت قدميها الطويلتين بين الجالسين كمروحة، وعجزت عن وقف ضحكاتها حتى وهي تختنق بها، تلوى جسدها الفاتن مكشوف

العورات أمام الجمع المبتهج، وتتلقى ضربات أمها التي بركت فوقها تحاول تثبت الجسد الفائر عن مجونه العلني، سالت دموعها وانحبس نفسها حتى كاد قلبها يتوقف وجدها يصيح:

- أتركوها، ما لكم بها؟ خلوا البنت تضحك، الدنيا زائلة، ما تسوى.

رمق عبدالله والده بنظرة عتب خاطفة كأنه يحمله سبب انفلات البنت وموات همتها وعزوفها عن تكوين أسرة وانصرافها لمتعها، تناول سوطه وفرقعه في الهواء فقفزت البنت وشبت مثل ضبية، استقامت على قدميها وانفلتت تجري وسط العتمة وضحكاتها ترن مضاعفة في صدى المساء الصامت، تهز حيز الهواء الساكن كما لحن هائج في قعر الوادي، ثم تبعد وتخفت حتى تتلاشى.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأى فيها رجال ونساء قبيلة كامونقة البنت اللعوب الفرحانة رحمة.

رفمة

ارتبكت خطواتي أسفل سُلم السفينة والتبس عليّ الأمر، فالوحش الخشبي الضخم الرابض على صدر الماء يبتلع الصاعدين سلمه المتأرجح، وهم يمضون فرحين! هذه هي السفينة إذاً!

سمعت صدى صوت جدي كامونقة يُجمل الخوف ويُفسر السفينة في الحلم؛ نجاةً أو خيراً وفيراً.

أتراني أحلم؟

رفعت قدمًا حافية مترددة ودست الخشب الرطيب أختبر حلمي، ارتعش جسدي واخترقت رائحة الماء والأخشاب أنفي عفنة دافئة. دفعتني كف المدعو رايمون تحثني على التقدم، فرفعت قدمي الثانية وصعدت درجة أخرى، سمعت فحيح خوفي يستشري في مساماتي، ليس سهلاً أن تلقم هذا الوحش جسدك وتسير إلى بطنه دون أمل بالصحوة، ثم باستهانة تذكرت أني لا أملك ما أخاف فقده، حتى روحي المعذبة قد نأت عني، بت بلا روح، فليأكلني وحش البحر الملون، أغمضت عينيّ وهمستُ لنفسي: أنا ميتة... لا شيء مهم بعد ذلك.

ثم صعدت.

عند أعلى السلم تسمرت نظرات الملونين الذين التفتوا إليّ، زاغت عيناي لفرط ما يرتدون من ثياب، مسحتني نظراتهم بدءاً من كرة شعري المشعثة الملبدة بالتراب والعرق، التي لم تقو الريح على هز خصلاتها، وحتى أخمص قدمي العاريتين مروراً بجسدي النحيل الذي استقام يرتجف تحت الرداء القطني الخفيف الذي ألبسوني إياه. بشر كثر ملونون، تتمايز ألوانهم بين تلك الصفرة التي تعلو وجوه القردة، والبياض الفج المشوب بالحمرة في مؤخراتها، كلهم دون استثناء بألوان عجيبة، وحدي كنت الإنسية الطبيعية، سوداء مثل لب بابنوسة عتيقة، ظننتهم حيوانات هجينة لولا أني رأيت بينهم رايمون والرجل البرتغالي الذي اشتراني، كانوا بشراً لا يمنعون أنفسهم من التحديق بي مستنكرين أن أدوس بقدمي المبللة أرض سفينتهم الخشبية، فكل البشر العاديين الذين لهم مثل بشرتي دفعوا مقيدين إلى قبو السفينة، وأخذني رايمون وحدي لأعتلي سطح السفينة دون وثاق أو طوق خشبي يحيط بعنقي، تماماً كما هؤلاء الهجن.

تقدمت خطوات في قلب السفينة، صار الرجلان اللذان أعرف على يميني، تخطيت نظراتهما المترقبة وتنفست بعمق، تمدد الهواء الرطب في صدري، وانتفض جسدي الهزيل الذابل، لا أنوي القفز في جوف الماء، تجاوزت المكان الذي يمور بالبشر الغرباء الملونين كأنهم

أطياف وهمية، صار الفضاء ضبابياً وانخلع لبي وأنا أسترجع بوضوح ما حل بي منذ أشهر.

***

ركضت ساقاي القويتان في العتمة الصامتة، خلفتا وراءهما فرقعة سوط أبي وضحكات الشبان ومناداة أمي، أعجبني هجوم الهواء الناجم عن حركتي باعثاً نسمات رقيقة تلامس وجنتيّ، ترف نشتاقه في حمى النهار الساخن. توغلت مبتهجة في حقل الفول السوداني(*)، في غطيط العتمة لا أتمكن من رؤية النبتة الخضراء التي بزغت من الأرض الرملية الصفراء وطرحت ثمارها مؤخراً، تمشط الأوراق اليانعة قدميّ وتخربشهما بخدوش طفيفة، دست بعضها وأفسدت أكثر مما تفسده القرود المتربصة بالزرع. ضحكت بمجون وأنا أسمع وشيش حركة بين الشتلات، قد يكون أحد عشاقي الكثر، أكثرهم جرأة، تبعني غير عابئ بالعتمة ولا بالعائلة المتحلقة حول الحكايات، ولا بالصدى الفضاح الذي ينجم عن فراغ الليل وسكون الهواء. قررت أنه يستحق المداعبة مكافأة على جرأته، خشخشت بكفيّ وقدميّ شتلات الفول أحدد مكاني، ثم وجف قلبي. تناهت إلى سمعي همهمة خشنة غريبة، وتزاولت بأطياف عديدة ضخمتها الظلمة والنور

(*) الفول السوداني: الفستق السوداني.

الشحيح الذي تبعث به آلاف النجوم من أعلى السماء، تقدمت الأطياف نحوي من اتجاهات ثلاثة، لا أحب الملاعبة الجماعية، وقد يكون هناك جمع من القرود يهاجمني في بهيم الليل! همر الصوت الغريب مجدداً فتراجعت بحذر، تحلقت الأطياف حولي فصحت متوجسة:

- هوووووو.

انفلش صوتي راجفاً، ولم يرجع إليّ صداه، فتواثبت رجفة فؤادي مع الصمت المفزع وانقطعت الهمهمة الغامضة، اشتد سواد الليل كأن إنارة النجوم انطفأت فجأة، استدرت؛ تنفست مستدعية قواي، ثم انطلقت هاربة.

تكسرت شتلات الفول تحت قدميّ والأقدام العجلى تطاردني، وحين تعثرت متعالقة بشبكة الصيد أدركت ما حل بي، رغم الفزع أنشبت أظافري وأسناني في حبال الشبكة أحاول تقطيعها لكني علقت وشلت حركتي، صرخت أنادي الأهل القريبين، ضربة قوية على مؤخرة رأسي قطعت الصيحة:

- أأ.

***

يعرف النهاضي دربه في الليل ويخب به جواده مبتعداً بصيده، وعندما تنير الشمس السهول يكون قد اختفى تماماً وراء هضبة سيتجمع

عندها وصحابه بعد أيام يعدون الرؤوس التي غنموها في غزوتهم الخاطفة.

أخاف إغماء رحمة لساعات خاطفيها، لم يكونوا على استعداد لخسارة الصيد الأجمل، هزوها بعنف ودلقوا الماء فوق رأسها فلم تستجب لهم، لكنها قبل الفجر بقليل تأوهت وتحركت واهنة تتلمس جراحها، فانتصب خاطفها أمامها متنبهاً.

***

منعني ورم موجع في جبيني من رفع جفنيّ وفتح شفتيّ، مددت كفي رخوة تسند رأسي الثقيلة وترفعها بعناء، تحسست دمي الخاثر فوق وجنتيّ وجيدي والعالق في مسائر شعري، يميع ملمسه الجاف لزوجة بين أصابعي. تذكرت بصورة ضبابية ما حدث.

شدني خاطفي بحزم وأرغمني على الوقوف، بينما أرجع آخر ذراعي خلف ظهري، وأوثقني بحبل متين طويل يحفر لحمي ويمتد ليجر وراءه وعلى خط مستقيم صبية وبنات عرفت بعضهم، كانوا مربوطين بإحكام في سلسلة حبلي الطويل، نادوني باسمي ونادوا بعضهم، تشاكوا وحكوا كيف اصطادتهم شباك النهاضين، بكى صغارهم وعافر الأقوياء منهم للتخلص من عقد الحبال دون جدوى، واست النسوة الصغار وهن يحرضن الرجال على حماقات قد تقود إلى

النجاة أو الموت، لكننا جميعـًا بعـد شمسـين وقمـرين؛ تعبنـا. لـم نعـد نتلفت خلفنا، وارتخت أكتافنا باتجاه العقدة المتينة التي ربطت أذرعنا إلى الحبـل الطويـل، وهنـت قوانـا، ولـم تسـعفنا بلحـات ناشـفة دفعهـا الخاطفون إلى أفواهنا، كف الصـغار عـن البكـاء والشكـوى وسـرحت نظرات النساء بعيـداً، انطلقـت قافلـة النهاضـة الجلابـة(*) في سـير قلـق، تتوقـف للحظـات إذا مـا انـتفض صـبي في محاولـة يائسـة للإفـلات، يقيـدون قدميـه ويديـه ويخرسـون عويلـه بسـيخ حديـدي يبقـي فمـه مفتوحـًا بينما يصلصلون بـالقيود ونازعـات الأظـافر مهـددين، مثيـرين الرعب مسترجعين هـدوء القافلـة التـي تعـاود السير وفتيانهـا ينكفئـون مذعنين وهم يحدقون فزعين في الشروخ العميقة التـي تركتهـا السيـاط فوق ظهر من حاول الهرب.

اعتلى بعض الخاطفين سـروج الخيـل متقـدمين الحبـل الممتـد الـذي جرنـا عـراة حفـاة مستسـلمين لمصـيرنا وقـد انطفـأت في قلوبنـا جـذوة المقاومـة. في البيـداء المفتوحـة تقـدمنا كمـا لـو كانـت جماعتنـا ثعبانـًا مريضـًا يزحف فوق الرمل بتثاقل.

ساطت الكـرابيج ظهـور الأطفـال المتـأنيين تعبـًا أو خوفـًا، وسـحلت أجساد الذين عافروا وراء الخيل ينشدون التملص من قيودهم، أعانني

(*) عنصر دخيل.

نحولي على قطع المسافة الطويلة دون التعرض للضرب أسبوعاً تاماً، ولأن جسدي حافظ على تميزه ونضارته فصلوني عن الحبل الطويل وساقوا البقية من المخطوفين إلى زرائب بعيدة، درنا حول جبل «مرة» متفادين دوريات الإنجليز والمصريين المنتشرة في الأرجاء. هناك صرت صفقة مجزية بيعت لتاجر العبيد الجزائري رايمون.

ومضت عينا الرجل الأحمر رايمون بالنصر والرضا وهو يملي ناظريه من جسدي من كل زاوية وطرف، دار حولي مصفقاً، وضحك ساخراً وأنا أحدق بدهشة في وجهه، حيوانان من فصيلتين متباينتين يتفحص كل منهما الآخر قلقاً حذراً، لم تقع عينيّ على رجل أبيض من قبل، ظننه يعاني مرضاً خطف لون بشرته، ولولا أن عينيه شيطانيتين، وأني أسيرة وهو حر؛ لأشفقت عليه.

***

يعرف النخاس البضاعة الفريدة من نظرة، وقد صفق مبتهجاً وهي تقاوم الرجال الذين بطحوها أرضاً وثبتوا وجهها في التراب وجسدها القوي بين ثلاثة عمالقة أشداء، شلت إلا من همهمة مخنوقة في حلقها، ضغط أحدهم حنكها لتنفرج شفتاها ويفغر فاها، نظر النخاس ملياً إلى أسنانها القوية البيضاء، ثم مؤخرتها وإبطيها متفحصاً، ثم

ضغط بأصابعه زنديها وفخذيها مستحسناً صلابتها ورواء جلدها، كور كفه يزن ثدييها، عافرت متملصة دون جدوى وهم يشدون ساقيها بقوة مباعدين بين فخديها، وانحنى يعاين جوهرته، استخدم أصابعه يتأكد من سلامة أعضائها الدافئة الرطبة، لم يُطل وهي تتلوى مثل ذبيحة وتجوح بصيحات متشنجة، ساءه أن لم يجد الفتاة عذراء، فللعذرية ثمن باهظ، لكن حيويتها وفتنة شبابها ستعوضه، في هذه الحالة قد تكون سلعة معقولة لرجال البحر الذين لا يعتنون كثيراً بموضوع العذرية.

قيم الجزائري اليهودي رايمون بضاعته جيداً فلم يساوم عليها، ونقد ثمنها للنهاضي، ثم قادها في رحلة بعيدة.

***

لن أسامح. سأظل أذكر ما حييت الأصابع التي تفحصت فتحاتي، والأذرع التي قلبتني كالذبيحة، وسأظل أسمع في نومي نشيجاً وصريراً كذلك الذي سمعته يعوي في قلب القفص الصلب المرتبط بمركبة معدنية عالية تسير على أربعة دواليب، انبعث الدخان من مؤخرة المركبة رمادياً خانقاً، وجيء بجمع من الفتيات والفتيان الأشداء المقيدين بسلاسل الحديد، حشرونا في زاوية من صندوق المركبة الذي يكتظ بالأغنام المتأرجحة وهي تماعي حولنا كما لو كنا

جميعاً في طريقنا إلى المذبح.

استبدل مالكي الجديد الحبل القديم بقيد معدني حز معصمي وأدمى عراقيب قدمي، يصير الحديد كتلة من النار في لحمي مع كل هزة يهتزها صندوق المركبة، ومع كل شمس تشرق ثم تغيب تنسل روحي مني شيئاً فشيئاً، لم يعد هناك معنى لعد الأيام، لا ذهاب ولا رجوع، أنطوي على ذاتي ولا أحظى بمساعدة كائناتي الخفية. تنقطع أحلامي تماماً، أدرك أن حياتي اختلفت، وأنها - ولو كانت مروراً خاطفاً في الظل - تبدو طويلة موحشة مخيفة قاهرة. تخبط جسدي وأوجعته الرضوض بفعل قفزات المركبة صعوداً وهبوطاً في طريق ترابية حصوية وعرة، مع ذلك واصلت البحث في نفسي عن تلك الكائنات التي يظن جدي أنها تنطوي فينا، أستجير بها لتساعدني على الصمود.

اجتازت مركبة الأغنام والعبيد جبل «العوينات» إلى الصحراء، حاولت في البداية إحصاء الشموس التي طلعت والليالي التي هبطت على صحراء مفزعة ووسط هذر كلام لا ألتقطه على نحو جيد، ثم توقفت عن العد، وتبددت الأزمنة والأمكنة في ذهني. صار همي الحصول على نصيبي من الطعام والشراب، وعجزت عن فهم العلاقة المفترضة بيني وبين الرجال في مقدمة المركبة، يترجل هؤلاء سويعات كلما شاهدوا ظل شجرة، باتوا ليلة كاملة في واحة «جالو» الصحراوية،

أعفاني التوقف من رائحة الأغنام الخانقة، إذ تركوني أمشي حولهم مشدودة إليهم بالسلاسل، وتلصصوا على جسدي ضاحكين وأنا أقضي حاجتي وراء المركبة المعدنية، بينما غلوا أعناق الطرائد من الفتيان بدوائر خشبية ثقيلة تحيط بهم وتتصل بالسلاسل المربوطة إلى أطرافهم، رأيت رفاق الوجيعة يقضون حاجتهم وقوفاً مكشوفين للنظرات الساخرة، يتطاير بولهم وهم يستديرون مخفين أعضاءهم، ويتساقط خراؤهم بين أقدامهم كما لو كانوا حيوانات تعيسة مهانة ذليلة، تشعثت رؤوسهم واحترقت أطراف شعورهم تحت وهج الشمس، للشمس رائحة حريفة كما الحريق، تبهت وتتلاشى ليلاً وتتأجج كل صباح، فإذا ما انتصف النهار نفث جسدي الواهن ذات الرائحة.

حميت شعري من الاحتراق بخدعة تعلمتها من الجدة التي اعتادت الرحيل في البراري المفتوحة على صهد الشمس اللئيمة، أنحني أرضاً وأدعك رأسي بالأتربة، أتعفر ويغيب لوني وتتغطى كل شعرة في الرأس، يصير لونها أغبر أصفر، يضحك الرجال صائحين: مجنونكي. تقرقع ضحكاتهم كالحجارة، فلا أضاحكهم ولا أنبس بكلمة، كنت أجد حلولاً تعين على الصمود، أحمي شعري من الاحتراق، ويطور جسدي المتماسك الأسود المكشوف آلية مقاومة خاصة به تجعله

يحتمل الجوع وعقاب الطبيعة اليومي. لكنني لم أعد تلك البنت المفعمة بالحماسة والفرحانة أبداً.

فهمت دون حاجة لتفكيك اللغة رغبات الرجال بمضاجعتي، وشت بهم نظراتهم وأصابعهم التي يمدونها ليقرصوا فخذي بين الحين والآخر، يصدهم رايمون موبخاً، كان يستبقيني لغرض، حماني من فقدان نضارتي كما باقي الفتيات اللواتي تحولن إلى ميتات حيات لفرط ما عاشروهن جهراً بين الأغنام أو على تراب الأرض الذي يتبخر منه الصهد الساخن.

قطعنا الصحراء الليبية ورايمون يكرمني أحياناً، سقاني بكرم، وقدم لي خبزاً جافاً وجبناً مملحاً أكلته بنهم الجوع في تلك الفيافي الشاسعة الخالية إلا من شتلات العشر السامة.

كرهت رائحة الأغنام وعفت مذاق الجبن المملح في ما تبقى من عمري.

حين وصلنا مدينة «بنغازي» أطعمني اللحم وسقاني ماءً بارداً من الزير، ولعل هدوئي وانكساري الجديد أعجباه، ففك قيدي عل جروحه تشفى، واصطحبني إلى شاطئ البحر أستحم، ارتعشت كل مسامة في جسدي أمام هول المياه الأزرق الهائج المائج، زرقة لا تشبه زرقة السماء الباهتة في صيف أفريقيا، زرقة معجونة بالخضرة، والموج

الرغـوي الأبـيض، والرائحـة المالحـة الزنخـة! هزتنـي القشـعريرة فأنـا على قيد الحياة، لو تعثرت قدماي بالموت سيهرسني بوحشية كما لو كـان فـيلاً يـدوس كائنـاً ضـعيفاً، كـل مشـاعر الخـوف التـي اعترتنـي، واليقـين الخـادع بمـوتي التـي سبق واختبرتـه، حـان الوقـت لإقصـائه، كائنـاتي الخفيـة انبعثـت تـآزرني، تمـدني بـالعزم علـى مصـادمة الحيـاة ووقـف المـوت عنـد حـده. تقـدمت في المـاء وكـأني طـرت إذ ابتلـت ساقاي ببرودة منعشة، تقدمت أكثر والماء يحتضن خاصرتي فيصيبني بنشوة عارمة، اختطفتني موجة هائلة انطبقت فوقي وجرفت جسدي في بطنها كأنها تسحبني إلى المجهول، ثم ردتني إلى رمل الشاطىء خائرة القوى مذهولة، تلاشت رائحة الشمس وذاب عطن الأغنام في مـوج البحـر العظـيم المـالح، فرميـت جسـدي طوعـاً في الموجـة التاليـة ورايمون يصيح ضاحكاً:

- مجنونة، عبدة مجنونة.

***

لم تحظ بضاعة اليهودي كلها بمثل هذا الدلال، وحدها رحمـة البنـت فارعة الطـول جميلـة القسـمات ذات اللـون الأبنوسـي اللامـع منحـت شرف اهتمام بارون البر والبحر، أبرز تاجر للعبيد على الساحل، حتـى أنه ابتاع لها قميصاً قطنياً أبيض ارتدتـه ليسـتر جسـدها حتـى منتصـف

فخديها قبل اصطحابها إلى الميناء.

تصرف كأنها بضاعته الوحيدة ودرته الفريدة، فتحلق حوله مشترون يعاينون البنت المرعوبة التي تكتشف أن رحلة بيعها لم تنته بعد.

نهار حار وفضاء مغبر، لم يعد ماء البحر صافياً كما رأته أول مرة، تعكر سطحه بطبقة دهون وأخشاب ومخلفات مجهولة، عمت الفوضى الميناء وفاح في فضائه خليط ثقيل من رائحة الملح والخشب وعطن خضار معستها الأرجل، كانت طرقات الميناء الخشبية والرملية سواء، مغطاة بالقاذروات والحشرات، تتراكض الفئران بين أرجل المارة الذين يدوسون مخلفاتهم وهم يروحون ويجيئون ويتفرقون في كل الاتجاهات رافعين أكياساً وشوالات وبراميل.

مراكبُ كبيرة جاثمة عند خط الميناء وأخرى صغيرة تمخر الماء وتنزلق مختفية عند الأفق.

بين صياحات الحمالين والبحارة والمسافرين ووسط تبلبل الألسنة في لغات ولهجات عديدة انتصف النهار والنخاس يساوم تاجراً برتغالياً أزاح شمسيته الأنيقة عن رأسه وأمالها عامداً ليقع الظل تماماً فوق رأس رحمة، تصرف نبيل يعني بالضرورة أنه افتتن بالأنثى الأفريقية، قدر البائع أن مثل هذا الرجل الأربعيني سيكون سخياً لقاء جسد شاب جميل يمتع به ذكورته الكهلة في رحلته البحرية الطويلة.

لم يكن رايمون مصيباً في حدسه، فالتاجر ساراماغو لم يطمع بالتحفة الأفريقية الحية لمتعة جسده، ليس مغرماً بالسوداوات، لا يخال جسده قادراً على التناغم مع جسد أسود، وهو إذا طالت رحلته يميل إلى العاهرات الصغيرات البيضاوات منهن أو الخلاسيات في الموانئ المتفرقة، لا يفرط عادة في الاستمتاع، يتلهى بأشغاله وتجارته فلا يتذكر النسوة محافظاً على الحد الأدنى من إخلاصه المفترض لامرأته. حين شاهد المرأة السوداء العفية الشابة فكر أنها تستطيع خدمة زوجته في قريته النائية، قدر أن كارولينا ستشعر بالامتنان نحوه وهو يقدم لها هديته، وقد تزول الجفوة بينهما.

لم يطل في مساومة النخاس اليهودي، وما كانت هي المرة الأولى التي يتعامل فيها البرتغالي مع يهود «ليفورن» الجزائريين ذوى الأصول الفرنسية، فهم سادة تجارة العبيد على طول ساحل الأبيض المتوسط، قادرون على تجاوز الأنظمة المعلنة والتحايل عليها والالتفاف للإفادة بها، يبيعون العبيد والذهب والعاج، ويقودون القراصنة إلى السفن المحملة بالثروات، فإذا ما هاجم هؤلاء السفينة واستولوا على البضاعة اقتطعوا ليهود ليفورن حقهم، وهم يدركون أن التنصل من هذا الإجراء سيكون ثمنه فادحاً إذ تصل أنباء حمولتهم المهربة إلى سفن الإنجليز التي تلعب دور الشرطي في عرض البحر. لقد دفع

سارماغو ثمناً مضاعفاً قبل أعوام حين ابتاع منهم عدداً من الأنفار الزنوج، عاد بعبيده إلى مزارع زوجته يرعون الكرمة ويعصرون العنب ويعتقونه في الخوابي.

لم يكن سارماغو محباً للوقوع في ثمالة النبيذ كما علية القوم من النبلاء، كما لم يكن مفرطاً كما الرعاع، بالكاد يتذوقه، مع ذلك فإنه أشهر من صنعه وعتقه وباعه على طول الساحل، لقد تمكن في سنوات قليلة من تحقيق معجزة حقيقة رفض أبناء قريته الصغيرة مشاركته إياها ورعاً وتقى، فأمده النخاس رايمون بالأفارقة ليجعلوا من أراضيه المحيطة بالقرية منجماً حقيقياً، جعلته بضاعته ثرياً فاسقاً في عيون أهل قريته الذين لم ينسوا نشأته الوضيعة وقفزه إلى مركزه بزواجه من الثرية كارولينا، منحه استصغارهم مبرراً للسفر والارتحال ناقلاً بضاعته إلى المدن المجاورة ثم وراء البحار فاغتنى بعد فقر. بمقياس الحياة التي حرثها نضالاً وعملاً وسفراً وتنقلاً قيم نفسه رجلاً عادياً يجني بقدر ما يعمل، لم تغدق عليه الحياة هباتها دون جهد وتضحيات، يبدو فارساً نبيلاً وهو يجوب البحار ويبيع بضاعته، لكنه يتحول إلى ما كان عليه في طفولته إذا وصل أرض البرتغال، وما زالت هناك أحلام مؤجلة وجنات لم يحصل عليها بعد.

ابتاع للبنت الإفريقية تذكرة تخولها الصعود إلى سطح المركب خلافاً لباقي العبيد الذين أودعوا القبو السفلي رأفة بها وخشية أن

يصيبها مكروه كأن تذوي أو تموت قبل الوصول، أو أن تتعرض السفينة لتفتيش فيخسرها، أرادها أن تبدو بمظهر خادمة حرة.

تصلب جسد رحمة تحت وقع الأعين الفضولية المستنكرة، ثم بدأت عيناها تعتادان المشهد، انفلش الكون أمامها صفحة فضية لامعة لا معالم لها، تجاوزت الجموع قاطعة المركب عرضياً، تلكأت في منتصف المسافة عندما بدأت التفاصيل تتثنى وتتلون وتستقيم أمام ناظريها، توقفت وتنفست بعمق ثم أكملت سيرها في خطوات مسرنمة بفضول قاتل لم تحسب فيه حساباً لشيء، مرت بين الرائحين والغادين، هناك كثير من الرجال والنساء البيض الذين يرتدون قماشاً فائضاً ملوناً مزركشاً كأنهم السحرة، تربكها الأزياء والوجوه الفاتحة والعيون الساخطة، لكنها تشق دربها إلى طرف السفينة التي تمخر البحر الأبيض المتوسط، صارت القضبان الحديدية الصدئة المدقوقة في جسد الخشب بينها وبين الماء. تحرك البرتغالي وقد داهمته فكرة أن البنت تروم الانتحار، لكنه ارتد لما شاهدها تستند إلى القضبان فاغرة فاهها ناظرة إلى عمق البحر بدهشة كمن يرى الكون الجبار البديع للمرة الأولى، أعجبه تأمل دهشتها، بدت بثوبها الأبيض وشعرها المنكوش وفمها المفتوح مخلوقاً بدائياً سقط في الكون للتو.

***

هاجمني البحر الأزرق العكر بضراوة، وهدهدتني ارتعاشات الماء، وتأرجح الكون حولي.

دارت رأسي دوراناً بطيئاً ثقيلاً كما لو كنت أفقد الوعي، رافقه اضطراب في أعلى معدتي، تقدم غثيان طفيف في صدري وانسحب، سفع الهواء وجنتيّ بلا هوادة فغالبت دواري والدوخة التي أوقفتني وجلة متشبثة بالقضبان، انقلب حالي إلى الافتتان حين تراجعت زرقة الماء الكابية العكرة بمخلفاتها وقذارتها حيث الميناء، وأفصح البحر كلما أوغلنا فيه عن زرقة عميقة ممزوجة بسواد غامض، تمشحه التماعات فضية حين يعلو الموج. سمعت غناء الهواء، والريح تصفر وتتأوه، وتراقص الموج الأزرق العالي الذي أحاط بالسفينة يجأر إذا علا ويهسهس إذا استراح على بسطة الماء، تلونت الحياة التي كانت صفراء، باتت ترشح زرقة كثيفة رطبة باردة، لو أني لم أكن بنتاً مخطوفة مفارقة أمي وأشقائي وجدي الثرثار وجدتي الصامتة، لو أن الخوف لم يشد قلبي إلى هاوية لظننت أني في أسعد لحظات عمري، يرقص قلبي مع رعش الهواء ورذاذ الماء الذي يبلل وجهي، ثم انكفىء على حزني غير جديرة بالفرح.

كم كان العالم جميلاً... وما يزال... إذاً ما الذي حل بي؟ هل مت حقاً؟

ربما؛ فما عدت أسمع رجع ضحكتي الخرقاء، ولا تذوقت ملوحة دمعي، الأموات وحدهم لا يضحكون ولا يذرفون الدموع، هناك امرأة أخرى خرجت مني، ليست من أريد وأنتظر، الرعب والقشعريرة والغثيان كلها تعود إلى حلقي، هل انتهت رحلة حياتي؟ أكان ما عشته هو مروري الخاطف تحت ظل الشجرة، وها قد خرجت منه إلى ضياء لا نهاية له؟ أهكذا تنطوي رحلة الظل القصيرة؟ ألن يكون لي أبناء وأحفاد أحكي لهم كما يثرثر جدي؟ ليس عدلاً هذا المرور الخاطف إلى حد أني لم أنتبه له، ليس لدي سوى هذه اللحظة لأقول إن الحياة جميلة بقدر ما هو الضياء الغامض قبلها وبعدها جميل ماتع؟ يمسك جمال الكون بتلابيبي وأسراب الطيور المهاجرة تتراقص متقلبة في عين الشمس؛ تعلو وتهبط محلقة في انتظام فريد، تميل فتصير بيضاء فضية ثم تعتدل فتعود سوداء داكنة، تشق أجنحتها الضوء زارعة الأفق بضوضاء خفية لا تسمع، وتحتها طيات الماء العملاقة القاتمة تتموج وتغنّي إذا لامست الريح، ترتفع وتهبط ولا شاطئ تنفلش عند رمله، كما لو أن الأرض تتنهد وتلهث. العدل أن يصير لي حفيدة أنقل إلى عينيها كل هذا الجمال، حفيدة مجهولة الاسم أناديها بحرقة إذا تعذر لقائنا، قد أسميها «بابنوس» والتقطها من وراء سماوات سبع كأني ظلها الذي يحنو عليها ويربت كتفيها وهي تعبر.

تلاشت الفتنة التي دوختني حين ألحت عليّ أمعائي واحتجت إلى قضاء حاجتي، بإشارات طفيفة من سيدي اصطحبني خادم إلى سلم حديدي لولبي يربط بين سطح السفينة وقبوها، كان لزاماً علي قضاء حاجتي في منطقة بعيدة عن الحجر التي يقضى فيها الأسياد حاجتهم، في أسفل السلم الذي تركني الخادم أنزله بمفردي اختنقت برائحة عطنة كأن ميتاً يتحلل في الجوار، ووراء ستارة من الخيش قضيت حاجتي فوق أكوام من الخراء والديدان والفئران، خرجت أترنح ولم أتنفس إلا بعد وصولي منتصف السلم اللولبي، هناك انهار جسدي للحظة، فجلست، خيل للخادم في أعلى السلم أني أستريح، وأنا كنت أتعرف على مكاني الجديد في منتصف الحياة، بين السطح الذي يتمشى فوقه الأسياد، والقبو الذي حبس فيه العبيد، في جلستي كان يمكن لأذني التقاط أصوات الأنين القادمة من الأسفل وأبخرة العفن الصاعدة تلاحقني، كما ألتقط الضحكات الماجنة على السطح.

المرأة التي فتنها البحر ودوخها، وتدربت على السلم اللولبي كيف تنفصل عن عالم وتدخل بآخر، ونامت فوق شوال ملقى قرب مطبخ السفينة، هذه أنا. لم أمت كما توقعت، وقطعت الوقت الطويل على ظهر السفينة أحلم أو أتبع خطوات سيدي المثقل بالثياب؛ قريبة منه محتفظة بمسافة يمليها الخوف، صامتة ما لم يوجه لي حديثاً، عادة ما

يكون حديثه كلمات أعجمية قليلة دون تفسير، يتعلق بعضها بما نأكله حين يمد لي برغيف الخبز هامساً «باو»[*]، أو موقع نومي على الدكة في مطبخ السفينة قائلاً «كوزنيها» أو «ايويو»[*]، أو ما أرتديه حين استعار لي حذاءً «كوترن»[*] من واحدة من النسوة الملونات. ناداني رفمة واكتفى ساراماغو البرتغالي غالباً بمراقبتي صامتاً، وفهم أني أتبعه لأني لا أعرف سواه.

***

يحتاج البرتغالي إلى يقينه بأن المرأة الأفريقية بخير في عهدته، لعلها راضية سعيدة وإن كانت لا تجيد الابتسام أو الشكر، لم يكن مستعداً لتأنيب النفس الداخلي حول حالة الصبية، فهو يعرف أن الضمير يلعب لعبته ويشوش على النفس، لا يهين المرء إلا ضميره، وهو ليس من هواة الانكسار والاعتراف الكنسي كما أهل قريته، لم يجلس في قفص الاعتراف منذ سنوات عشر، كان يتظاهر بالتقوى قبلها، ولم يسأل الرب أن يغفر له خطاياه القليلة، كان يكفر عنها بطريقته الخاصة، كأن يعطف على ضعيف أو ينجد ملهوفاً، هو نفسه مر

(*) باو: بالبرتغالية خبز.

(*) ايويو: نامي.

(*) كوترن: حذاء.

بالضعف والانكسار، يتعاطف معه حيناً ويثور عليه حيناً، أو يتوقف في هدنة يمتنع فيها عن الخطايا الكبيرة، ويسامح نفسه على ذنوبها الصغيرة، يريد لنفسه مجدها دون صراعات صغيرة ويعلم أن الأفكار العظيمة في العالم والقيم التي نمتثل لها تقلل ثقتنا بأنفسنا، فمهما فعلت لتكون إنساناً مثالياً ستصطدم بها، ولن تقو على تمثلها واحتمالها.

يحاجج ضميره بأن قبو السفينة يعج بالعبيد الموثقي الأيدي والأعناق، هربهم النخاسون تفادياً للدوريات التي تبحث عن العبيد خاصة بعد اتفاقية جنيف التي وقعت قبل أعوام عشرة داعية إلى إلغاء الرق، لم يكن تنفيذ الاتفاقية ممكناً على أرض الواقع، وظلت السفن تنقل بضائعها الحية بدءاً من ميناء عدن وانتهاءً إلى غوري في غرب إفريقيا، يتدفق العبيد على أوروبا وأمريكا اللتان وقعت دولهما على الاتفاقية، لهذا فإن عبدته السوداء هي الأوفر حظاً؛ تتمشى على ظهر المركب كأية سيدة نبيلة، وهناك عبيده العاملين في حقوله وتجارته، يحظون بخيرات بلدته البعيدة في البرتغال وميزات الموانىء الساحلية، كأنه أنقذهم من قدر البقاء في قراهم الفقيرة الجائعة في أفريقيا، كما لو كان ملاكاً سخره الرب لعبيده، يتضخم زهوه حين يفكر بنفسه على هذا المنوال.

بدا الادعاء الأخير مغالًى فيه، أي ملاك! ينخزه ضميره بخزي خفي، خطفت رفمة من عالمها إلى عالمك كما يختطف لص ثمرة في شجرة من حديقة مسورة، ليس مهماً أن الثمرة كانت ستسقط أرضاً وتتعفن، لم تكن لك وسرقتها، لإرضاء نزوات زوجة صعبة المراس والإرضاء، على الأغلب لن ترضى، ستظل نادمة على الاقتران بك، متأسفة على مصيرها، لكنه يحاول. يجفل حين يلمح الشابة السوداء تتمتم بحروف غريبة وصوت هامس تحدث البحر، هل تلعنه في تمتماتها الغريبة؟ هل هي ممتنة له؟ أم أنه أماتها تماماً حين قضم روحها وابتاعها من خاطفها الذي نقلها من أفريقيا الساحرة إلى أوروبا التعسة؟ ما الذي يجعل تلك الأفريقية محط اهتمامه وقد ابتاع ونقل قبلها كثيراً من العبيد بطمأنينة ولم يرف له جفن؟

وصلت البنت على ظهر السفينة «كابرال» هي وبائعها وسيدها الجديد إلى مرفأ الجزائر. تحرك رايمون بهمة مستعيداً نشاطه بعد أسبوع لم يفعل به إلا الثرثرة وتجرع النبيذ الفاخر مع زبونه البرتغالي على ظهر المركب، أما وقد طويت الأشرعة وتوقفوا، فإن مهاماً جسيمة بانتظاره في القبو المعتم.

تلاطم الموج على جدار الميناء الحجري، وطفا في قلب ساراماغو حزن يتلبسه عادة بانقضاء كل رحلة. تمكن من إقصاء حزنه بتعال كبير

وهو ينزل بعبدته درج سلم السفينة كابرال، بينما أفاقت هي من عالم مخاتل، شاهدت قافلة العبيد المتعبين المنحنين على جراحهم وضعفهم يخرجون تباعاً من جوف السفينة في سلسلة طويلة موثقي الأيدي محاطين برجال يحركون سياطهم في تهديد واضح، يتقدمهم رايمون وهو يلوح لسيدها بكفه مودعاً. سلسال العبيد السود المنكسرين الذين طأطؤو رؤوسهم يتفادون النظر في عين الشمس ذكرها بأنها امرأة مخطوفة غريبة سوداء، مضوا جميعاً حتى ابتلعهم نهار الجزائر الحار.

***

القدمان اللتان داستا أرض الجزائر لا تشبهان القدمين الخائفتين النحيلتين اللتين صعدتا نفس السلم قبل أسابيع، أعرف كيف ارتخيتا تحتي، يهدهما الفزع ولا تقويان على حملي، لحظة ملامسة رمل الجزائر دفعهما الفضول للسير بخفة وإن انتعلتا حذاءً جلدياً بدا لي مضحكاً، نزر يسير من البنت التي كنتها يصحو فيّ، مشحة من البهجة جراء تدافع الناس وأصواتهم المتصايحة المتشابكة عند الميناء، التقطت أذني بعض كلمات رجحت أني أعرفها، لا بد أن جدي كان يعرف بعضها، كلمات ذات إيقاع عربي ما يلبث أن يختلط ويذوب في قلق الكلام، وأنا رغم ذهولي وصدمتي لم أخسر جل انتباهي وسرعة

تعلمي، بامكاني التقاط الكلمات وفهـم مغزاهـا، حتـى تلـك الكلمـات التي يشبه رنينها تكسـر أوان فخاريـة علـى صـخرة، بـت أفهـم دلالات اللغة التي يتحدث بها سيدي سـارماغو قليلاً، أخـال أني أفهـم كـل مـا يقول، هل لأنه وفي حركـة مباغتة ونحـن نـدخل سـوق الجزائـر وسـط أمواج بشـرية تـروح وتجـيء، أمسـك كفـي كمـا يفعـل أب بكـف ابنتـه الطفلـة، قـادني وراءه في زقـاق ضـيق يغـرق في العتمـة رغـم أن الشـمس تضربه في الأعلى، وترسل بعض ضيائها في الجدران المرتفعـة ولكنهـا لا تصل إلى أرض الزقاق الرطبة.

هل سيفهمني جدي لو علم أني بت امرأة ناسية؟ لقد حدث ذلك فعلاً، شمس الجزائر التـي تتحـرك وراء الغـيم ثـم تنسـكب ضـياءً أنسـتني مـا مضى، عندما لا يسألك أحد عمن تكون، عندما يفترضون أنـك لسـت إلا الصـورة الماثلـة أمـامهم، يحـدث أمـر مـذهل، تخـرج مـن حياتـك القصيرة وتدخل أخرى، تنسى تمامـاً؛ لتتعلم.

أشهر قليلة محت سنوات طويلة، وفي حمـى الحيـاة الجديـدة تلاشـت الوجوه القديمة كلها، غامت تفاصيل وجه جـدي، بـات مجـرد شـفتين تنفتحان وتنطبقان في ثرثرة خرساء لا أكاد أذكر مغزى كلماتها، تجلب لـي أذنـاي أصـواتـاً مغـايرة ولغـات معقـدة، يتفـتح وعيـي علـى دلالـة الكلمات الجديدة، حتى لتبدو الكلمـات الأولـى في قعـر رأسـي غريبـة

وبعيدة وساذجة جداً، ويبدو سواد بشرتي وقحاً محرجاً وكأني لم أعتده يوماً، الدودة تتمطى لتصير مخلوقاً مختلفاً، وتنسى لحظة كانتها دودة، على اليابسة كبرت الفتاة التي ولدت على ظهر السفينة.

يعرف سيدي ساراماغو الزنقات والأزقة التي نجتازها كما يعرف وجهته تماماً ولا أسأله أين نمضي، ولكني لأول مرة منذ اصطيادي في حقل الفول السوداني أشعر بالأمان، كف أعرفها تمسك يدي، انقطعت سلسلة الذين هم أهلي والذين خطفوني والذين باعوني، ولم تبق حقيقة ماثلة أمامي إلا كفه الكبيرة الدافئة تمسك كفي، فأتبعه، هو كل ما تبقى من ذاكرة زماني الذي هرب مني، صلة الوصل الوحيدة التي تربطني بما لا أتذكره.

استغرقت استراحة الجزائر زمناً، أشار لي عند نزولنا بإشارة تفيد أننا سنمكث يومين في المكان. يومان أو شهران، لم تعن لي المدة فرقاً.

قفز وجه كامونقة مجدداً يخاتلني ثم يتبدد حين وقفت قبالة الحاج عبد العزيز، لا أستطيع تفسير ما يحدث داخلي، بداية لم يعد الناس حولي ملونين بصفرة باهتة، لقد اختلطت ألوانهم ليفج لوني صريحاً، ألوانهم داكنة تقارب لوني ثم تتراجع مفسحة لبياض قمحي رائق، بعثت ألوانهم الراحة في نفسي، ابتهج قلبي حين رحب بي الحاج عبد العزيز.

- مرحب مرحب للّلا..

سائلاً سيدي ببساطة:

- مرتك ذيه؟

ابتلعت ريقي وسيدي يهز رأسه مدعياً بأني زوجته.

استضافنا الحاج في بيته وأطلقت الحجة فاطمة صوتاً ممطوطاً مبتهجاً ترحب بالرجل وامرأته، سيدي وأنا، لم يربكهم تناقض لونينا، أو هوة العمر بيننا، اعتقدونا زوجين، كنت أذكى من أن أنخدع بأني حقاً زوجة رجل أبيض، وقد حاول جهده مساءً أن يشرح لي سبب تلك الكذبة الصغيرة، لم يكن بحاجة إلى كل هذه المحاولات، لقد فهمت من لمسات كفيه التي تمر فوق ذراعي بصورة عرضية وهو يشرح بلغته المتشابكة الحروف والأصوات، أن الحاج الجزائري صديقه الذي يستضيفه في كل رحلاته إلى الجزائر، وعليه التظاهر بأن الإفريقية التي ترافقه وتشاركه حجرته هي زوجته مراعاة لدين الحاج وتقاليد عائلته، قال ساراماغو:

- حاج أبد الأزيز مسلم.

ثم مد سبابته إلى رأسه وإصبعه يلعب ويدور في إشارة تعني أن الحاج بالضرورة مجنون.

أنا أيضاً كنت مسلمة، لا أعرف ماذا يعني هذا!

مكثنا شهراً ويزيد، لم يكن بامكاني العد بدقة، لكنه زمن قصير طويل عصف بي، كان فيه عقلي الطفل يبتلع الأشياء المجهولة الجديدة ويتعلم لأصير ما أنا عليه، كما يناديني سيدي رفمة، تلك الحشرجة في حنجرته تجرح اسمي الذي كان، ولكن أحداً لا يلاحظ، أنا مجرد رفمة سوداء ترافق البرتغالي، كانت حجرتنا في بيت الحاج منفصلة قليلاً، تبدو كأنها أقيمت للغرباء في حوش البيت الكبير.

يقول عبد العزيز، أو أبد الأزيز إن سكننا قريب من الكاتدرائية المسيحية التي أقامها الفرنسيون فوق بناء الجامع العتيق «كتشاوه» الذي احتل قلب القصبة الجزائرية منذ زمن. وإن سوق الماعز قريبة جداً.

أسمع وأجاهد حتى لا أشتم عطن فراء الماعز ولا تأتيني ريحها حين تتدافع وتتحرك في سكون الهواء.

يخرج سيدي لعقد صفقات في بيع نبيذه الذي ما زال قطوفاً من العنب في أرضه البعيدة، ويعود وقد ابتاع لي تمراً عطراً يسمونه دقلة نور، أو بلحاً صغيراً بنكهة حلوة يسمونه الغرس، يحدثني بتفاصيل ما فعل في نهاره، أفهم بعض ما يقول بلسانه وإشارات من كفيه، ولا أفهم معظمه، أكتفي بابتسامة بلهاء، حتى يأتي دوري في الكلام، أحدثه بكل ما اصطدته من كلمات وبالعربية التي لا أجيدها ولا هو يفهمها تماماً،

أحدثه عن مجلس «البوقالة» الذي عقدته النسوة في مجلس الحاجة فاطمة، وكيف أخرجت لهن الأوراق المطوية التي تشرح حظوظهن من الجرة وهن يضحكن، وصغيراتهن اللواتي يفهمن الحروف يقرأن فيزددن ضحكاً، وعجوزهن تقول:

- علاش يا لالا التخمام.. رحمة الله واسعة وكبيرة.. لو كان جات بالكلام.. نتحدثو ونعطوك تدبيره.. بصح كل شي بالمكتوب والخير يبان.. وتزول عليك الهموم وتروح الحيرة.

الحديث بالكلمات والإشارات والتمثيل يشرع نوافذ الألفة بيننا، نتقارب، وفي لحظة يرتخي جفناه، ويشدني إليه، يضاجعني في كامل ثيابه ودون أن ينزع عني ردائي الخفيف، أرتخي وأنصت بانتباه لزفير أنفاسه المضطربة، أسلمه جسدي وأنا أفكر: هل انتهت رحلتي على هذا النحو؟

ينهض ويربت كتفي فلا أتردد أن أفصح له بأني تمنيت أن يكون ما قالته العجوز وهن يلعبن هو حظي أنا، فقد بدا حلواً واعداً، كأني لوهلة تأملت أن تضحك الدنيا وتلعب لعبتها في محو كل وجع، لكن ورقة البوقالة الثانية تبدو أقرب إلى حظي: لو كان السعود تنغرس بالعود، نغرس ميات عود في وطيّة، لكن السعود بيدّك يا معبود. يا سقام السعود سقم لي سعدى..

يضاجعني سيدي مقبلاً وقد ولى انزعاجه الذي استشعرته في المرة الأولى، لم يعد يبعد وجهه متفادياً شمي، بل يضع رأسه في تلافيف شعري الخشنة ويستنشق بجنون وهو يصهل وينتفض. ينغلق باب الحجرة فنتسامر بكلام لا نفهم نصفه، أتعرى وإن لم يفعل، ويتعارك جسدانا بانسجام ولهفة، صدق أني زوجته، وصدقت، امرأته كما لم أكن امرأة أحد قط. فكل من عرفتهم كانوا يلعبون وألعب، أما معه فقد صرت امرأة حقاً، لم أعد أرتخي بين ذراعيه صامتة أتفكر، بت أضحك وأبكي وأقفز وأرتمي، أدفعه وأجذبه، ويعلو صوتانا، فإذا ما انفتح الباب ولمحنا الرجال في فناء البيت يلعبون لعبة «الخربقة» وينظرون إلينا بنظرات عارفة، سرت مسرعة نحو حجرات الحريم، أتعرقل بذيل برنس مزركش بالتطاريز الملونة، أرفعه بكفي ويضحك الرجال بينما يحك ساراماغو رأسه مبتسماً كأنه مسؤول عن هذا الارتباك، وأنا التي لم أعرف الخجل يوماً أحسه نشب في رأسي كالحمى. لا ينقطع الرجال المعممين عن الضحك وهم ينقلون بعرات الجمال والحصى من حفرة إلى حفرة متابعين لعبتهم.

يدعون سيدي ليلعب، فيرفض مدعياً عدم قدرته على فهم اللعبة المرسومة على الرمل، يسخرون منه، فأنظر إلى وجهه البشوش بتعاطف جديد، أرى سيدي البرتغالي بشرياً ودوداً دافئاً، أحب

عراجين التمر الأشقر التي يأتيني بها طرية حلوة المذاق، وأحب حالنا معًا حين نكون رجلاً وامرأة، جسدين ناقصين يبحثان عن اكتمال عبر اتحادهما. لم أفكر بجسدي وفوراته قبل ذلك على هذا النحو أبداً رغم كثرة عشاقي الشبان، حين يحتويني يتكلم لحمي، يزعق عما مر به من بؤس، ويستجدي تعاطفًا ومحبة وأمنًا، لا أعرف متى انقلب خوفي من سيدي وكراهيتي له إلى سلام يفرح قلبي ومحبة تبهجه، أحب ثقته العالية وهو يمرق في زنقات القصبة الضيقة المتلاصقة، أتبعه وأنا على يقين بأني لن أتوه أبداً في طريقي، حتى عندما نمر بالسوق الممتدة من جامع كتشاوة إلى باب دزيرة حيث تتزاحم منصات بيع العبيد، أنظر كأني حرة، لا يعنيني ما أراه من عبودية الآخرين.

ظننت أن الحياة استقامت لي على صورتها تلك، وأن رحلة الضياع انتهت، فارقتني الكوابيس المشوشة، وهنئت في حياتي الجديدة، لم أعد أتذكر عبوديتي.

فجأة؛ فعل سيدي ما كان ينتويه أساسًا ولم أتوقعه، فعله متعجلاً قلقًا كأن نبأ مفجعًا حل بالدنيا، حزم ثيابه وشدني لأتبعه كمن يلحق بحبل نجاته الأخير، مجدداً ركبنا السفينة التي توغلت بنا في عمق البحر الأبيض المتوسط.

السفينة في الحلم، خير وفير، هكذا أردت أن أراها، بل أنني وأنا أصعد سلمها للمرة الثانية كنت قد تحولت إلى امرأة طروب مقبلة على الفرح، رحت أمتدح لون البحر الأزرق، وأشحت بوجهي عن سلسلة العبيد الذين قادوهم إلى قلب السفينة، لم أتعرف بينهم على وجه بعينه، باتوا في ناظري مجرد أشياء لها لون قاتم، لا شيء يجمعني بهم، وليس علي أن أنذر روحي للوجع، فالبحر يفتح ذراعيه لي بصخب رائع، وثوبي الذي ابتاعه سيدي من الجزائر مزركش بما يكفي ليجعلني واحدة من هؤلاء النسوة الحرائر الملونات كثيفات الثياب.

مع ذلك، أعترف أن ثقلاً حط على صدري، وأني ارتجفت وأحسست منذ اللحظة الأولى فوق السفينة بانقلاب سيعتري حياتي فيمحو ويشطب ما مضى ويأتي بفيض لا أفهمه من الألم، وشى جسد ساراماغو بمكانته ومكانتي، كانت حركاته وحدها كفيلة بهد عالمي الذي ركنت إليه واهمة أنه العالم الأخير الذي سيحضنني، فسيدي الذي يسير بمحاذاتي في المدينة، في اللحظة التي داست قدميه أرض السفينة، بات غيره، تباعد عني بخطوات عامداً، ومال كتفه بعيداً عني مقفياً، واختفت ابتسامة التطمين، بمجرد ظهور البيض الرافلين بكثير من الثياب والرياش، لم يعد ينظر نحوي فتقع عيناه في عيني، مضى كأنه لا يعرفني رغم أني عبدته الصغيرة التي تتبعه بين الجموع

الصفراء، لم نعد نلعب لعبة الزوجين، ليس هنا واحد بعينه يستحق أن نكذب أمامه بالقول إننا زوجين، رجل وامرأته. عند أول الخطوات فوق السفينة وبين عشرات الأزواج من البيض المنفوشين كطواويس، الذين يتحدثون لغته ويحيونه باحترام، عدنا سيداً وأمة، حراً وعبدة، اغتيلت لحظتها البهجة المخادعة التي رسمت وجهي لشهر ويزيد فأعادت لي بعض الضحك، انطفأ سراج في القلب، وسقطت عتمة غامضة لزجة لفتني وعزلتني تماماً، كأن أيام الجزائر لم تكن، كأني خطفت للتو من حقل الفول، حتى خجلت لكل لحظة سلام خدعت فيها قلبي، ولكل ضحكة أطلقتها، وكل ارتعاشه ارتكبها جسدي، وكل أمل راودني، بالأخص خجلت لأني شعرت بالمتعة مع جسد هذا الغريب الذي ضاجعني مرتدياً ثيابه، كيف صورت لي متعتي اتحاد جسدين، أحدهما عار والثاني متكفن بالأقمشة؟ ذنب لا أستطيع تجاوزه، كأن الأعين الكثيرة للمسافرين على متن القارب تتفحص فتحاتي، كأن البرنس المزركش الذي ينسدل حول جسدي مستعار لا يخصني، يخنقني ويسوطني بالوجع، عدت عارية خائفة غير واثقة، تتصعد مرارة خانقة سقف حلقي.

انصرف سيدي إلى جمع الديكة والطواويس يتبادلون الأخبار والمخاوف فيما يدخن تبغه من غليون عاجي يعرضه لرفاقه متباهياً،

ولأول مرة أنتبه إلى أن غليونه كان نابًا لفيل أفريقي. انشطر صدري، لن أستعيد قلبي أبداً، فهذا الراجف الصغير تعرض لثقل العالم على مراحل، حكايات جدي الموجعة، وشبكة الصيد التي اقتنصتني ثم الرحلة الصحراوية المريرة التي ابتلعت ضحكتي وايماني، وأخيراً ذلك السراب المخاتل المخادع عن التواصل الإنساني، عن كوني إنسانة في المقام الأول، رأيت صورتي في وجهه المتغضن الأصفر وعلى موج البحر وفي عيون من ينظرونني، مجرد عبدة! تبدد سرابي عن وهم مفجع وارتحل قلبي، وللغرابة؛ لم أكن مهتمة برحيله، بت بلا قلب، الفراغ في صدري وروحي يسهل مجابهة الحياة، يرميني في مساحة خفية من حرية لا يعرفها سواي، حرية ألا يكون لي قلب مرهون لأحدهم، حرية سخريتي الباطنية حين أدرك أنهم يستعبدون جسداً سيأكله الدود يوماً، ارتخت كتفاي، وشُلعت أقدامي تماماً من أفريقيا والباخرة تبتعد عن شواطئها موغلة في البحر الهائج ميممة شطر أوروبا.

لو كانت السعود تنغرس نغرس ميات.. لو التقيت بجدي ذات يوم سأخبره بأحاديث النسوة اللواتي فارقهن السعود، وسأسأله كيف ظل قادراً على الضحك بعد كل معاناته من الحياة؟ كيف تمكن من مصالحة الحياة؟ من أين يجيء بالضحك والكلام الوفير والمزاح

والأحاجي؟ لماذا لم يمت عندما كان عبداً؟

ما جدوى أن أفكر بجدي مطولاً وأنا أعبر البحر العميق البارد والباخرة تشق الماء والريح؟ وما جدوى أن أستوحش الحياة لمجرد أن سيدي انصرف عني؟ بات يعاملني كما حيوان أليف يرسل له الطعام بين الحين والحين، متجاهلاً انكسار صوتي وعتب عيني حين تحاول التقاط نظرات عينيه فيشيح.

عدت إلى موقعي تماماً، هناك في حقل الفول السوداني وغطيط العتمة يبتلع المكان وحبال شبكة الصياد تلتف حول جسدي التفافاً مكيناً.

وسط دوامات البحر الهائلة المهولة، تذكرت ماذا فعلت لحظة وقوعي في الشباك، كيف قاومت بعنف، وكم حاولت قطع الحبال بكفي وأسناني وجسدي وصراخي، تلك اللحظة بدت هي ما ستكون عليه حياتي القادمة، حيث سأظل منشبة أظافري عاضة بنواجدي منتفضة أحاول الخلاص، حريصة على الصمم عن نبض الفؤاد، لن أستحق حريتي ولا كرامتي الإنسانية ولا الانتساب إلى دم جدي العظيم كامونقة إذا فرطت بتلك الروح المقاومة لحظة في حياتي القادمة، سيعمل عقلي بدأب لفهم الكلمات الغريبة حوله، لا بداعي القرب والتقارب، ولكن كما تتعلق القرود بأذيالها فوق فروع الشجر كي تقاوم السقوط، سأفهم ماذا يقول هؤلاء البيض الذين جعلوا

سـوادي قاتمـاً في مشـهدهم الباهـت، سيهضـم عقلـي قاموسـهم وسيهتدي حدسي لدلالات إيماءاتهم وحركاتهم، وسأفلح في نبـذ ما كـان مـن ضـعفي المخجـل في الجزائـر، حين دق قلبـي للرجـل الـذي يتسيدني، في أعماقي كنت أنتوي أن أجعل قلبه يدق لي ثـم أدفعـه عنـي بكـبر وخـيلاء، صـرفت هـذا الخـاطر سـريعاً، لا يعنينـي الانتقـام مـن أحدهم، ولكن النجاة لنفسي في طريق الحياة الطويل الغادر.

***

تحركت السفينة ببطء نسبي، تسابق تيارات الماء العنيفة التي يهيج بها البحـر الأبـيض المتوسـط، ولكنهـا في الواقـع تقـع في دواماتهـا، تـدور، وتتحرك إلى الأمام بصعوبة، أيام متوالية وكأن السفينة لم تبرح موقعها مـن البحـر، لـم تكـن الـدوامات الضـخمة والأجـواء العاصـفة وحـدها تلجم السفينة، فقد ارتبكت حركة الملاحة أمام مئات السفن الأخـرى التي تتحرك باتجاهـات متقابلة دون تخطيط، بعضـها ذاهـب وبعضـها قادم، في معظمها كانت ترفع علمـاً مـن أعـلام الحلفـاء، مـا عـدا تلـك السفن الصغيرة التابعة للصـيادين وللـرحلات العـابرة، تتحـرك السـفن بارتباك وحذر، فلم يكن أي من كوادر السفن العائمة مستعداً لخـوض تجربة اصطدام بالغواصات الالـمانية التي تحرث البحر في الأعماق.

اتضحت نذر الحرب الكونية والسفينة كابرال تقطع رحلتها بطيئة مـن

ميناء الجزائر إلى مضيق جبل طارق.

لم تتمكن رحمة من فهم ما يحيط بها، الجزء البادي على الوجوه، التجمعات السريعة في كل ركن، التحرك بعصبية وفزع بين البيض الذين توتروا وفقدوا أعصابهم، تجمعوا في طرف السفينة والبحارة ينزلون قبو السفينة ويخرجون بعض الأجساد السوداء التي داهمها المرض ويلقونها كالأشولة إلى فم البحر الذي يتلوى حولهم مبتلعاً الأفارقة بشهية، بعضهم كانوا على وعي بما يحدث لهم، صارعوا الموج بأيديهم وأجسادهم العارية وصرخوا وتوسلوا ثم اختنقت صيحاتهم وخمدت أجسادهم، لفهم الماء وهبطوا إلى القعر مختفين تماماً، أشاحت الوجوه البيضاء عنهم كما باتت تنظر لها بريبة وتخوف، فانسحبت ببطء وحذر إلى ركن قصي قريب من منام البحارة الذين فقدوا الرغبة بالجسد الأسود الفتي الذي يركن إلى منامهم وقد كانوا يطمعون به.

أصاب الذعر ركاب السفينة وهم يتداولون أخبار الحرب ومرض الأفارقة، وبات عقبة في وجه رحمة التي تحاول اقناعهم بقبولها، فيما تفادى القبطان ببراعة وكثير من الحظ مسار الغواصات الألمانية، والسفن الحربية البريطانية والفرنسية التي تلتف محاولة تحصين موقعها في قلب البحر فيما جيوشها تداهم مواقع انتشار الألمان في

أوروبا، سبق القبطان قوى المحور الألماني الإيطالي وهي تتراجع بفوضى عارمة من السواحل الليبية مرتدة إلى إيطاليا بعد خسارتها معركة العلمين في مصر على يد البريطانيين.

في مطلع عام ألف وتسعمائة وتسع وثلاثون شقت كابرال الماء بصعوبة وحاذت جزيرة «ليلى» التي يسميها الإسبان البقدونس، كان ميناؤها الضيق يعج بالجنود والمقاتلين الإسبان الذين يديرون حربهم الأهلية الخاصة، كما يرمي الجنود بالمعارضين لحكم فرانكو إلى قلب السفن استعداداً لنفيهم إلى الرأس الأخضر.

توقفت كابرال لساعات معدودة دون السماح لركابها بالنزول إلى الشاطئ الإسباني، تزودت بالوقود والطعام ولم تمنح إذن الاستراحة، وكانت السفينة المدنية الأخيرة التي سُمح لها باجتياز المضيق قبل إغلاقه تماماً أمام الملاحة.

تحمس الركاب رغم تعبهم وحاجتهم القصوى إلى الراحة مفضلين الابتعاد عن مواقع الخطر المحتملة في إسبانيا، مستبشرين وقد وصلهم خبر وقوف البرتغال على الحياد في الحرب، تقدمت سفينتهم مخلفة وراءها جنون العالم، هدأت مخاوفهم حين خف تزاحم السفن وانبسط المحيط الأطلسي على مد البصر، داكناً غامضاً، مرعباً مخادعاً في سكونه لا يبعث على الاطمئنان.

بدت الصبية الزنجية التي ارتدت البرنس الجزائري أكثر رضى، فقد تصالح البيض مع لونها الداكن على ظهر السفينة بعد اختفاء الحالات المرضية عبر رحلة طويلة، وها هي تتلقى ضحكات الأسياد بهدوء، بعد أن عقد البحر هدنة غريبة بينها وبينهم، أقرب إلى التعاطف والصحبة، كأنها اعتادت بياضهم الفاغر الفج واعتادوا سواد بشرتها، لم تعد من كانت عليه: أفريقية مخطوفة خائفة.

باتت فرداً في المجموع، حدث ذلك بوعي تام وتخطيط متأن منها، فقد قادت مؤامرة أذكى من أن تعيها أو يكتشفها أحدهم للإيقاع بهم في شباكها، اصطادتهم بصبر وتؤدة، كانت شباكها خفية لا تُرى، فلم يقاوموا تقدمها البطيء واقترابها المدروس، حين أدركت أن استنادها على الرجل الذي تعرف سيلغيها، فتحت طاقات انتباه في عقلها لفهم ما يلهجون به من اللغات الإسبانية والبرتغالية، ثم للتعبير عما تريد، وأكثر في إقامة علاقة انتفاع ظريفة بينها وبين النسوة اللواتي نظرن لها باستنكار في أول يوم من أيام الرحلة، اكتشفت أهمية تبادل الكلام والضحك مع جمع النسوة على سطح الباخرة، قدمت لهن خدمات متفرقة، نظفت قمراتهن وغسلت ثيابهن ونقلت لهن طلبات أزواجهن بموافاتهم في مقدمة السفينة، وهبنها أربطة تكبل بها شعرها المنكوش، وجلسن ساكنات وهي تجدل شعورهن الناعمة، وتركنها تنام عند

أسرتهن وتغير لهن الكمادات الباردة حين تعتريهن الحمى، بدت نافعة لهن، وكن أنفع لها، كانت تمتص الحروف وعقلها متقد وروحها تراقب، تتعلم وتتغير وتصير ما صارت إليه، حدث كل هذا وسيدها مشيح بوجهه متجاهل ما يدور، وإن كان في أعماقه راضياً وهو يراها تتدرب على أيدي النسوة على مهام يقدر أنها ستكون مهامها حين تصل إلى بيته.

مخرت السفينة طيات الماء بموجها الثقيل معيدة للأذهان كل أساطير الأولين حول المدينة الضائعة «أتلانتيس» التي ابتلعها المحيط كاملة في ذات البقعة قبل آلاف السنين، مروا منها كأنهم يمخرون التاريخ، تخلص ركاب السفينة من ذعر سفن الحرب والتيارات المائية وأصابهم توتر خفي لا يفصحون عنه وهم يتظاهرون بأن قلوبهم ارتاحت وهم يفارقون الساحل الإسباني متوغلين في المحيط الأطلسي، ثم عدلت السفينة مسارها مقتربة بهدوء من شواطئ البرتغال، لتلقى مرساتها في مرفأ «فارو» حيث سطع لون أزرق بهي لا يشبهه لون في صفائه.

رقص ركاب الباخرة وغنوا وضحكوا مبتهجين وهم يحتسون آخر ما تبقى من نبيذهم، استعدوا لتذوق النبيذ البرتغالي الفاخر الذي ينتظرهم. فقد اجتازوا تماماً مناطق التوتر والحرب الكونية تقوم،

ودخلوا في بلد حافظ على حياده، لم ينس بعد المآسي التي خلفتها الحرب الأولى، ولا أوجاع الانقلاب الأخير الذي كان منذ ثلاثة عشر عاماً، بلد خرج من النظام الكلي قبل أعوام، وبالكاد حقق كيانه، كان يراهن على استقراره وتبنى السلام والعلمانية ويحاول جاهداً الحفاظ على لونه الخاص، فإذا قامت الحرب العالمية الثانية؛ صمد في وجه الخنادق التي كان لازماً على الدول الأوروبية التورط فيها، اختارت البرتغال السلم في زمن الحرب.

اكتظ الميناء بالإسبان والمغاربة وعائلات فرت من أصقاع الأرض إلى الشاطىء الأزرق الجميل، أوروبيون وأفارقة وعرب وبربر، وجند فرنسيون وإنجليز في طريقهم إلى جزر الآزور البرتغالية التي ستصير قواعدهم الجوية والبحرية، وكانت تلك هي المشاركة الوحيدة للبرتغال في الحرب، لم يخف الناس في الميناء بهجتهم لخروج بلادهم من معادلة الموت، ومرت مظاهرات ترفع شعارات تعظيم الدولة الجديدة وتمجد «أنطونيو سالازار» رئيس الوزراء، بطل الحرب والسلم، وساحر الاقتصاد الذي لا يخطىء.

لم يشعر ركاب السفينة بالضيق جراء الازدحام والتدافع والفوضى العارمة، صاروا أكثر بهجة بعد رحلة الرعب في المضيق، تخلوا تماماً عن مخاوفهم وانتشروا في الميناء يشاركون الراقصين والمخمورين

احتفالاتهم وقد تيقنوا أن بلادهم نأت بهم عن المشاركة في الحرب الشاملة.

تفرق حشد النسوة اللواتي تعاملت معهن رحمة متأبطات أذرع رجالهن على رصيف فارو، مضوا جميعاً؛ كل إلى وجهته، بعضهن لوحن لها، وأخريات نسينها تماماً، وهناك من دسسن نقوداً في كفها، ثم ضعن في الزحام، تُركت مجدداً هي وسيدها وجهاً لوجه.

***

لم أكن أنا نفسي الفتاة التي وقعت في أسر الشبكة في بقعة بعيدة في دارفور، أنا المرأة التي ارتحلت على ظهر الموج وصفعت الريح وجهها حتى تجمد خداها فوق السفينة، أما ذلك الحلم القصير فقد استيقظت منه بعد مغادرة الجزائر. وغمرني خزي كبير لهشاشة الروح التي استسلمت لحلم محبة الرجل الأبيض، وإن بت أعرف كيف أتعامل مع هذا اللون الفج الوقح، أنمو بسرعة وأتعلم، بت أدرك بعمق مهزلة البشر الذين يصطنعون القوة والقسوة لمداراة ضعفهم وخوفهم وشياطينهم، فالنسوة اللواتي قلبن شفاههن ازدراءً وهن ينظرنني بنتاً سوداء تدوس خشب سفينتهن المبلل بشعر منكوش وثوب مهلهل بتن خلال أسابيع قصيرة من الإبحار يستأمنني على أسرارهن، لقد أدركتُ وهن المرأة البيضاء التي تعجز عن غسل ثيابها الداخلية،

وتلك التي تحتاج لمن يحمل لها طبقها لتأكل، ورأيت جهاراً لا خلسة دموع بعضهن وأزواجهن يغازلن نسوة أخريات على ظهر المركب، سمحن لي برؤية أطرافهن التي خشنت بفعل الريح، وتمددن عاريات في أسرتهن لأدلك أجسادهن بزيوت الترطيب، رأيت نحولهن وسمنتهن، رأيت عظامهن الناتئة وثنيات الدهون في بطونهن المترهلة، والاسوداد الذي لطخ أفخادهن لفرط تعرقهن، كن بمجموعهن يفقدن خصوصيتهن التي يتباهين بها وهن واقفات يضحكن ويقلبن مراوحهن الأنيقة، بتن مخلوقات جديرة بالشفقة بينما كنت أنتفض، وأستعيد حضوري كاملاً، بت أقوى وأذكى وأكثر صبراً وسخرية وملاحظة لما يدور حولي، تمكنت في فترة وجيزة من فهم اللغة، ولم أرفض الثياب التي قدمنها لي، ارتديت بعضها ولكني كنت أكثر راحة في البرنس الجزائري.

أنجزت في رحلتي تلك القطيعة التامة مع سيدي، وصلتها بعد كبوة صغيرة راودني فيها الأمل، وقفت على رصيف الميناء قبالته أحاول التواصل، جمعت كفيّ كأني أرجوه ثم أشرت بذراعي نحو السفينة الراسية، وتمتمت بكلمات لم يفهمها ولكن ذراعي وهي تروح شرقاً، وصوتي وهو ينوس ويرتعش رجاءً، أوصلا إليه سؤالي:

- هل نعود يوماً من حيث أتينا؟

نظر إلى حذائه وتمتم، ثم رفع رأسه فبانت تقطيبة جبينه وإنكار ناظريه، هتف هازاً رأسه:

- نو.. نم.. نونسا.(*)

فهمته، ولم أعاود السؤال، لقد قطعت الحبال تماماً ونهائياً بيني وبين السفينة الرابضة على وجه الماء كما بيني وبين نفسي، رشقته بالغضب الصامت فأشاح وجهه، ثم بات بعدها يسترق نحوي نظرات حذرة، لم يعد يعرف كيف يتعامل معي، ماذا عليه أن يفعل، أو ماذا يقول، لهذا لم يخاطبني أبداً، لعله ندم على شرائي واصطحابي بتلك الرحلة التي كانت تعيد تشكيلي لأصير تلك المرأة الواثقة الخبيثة التي تعرف الكثير، وتتخيل أكثر، ولا تفصح إلا بما يلزم. والآن وقد انفض جمع ركاب السفينة وصار عليه أن يحدثني، فإنه أصيب بذعر لجرأة نظراتي، تعمدت التحديق مباشرة في عينيه، وتمكنت من جعل نظراتي غامضة لا يمكن تفسيرها، أظن أن لجدتي اللمون نفس تلك النظرات، أتراها كانت ترمي بها عن قصد؟ وهل تصير لكل من خبروا الوجع ذات النظرات؟

سأحفظ الصور التي تعبر ذاكرتي في صندوق مغلق بإحكام، وسأنساها على رصيف الميناء علها تنزلق إلى الماء وتغيب في قعره وتذوب

(*) لا أبداً.

تماماً؛ سهول الفول السوداني، صحن دارفور الذي يمتلئ خيراً ويفرغ تباعاً، الناس الذين كانوا يسمون «مجنونكي»، وجدي كامونقه، وحبيبته العجفاء جدتي اللمون وأبي وأمي، وعشاق يتسابقون لإرضائي، وليل الحكايات والشاي الأسود الساخن في الأكواب، قلائدي الملونة التي اهتزت فوق نهديّ العاريين، كل هذا تاريخ لا يعنيني، ثقل لا أنوى اصطحابه معي ليعيق خطواتي، سأرميه مثل ثوب بال لا يلزمني، شبكة أتحرر منها، فما أصعب أن تعلق بشبكتين: ذاكرتي وعبوديتي.

سيذهب تاريخي إلى غير رجعة، سأنسى أهلي، لن أتذكر وجه أمي وأبي، لن أسترجع الإحساس بما تركته لمسات عشاقي على جسدي، سأنسى أسماء إخوتي، سأسمح فقط لصوت ووجه جدي معتوق-كامونقة أن يخاتلني بين حين وآخر.

أنا الآن جديدة، لعلي أحتاج اسماً جديداً، «رفمة» مثلاً.. رفمة.. ستمشي رفمة على رصيف الميناء برزانة كما امرأة بيضاء، أما العيون التي ستقول عكس ذلك فلن أسمعها، أنا قررت تلك اللحظة أن أصير بيضاء، كتلة مشاعر تجمدت وفقدت بهاءها، عينان تنفتحان على الفراغ بفراغ صامت، لن يرى أحد النار المتأججة في الروح حيث الصخب والجنون والحزن والفرح والغضب والشغف، سأحتفظ

بإوارها سراً مكيناً لي وحدي، أستعيده إذا وحدني الليل بها، أطمئن عبرها على أني ما زلت أحيا وأتربص بالموت وأسد عليه الطرق؛ فلا يسمع نبض قلبي ولا يلمح شرر عينيّ؛ ولا يستطيع الإمساك بروحي إذا ما انفلتت تحلق في سمائها السرية.

يرمقني سيدي ساراماغو بنظرات ملؤها الريبة، ويدلني حدسي على ارتباكه وضعفه، حتى وهو يصل إلى أرضه، حيث لا يكون مجرد تاجر غريب عابر، ولكن سيد نبيل يرفعون له القبعات رغم الفوضى والتزاحم، مرتبك رغم أني عبدته الصغيرة التي اشتراني، لعل تذكره لمضاجعتي يفزعه، أو يحرجه! أو يثير حنينه لتكرار فعله ويشعره بالندم جراء تجاهلي وتركي أكبُر وأنضج وأصير بيضاء دون أن يكون له يد في ذلك؟ ماذا لو أن ضميره يوخزه بسببي أو لأي سبب آخر؟ هناك خيارات كثيرة لتفسير حاله القلق التي تبدو في نظراته وحركاته، ولأني لم أعد تلك النزقة التي تقفز فوق الاحتمالات، فإني أبعدت حدوسي وأفكاري، وسرت محاذية خطواته وإن بدا كأني خلفه بقليل. عبدته الصغيرة التي تتبعه باذعان، أم أنه رجل خائف يسبقها في خطواته هرباً! دخلنا معاً مهرجان الناس في الميناء ثم انفصلنا عنه ونحن ندس جسدينا في قلب التمساح المعدني الذي يسير على بطنه فوق خطين حديديين، فقد استأجر سيدي مركبة لتنقلنا إلى محطة القطار، وقال:

- ليسبون ثم فاتيما.

مضت أشهر لا يمكنني عدها ولكني على يقين بأني كبرت إلى حد لا أجد حولي من يماثلني عمراً، كبرت زماناً لا يعد ولا يحصى، حتى جدي لم يمنح هذا العمر كله، زماني لا يساوي زمان الذين كبروا في حقول الفول السوداني، ولا زمان الناس الذين تحركوا بقلق وفوضى وجموح في الميناء البرتغالي، في الوقت الذي حاصر فيه الصقيع قلبي، شبت النيران في عقلي، كنت أطوي بعناية ما فات وأدسه في صندوق النسيان، وأفتح شبابيك جديدة لما أعيشه.

ركبت التمساح المعدني الرابض في مكانه وسرت في ارتباك مفارقة الثقة التي اكتسبتها على ظهر السفينة، فالمكان الجديد كان خانقاً مزدحماً كما لو أنه زريبة للماشية أو العبيد، تبعت سيدي ثم ارتميت كما فعل في مقعد ضيق أراقب الحركة حولي، فإذا فز الجسد الحديدي واندفع متقدماً رغم أننا في جلستنا البليدة، أصدر صفيراً ناعقاً متتابعاً كأنه ينفخ من بوق، وفاحت رائحة احتراق الفحم الحجري تسد أنفاسي.

قطعت رحلتنا القطارية إلى ليسبون صامتة أتحاشى النظر إلى سيدي، أراقب حقول الحمضيات وأشجار الزيتون القصيرة الخضراء بزرقة طفيفة التي لم تر عيني مثلها شبيهاً تمر مسرعة بمحاذاة نافذة ملطخة

الأطراف لكنها تكشف ما خلفها عبر كوة زجاجية غبشاء، كنت أستزيد معرفة في الحياة، ألتقط ببراعة المشاهد المسرعة التي نخلفها خلفنا، وأتعرف على خليط الروائح التي يسفحها الهواء في وجهي فتقتحم صدري، كما ألتقط الكلمات الجديدة كلما وقفنا في محطة أو كلما سمعت سيدي يحدث رجلاً في المقعد المجاور، أعيد تفسير الكلام وتكراره في سري حتى أحفظه.

هذه هي الدنيا يا رفمة، ادخليها يقظة تماماً، حاولي أن تصبحي جزءاً أصيلاً فيها، انبعثي من الموت الذي داهمك قبل ذلك، أيعقل أنني استسلمت مرة للموت؟ أي غباء ملأ جوانحي! عندما يأتي السيد الموت لن أهابه، ولكني لن أسلمه نفسي لقمة سائغة، لن أرتمي على أعتابه دون مبرر، أحسه بعيداً عني، وأحس أن باباً في الحياة شرع لي، ما زالت الدرب طويلة، وللحياة الجديدة روائح ومذاق حاد، مبهج مرات كما البرتقالات المدروة التي باعنا إياها فتى يمر في ممر القطار الضيق، دهمني حمضها، تناولت برتقالتي كاملة وسيدي يرمقني ويقشر برتقالته كأنه يريد تعليمي كيف يؤكل البرتقال، كان علي في المرة الأولى تناوله كاملاً حامضاً بقشره وبذوره، تلذذت دون أن أترك بهجتي تنفضح في ملامح وجهي، بقدرة الله وحده تعلمت إخفاء مشاعري وصدها من أن تجتاح وجهي أو كفي أو صوتي، تعلمت

بجدارة كيف أكون محايدة، وفي لعبتنا الجديدة التي أنقل فيها لسيدي رسالة واضحة بأنه ليس سيدي وإن بدا للعالم كذلك، كنت أتخطى تعليماته متعمدة، أتناول البرتقالة فلا أقشرها، وهو يهز رأسه صائحاً:

- نووو كوما(*).

عندما وصلنا ليسبون بت أجيد كلمات كثيرة، مثل طفل يتعلم الكلام، استقبلت اللغة الجديدة، وبقلب شجاع دخلت تلك المدينة العامرة بالبيوت العالية والميادين والقلاع، نظرت إلى شاطئ المحيط الأطلسي كأني أعرفه، لقد قطعت قلب أفريقيا إلى بقعة بعيدة في العالم الواسع، رافقت رجلاً هزني مرة وقد ركنت إليه وأمنت رفقته، فإذا ما تبدد وهمه كرهته إلى الأبد، وقفت على شاطئ البحر طاردة كل ذكرى، أسمع هدير الماء في قلب المحيط، وأرى انطواء الموجة على الموجة ودمها الأبيض يتفصد ويرش وجهي، أعاهد الكون على استحقاقي للحياة، لم أعرف حينها أن قلبي الجسور سيتعرض لنكسات وهزائم كثيرة، سينتفض، يتحمل، ينكسر، يعيش ثم تقضمه الحياة على مهل.

***

(*) ليس هكذا.

لم يفاجئني برد لسبون، لعله بدا مخيفاً للبنت رفمة التي ترتجف وهي تقف إلى جانبي والهواء يسفح وجنتيها ويتخلل ثوبها الجزائري، وقد ضمت صدرها بذراعيها تتدفأ بهما، كنت سأفتح حقيبتي لأسعفها بما تلف فيه كتفيها، لكني أرجأت الأمر لرؤيتي الفتى سانشو مقبلاً، ازداد طولاً ووسامة، أراقبه بمزيج من السخرية والغيرة والإعجاب، يستفزني تماماً، وها هو قد ترك سيارته الشيفروليه في عرض الطريق، بابها مشرع كأن المكان ملكية خاصة له، قطع رصيف المحطة قافزاً باتجاهنا، جذلاً مشرعاً ذراعيه بحميمية وبهجة صائحاً:

- اولا.. اولا... (*)

ضمني بقوة ودس رأسي بين كتفيه وهو يربت ظهري ويطيل مردداً:

- اولا.. اولا..

سقطت ذراعا رفمة دهشة واكفهر وجهها حين أفلتني صهري سانشو دي كارمو ملتفتاً إليها مصفراً بإعجاب مفتعل، اقترب منها وقد تغيرت نبرة صوته وهو يقول باعجاب:

- بريتو مورو(*).

أظنها فهمت توصيفه لها بالسوداء، وإن لم تفهم ردي:

(*) مرحبا مرحبا.

(*) مغربية سوداء.

لا.. ليست من المغرب، ليست مورو.. جلبتها من بلاد السود.

لا أظنه يحب السوداوات، ولكنه شاب أرعن يمكن أن يكتشف بسهولة الأنوثة الجامحة في جسدها، وقد يستخف بي ويتلاعب، في محاولة لصرف الأفكار الشريرة ولجم الفتى، شرحت علاقتي بها:

- مجرد عبدة صغيرة ابتعتها لزوجتي.

يتأدب سانشو حين يتعلق الأمر بشقيقته، يتخلص من نظرات الدهشة والاستكشاف ليحل مكانها تعاطف عابر ثم تناس تام. يتلون هؤلاء الأرستقراطيون بسرعة كما السحالي البارعة في الاختباء، نجحت في تحييده سريعاً، سار أمامنا حاملاً حقائبي، متحدثاً عن الغيوم التي حجبت الضياء تنذر بالمطر، وتبعته وعبدتي الصغيرة إلى قلب السيارة الطويلة مشرعة الأبواب، فانطلق مغادراً المحطة في نفس اللحظة التي انفتحت فيها أبواب السماء عن مطر غزير.

عند خاصرة قارة أوروبا العجوز وعلى حد بحر الظلمات توغلت سيارة سانشو في المدينة متوجهة إلى حي الكانتارا، لم أتفاجأ برفاهية الحي الذي يقطنه سانشو الصغير، رفاهية تتعارض مع البدايات المتعثرة لمحام شاب لم يتبق له من عز عائلته ونبالتها إلا الاسم، هجر لتوه قريته ودخل معقل المنافسة الشرسة في العاصمة في الأزمة الاقتصادية التي تعصف بالبلاد، لعله مثل شقيقته كارولينا غير قادر

على الاعتراف بأن البساط سحب من تحت أقدام العائلة العريقة، يحيط نفسه بمظاهر الأبهة الزائفة تنكراً لحاله.

في لسبون وبمجرد ظهور واحد من هذه العائلة المتعجرفة يأكل الغيظ قلبي، وتتسع ثيابي عليّ كأني أصغُر، أختنق وأرتد إلى الزمن الذي كنت فيه ابن مشرف المزرعة المؤدب. في ذلك الزمان البعيد أحبتني كارولينا وعاندت عائلتها لنتزوج، كانت حينها أميرة أنيقة رقيقة جميلة، وقعت في غرامي بتواضع مذهل، واندفاع أحمق، وظننت أنها جنتي، مات والدها الكونت دي كارمو الذي كانوا يعظمون شأنه ويمنحونه مجاناً لقب دوق، لم يحتمل قلبه انقلاب الدنيا عليه، فمات وهم يلغون طبقة النبلاء، فتكفلت أنا بإدراة المال الذي تناقص بصورة مريعة والمزارعون والخدم يتسربون من الاقطاعية الكبيرة إلى المدارس ودنيا العمل والتجارة، تاريخ ثقيل ساواني بمن كانوا أسيادي، ومسح الرقة التي كانت تسبغ وجه زوجتي، توحشت كارولينا مثل نمرة جريحة حانقة، في أعماقها تظن أن الظلم الذي حاق بنبالتها ومكانتها الرفيعة بدأ عندما عميت واختارتني زوجاً؛ أدنى منها مكانة. تاريخ يثير الأسى.

حاولت الخلاص من أساي الشخصي بترميم علاقتي عبر شقيقها الطفل سانشو، حتى هذا راح يكبر ويبتعد ويزداد شبهاً بأبيه كلما طال سنتميتراً إضافياً، كما تزداد شقيقته جفوة ويموت الحب بيننا بلا

هوادة، لا ألومها، لقد صفعها الواقع كما صفع طبقتها بالكامل، نجا سانشو وغالب واقعه ببراعة ليصبح محامياً يقطن الكانترا، حي يناسب أرومته ومزاجه ويليق به.

تساقط المطر طوال فترة بعد الظهر، وظلت رفمة تحدق بالمياه التي تضرب نافذة مطبخ بيت سانشو مذهولة صامتة، ألمحها من الباب المفتوح كلما تحركت الخادمة البدينة التي تدير المطبخ وتعد اللحم والسمك.

نفس الدهشة التي أصابتها على ظهر السفينة فحولتها إلى مخلوق ذاهل هبط لتوه من الفضاء، ربما عليّ أن أنسخ من ذاكرتي ما حدث في الجزائر، فما معنى تلك الأيام التي سولت لي نفسي أن أستشعر حرارتها؟ لقد توحدت مع مخلوق حر مفعم بالحياة، وظننت مرات كثيرة وأنا أضع رأسي بين نهديها أني عرفت نفسي، وهذا الكون لا يعنيني، كانت خلاصي لثوان عابرة، سرعان ما أفقت من تلك النشوة لأضبط ميزان حياتي كما ينبغي، عدت إلى قواعدي، كما يجب ويليق. وفي غمرة تجاهلي لها وتقديري أنها مجرد محاولة لترميم علاقتي بزوجتي، مجرد أمة سوداء، كنت أختنق، أحس بالهول وبأنني أسود!

يثرثر سانشو في الصالة، وأنا أتذكر وأحاول التنفس.

ليس حواراً متكافئاً، بدأه أن عاب علي تسمية عبدتي باسم رفمة، مشيراً أن الفلاحين وغير المتعلمين يلفظونه على هذا النحو، والأجدر

أن أناديها رهمة كما يفعل المتعلمون، اجتاحتني المرارة والفتى منغمس في شرب الجينجينا الذي تفوح منه رائحة الكرز والكحول، غير مسار حديثه مستريباً من صفقات الحرب بين البرتغال والحلفاء، قلت له إننا هتفنا حين اقتربت السفينة من شواطئ البرتغال، هتفنا جذلين لأننا حققنا حياداً وأمناً لم تتنعم به أوروبا كلها.

رمقني بنظرته الجانبية المستخفة التي أكرهها، كأنه يقول: إننا، «إني» لا أفهم في السياسة رغم خبرتي كتاجر، فما أنا إلا ابن آمر المزرعة البسيط.

يرى سانشو في رئيس الوزراء سالازار رجلاً خبيثاً ذكياً في آن معاً، فقد امتص مخاوف الناس واحتمال الانفجار الشعبي الذي كان قائماً مع تردي الأحوال الاقتصادية، وداعب شعبه المسكين بخيارات الأمن والحياد، لكنه في ذات الوقت لم يخسر الاصطفافات التي تضعه على خريطة أوروبا، وحول جزر الآزور الفاتنة إلى قواعد بحرية وجوية للحلفاء، يجوب عملاؤهم البلاد بحرية، يخططون ويتدبرون ويهربون السلاح ويحيكون المؤامرات العالمية بعيداً عن أعين الشعب.

لا أدري إذا كان الفتى متعاطفاً مع هتلر أم أنه يحتج على ما تمر به بلاده فحسب، وهل يفضل أن تطالنا مدافع المتحاربين وقذائفهم عن القيام بهذا الدور الوسطي الجميل! أليست هذه سوقاً مفتوحاً للتجار

أمثالي وللمحامين أمثاله؟ أسمعه ولا أناقشه، بات رجلاً مثقفاً قادراً على تكوين وجهات نظره، قادر على الادعاء بأنه معارض شرس للحكومة، ولا أستبعد أن يستدعيه سالازار ليكون وزيراً في يوم ما، ربما عندما يلون الشيب سالفيه تلويناً رصيناً لا يستبعد الشباب، فهؤلاء الأنيقون ناعمو الأكف سواء عارضوا أو انصاعوا للنظام سيحظون بحصتهم على موائدهم. أتفحص بصمت الثقة والخيلاء اللذين خلفهما أصله النبيل على ملامح وجهه. حتى لو صدرت مئات المراسيم في إلغاء طبقة النبلاء، فإنهم لا يتخلون عن مكتسباتهم، سيتصرفون بتلك العنجهية دائماً، ولا أستغرب تحالفهم مع الرجل الذي ألغى طبقتهم؛ فقد شابهم والتقى بهم في منتصف طريق المصالح، ذلك أن الأرستقراطيين لا يتواءمون مع نظام ديمقراطي، وسالازار يقدم كافة الضمانات على دكتاتوريته فيلقى رضاهم وتأييدهم. الحياة ظالمة لا ترضى بتغيير المواقع بسهولة، ها أنا أدخن غليوني وأرتدي كما يرتدي النبلاء، وأنا من استرجعت ما ضاع من أملاك عائلة زوجتي بكدي وجهدي، حتى بت أكثر الرجال ثراءً في بلدتنا فاتيما، مع ذلك؛ ما زلت أتعثر بابن المشرف الذي يختبئ تحت جلدي المنعم، لقد وقفت زمناً طويلاً إلى جانب والدي أسمع بانكسار وخجل شتائم الكونت تنهال على رأسه. لفترة قصيرة، محت كلمات الحب التي منحتني إياها ابنة النبلاء تلك الحقبة، ولكنها

عادت قوية مريرة بعد أن تحولت كارولينا إلى امرأة كريهة، أحبها وأبغضها، أتقن قراءة الندم في عينيها، والاحتقار في حركاتها وسكناتها، حتى بعد ولادة صغيرتنا أوريانا خيل إلي أنها كرهت ما فعلته الطفلة بخاصرتها النحيلة وبطنها المشدودة، عدا عن ربطها إلى الأبد باسمي الوضيع، لعلها خططت للانفكاك عني رغم عهود الكنيسة الثقيلة، لكن مجيء الطفلة عطل خططها، أحاول جاهداً غفران تلك الكراهية المقيتة، حاولت عبر رعايتي لشقيقها سانشو كما لو كان ولدي لكنها كما اختطفت ابنتها من أحضاني فعلت بشقيقها، كبر الفتى ولم يسمح لي بلعب الدور الذي أردت، تحول إلى شخصية مرموقة في فترة وجيزة، وأستطاع رغم الأزمة التي تعصف بالبلاد أن يكون ثروة صغيرة من صفقات غامضة، وأن يقطن بيتاً يليق بكونه نبيلاً عتيقاً. لا أحسده بعد أن فقته ثراءً، ولكن أمعائي تتلوى وتؤلمني وأنا أشهد نجاحه.

يتصرف سانشو بأريحية مصطنعة، يرمي معطفه على كتفي رفمة، رفمتي. تنقبض أمعائي حين ألمح نظرة امتنان عابرة في عينيها، نظرة تشبه الوميض الذي كانت تغمرني به وأنا أجلب لها البلح العسلي في الجزائر. يدعي أنه يقيها البرد، ثم يتركها تغادر برفقة خادمته إلى ميدان كيدو لابتياع ثياب تناسب برد البرتغال القارس في هذا الموسم. يجول بي في سيارته الشيفروليه الفاخرة، مواصلاً ثرثرته السقيمة حول

الحرب التي تدار بحنكة، نجلس في مقهى برازيليرا، ويفتخر بأن شاعر البرتغال العظيم بيسوا(*) كان يجلس فيه قبل أعوام، «محاولة صغيرة لادعاء الثقافة»، نحتسي الفينو الأبيض البارد، ونتناول سمكة المورة(*) الممدة جثة على صحن متسع وسط المائدة، ونستمع إلى عزف الفادو(*) الحزين وقد وقف فتى أسمر بغيتاره قرب طاولتنا، سانشو يظن أن موسيقى الفادو بقايا العرب الأفارقة، فيها بعض غربتهم، وينتشي وهو يدندن، بينما أتحرق لانتهاء تلك الاستضافة الثقيلة، وأفكر بركوب القطار صباحاً إلى فاتيما. فضح وجهي مللي وتلك المسافة التي تفصلني عن محدثي والمرارة التي تعتريني، وإلا لماذا ينظر إليّ فجأة تلك النظرة التي تخترق ثيابي الفاخرة إلى روحي المهترئة، ويفاجئني بعبارة يدعي أن الشاعر بيسوا قائلها:

- إذا كنت لا تستطيع أن تحبني حباً حقيقياً، تظاهر بالحب، لكن أحسن التظاهر كي لا أكتشفه.

(*) بيسوا: شاعر برتغالي.

(*) سمكة المورة: سمك الغادي أو الباكالا.

(*) الفادو: موسيقى مشهورة في البرتغال واسمها يعني القدر.

فاتيما

خمدت الروح في لسبون، بعد أن لوعتها إحاطة الماء لشهور طويلة، بعث موج البحر وصخبه في أعماقي خوفاً من ألا أصل أبداً إلى أرض تحتضن جسدي حتى أموت، رأيت جثثاً تُخرج من القبو وترمى في الفضاء لتهبط في خبطة قوية إلى سطح البحر فقعره كشهب ضلت سبيلها، وتعاود الظهور متناثرة تنهشها الأسماك الضخمة التي تبحر حولنا، شممت ملحاً وخشباً رطباً وعفناً كثيراً، وتعرق جسدي حتى أنتن. تدبرت أمري على ظهر السفينة رغم الصور المرعبة والغثيان والرعب لأصبح كائناً مرناً صامداً في وجه الزوبعة، وأخيراً وصلت إلى أرض.

وطأت قدماي اليابسة، وبات سيدي طيفاً ضعيفاً، لم تعد هالته تتوهج، خبت ليصير إنساناً ضعيفاً بلا أرواح تحرسه. تتعقبني نظراته، وترتبك حركاته كلما ناداني قريبه سانشو:

- رهمة.

كم أتغير: أنا، رحمة، رفمة، رهمة، وأنا من أنا، أتلون في الألسنة لكن قلبي أسود حار لا يتلون.

الرجال مثل وحوش الغابة، لا تحتمل المنافسة ذكرين، ولكني لا

أرغب في أن أكون تلك الأنثى، استعدت إحساسي بالتفوق عليه والانتصار على النفس وظللت وفية لبرودي وإعراضي عنه، لقد وقع الضرر وما عاد شيء ينقذني، أسمي الأشياء بأسمائها: أنا عبدة الرجل. لا يجب أن أكون محظيته، نلعب لعبة السيد والعبد ببراعة، أحافظ على صلابتي مقابل عينيه وقد دب فيهما الوله فجأة، عندها أصير السيد.

في تقديري أنه مع غياب العيون الكثيرة التي كشفته على ظهر السفينة سمح لنفسه باستعادة شغفها بالأنثى الأفريقية، ولكني لست مجرد تلك الأنثى، أشعر بإنسانيتي وبقدرتي على تفادي هذا الدور المحدود الذي يريدني له.

جلبت لي خادمة سانشو ثياباً كثيرة ومعطفاً ثقيلاً وحذاء جلدياً ذو رقبة تصل حتى ركبتيّ، قصت شعري الملبد، وغسلت جسدي في طشت عميق، وعلمتني كيف أرتدي الثياب، أعانتني الثياب الصوفية على احتمال برد لسبون، كما ارتديت قبعة تغطي رأسي وتمتد كمظلة تمنع ماء المطر من الوصول إلي، في الماضي كان الركض تحت المطر في الهواء الدافىء اللزج من أحب هواياتي، لكن البرد القارس لن يسمح بهذه المتعة القديمة. ارتديت معطفاً صوفياً فوق ثوب مضحك منتفخ التنورة مزركش، ودسست أسفل جسدي في سروال، أتبعته بجزمة

جلدية طويلة تصل حتى ركبتي، تدفأت دمائي ودبت الحرارة في لحمي. ما أثقل ما يرتدون، سأسير عمري كله أرفع هذه الأثقال فوق كاهلي! ما أمتع الجري عارية تحت ضوء القمر في مكان بعيد، في زمان بعيد، حيث الحياة خفيفة بهيجة.

لسبون نقلة سريعة رممت جراحي المفتوحة، ومهدت لي لفهم المكان الذي سأنتهي إليه.

نفث التمساح المعدني دخاناً متفحماً تاركاً المدينة السحرية خلفنا، قرقع بأصوات عالية واهتز بدنه الذي ابتلعنا. سأعرف فيما بعد أن هذه راكوبة طويلة تتلاصق فيها العربات، يسمونها القطار.

شق القطار الطريق أمامه مهاجماً الفضاء، مخلفاً جسد الرجل الفارع سانشو يلوح لنا على رصيف المحطة، متجاوزاً نهر تاجو الواسع الذي يهرب مسرعاً في الاتجاه العكسي، وركضت البيوت البيضاء بطوابقها المتعددة وشرفاتها وأسقفها القرميدية الحمراء مبتعدة، تلحق بها البيوت الوطيئة بمداخنها الملونة المزخرفة، اختفت المدينة رويداً رويداً وفتحت السهول الخضر صدرها حولنا.

تمرق أشجار الزيتون مسرعة، وأشيح بوجهي كي لا أنظره وهو يعاينني بنظرات قلقة، ثم أغفو، تختفي الأشياء ويظل صدى الحركة التي يمخر بها القطار ورائحة الأدخنة المنبعثة منه تمتزجان بأحلامي،

لا أتذكر بما حلمت، بخلت عليّ كائناتي الخفية بالتذكر، صحوت مثقلة بالفراغ.

هي ساعات أم أعوام؟ يصعب التحديد ولا أجرؤ على السؤال، ولا أبتغي بدء حديث بيني وبينه، ارتحلنا غريبين كما يجدر بنا، فلتطل رحلتنا إلى القرية البعيدة أو لتقصر، سيان، ليس لدي ما تركته ورائي ولا ما أنتظره أمامي، يفقد الوقت قيمته، لقد سقطت من شاهق في بداية اختطافي، وباتت الأمور كأنها تحدث لامرأة سواي.

وصلنا فاتيما، بدا اسم المكان أليفاً كأنه اسم جدتي، لم تدعى جدتي اللمون يوماً بهذا الاسم، ولكنه بدا مناسباً لها. في البلدة الريفية تراجع ضجيج البشر وانتشرت في الفضاء روائح عسلية، كانت هناك أشجار كثيرة بزهر أبيض ستنقلب ثماراً حين تشتد حرارة الشمس.

أقلتنا العربة ذات العجلات الأربعة من محطة القطار، اخترقت بنا مزارع على طريق واسع ولكنه يضيق في البعيد، وكلما تجاوزنا منه مسافة أفسح لنا جنباته وراحت بداياته التي خلفناها وراءنا تضيق، شغلت نفسي بالنظر أمامي ثم بالالتفات خلفي، علي أعرف الواسع من الضيق، أدركت أن عيني هي التي تعبث بالمسافات والأحجام، تقدمنا من مبنى أبيض له برج عال ينتهي بهرم مزين بخطين متقاطعين، رأيت هذا رسماً على صدور النساء في السفينة، عمود أفقي قصير

يقطع عموداً عامودياً أطول. ثبت الشكل على واجهة البرج العالي كبيراً واضحاً، وتكرر في حجم أصغر أعلى الهرم، نوافذ المبنى ملونة مزدانة بالصور في حين أن أشكالاً بشرية نحتت في الصخر في سور يزنر المبنى الأنيق، ثم في أعلى زاوية من زواياه تقف امرأة بيضاء يفوق حجمها حجم النساء بأربعة أضعاف، تقف منتصبة وقد ضمت كفيها إلى صدرها، ظننت لوهلة أنها تخاطبني، تطمئنني، لولا شكي بأن هذا مجرد تمثال يعلو المكان، فيما بعد أيضاً عرفت أن هذا المبنى هو الكنيسة، وتلك مريم أم يسوع تحرسها، خلفناها وراءنا وأنا أتلفت بفضول، ومضينا.

سأتعلم فيما تبقى لي من العمر أشياء كثيرة، سأصير بيضاء باردة حكيمة بجدارة، لكني لن أنسى أبداً الصدمة التي أصابتني ونحن نجتاز سياج مزرعة السيد ويحف بنا بعض الخيل ويجري فتيان سود يزفون خبر الوصول، بت أنتبه إلى من هو أسود ومن هو أبيض، لن أنسى والعربة تتوقف مقابل بوابة البيت الخشبية العريضة، في وهج المشهد غابت الروائح ورأيت السيدة كارولينا تقف معوجة مستندة بكتفها الأيمن إلى باب خشبي ضخم موارب يخفي ما في الداخل، وبالكاد ينفتح على الخارج، تضع كفاً في خصرها النحيل، وتتحسس بقلق بكفها الطليقة جيدها الطويل العاجي، شعرها أجعد قصير بحمرة

طفيفة، بالكاد يلامس كتفيها العريضين لكنه لامع جداً، ترتدي ثوباً أقل بهرجة من ثياب النسوة فوق السفينة، مربعات خضراء صغيرة، يلتصق بصدرها الضامر، ويتخذ حجم خاصرتها وقد شد بحزام جلدي بني رفيع، تحت الخصر ينفرد ثوبها متسعاً بعض الشيء، ثم ينسدل حتى ركبتيها وتحته تتقاطع ربلتا قدميها النحيلتين لتنتهيا إلى حذاء ضيق أصفر اللون، نفس لون الحذاء كان لون المنديل المعقود في أعلى صدرها كأنه زهرة مربوطة إلى ثوبها، بنظرة واحدة تبينت تفاصيل سيدتي، وجسدها الطويل النحيل الذي لا يتناسب مع كتفيها العريضين، لكني علمت قبل أن تلتقي نظراتنا، أني عبدتها وهي سيدتي. لم تهرع كالنسوة إلى لقاء زوجها الذي تقدم منها باهتاً كأنه يعتذر عن غيبته، وأطال وهو يشرح عني، مشطتني بنظرة فاحصة سريعة متعالية، ثم نادت بعصبية وبصوت مخرش:

- آوا!!!.

نقل الخدم الحقائب إلى داخل البيت وتبعها زوجها وقد ارتخى رأسه قليلاً، بعد أن أشار علي بالانتظار في مكاني، مذهل كيف ينتقل من انحناءة رأسه وهي تحدثه فيرفعه بغتة ليأمرني! لحظة خاطفة تثبت كأنها دهر، إلى أن ظهرت آوا واقتادتني إلى حمامي الذي أمرت به السيدة، في نظرة سريعة مرق طيف طفلة مسربلة بثوب أبيض طويل

وقد ربطت شعرها في جديلتين، كانت تقف وراء ربة البيت تنتظر والدها دون شغف ولا حماسة.

لا أعرف لماذا تقرر النسوة البيض غسل جسدي بمجرد اللقاء بي! في حجرة رطبة عطنة بعيدة عن البيت وملاصقة لحجرات الخدم وبناءً على أوامر السيدة، أهدرت آوا ماءً وفيراً دافئاً فوق رأسي وفي كل ثنايا جسدي، حكت جلدي بليفتها الخشنة فبقبقت رغوة وفاح عطر عشبي رقيق. رغم شعوري براحة جسدي المرهق، إلا أني لم أتمكن من نسيان نظرات الازدراء في عينيّ كارولينا، شعرت أن الحمام الكريم كان وسيلتها لتخليصي من نفسي وجعلي امرأة تناسبها، تليق بدخول بيتها وخدمتها، كسرتني بحمام دافئ عطر.

روحي قوية تنبض في مكانها كما لو كانت قلب حصان بري، منتبهة إلى تفاصيل الحياة الهينة العابرة وتلك الجارفة الجبارة، روحي تحلق في جسد مكسور، كرهت كارولينا، المرأة النحيلة الحمراء التي انثنت بجسدها الطويل وثوبها المنمق عند الباب، وأحببت آوا السوداء التي تشبه رجلاً كهلاً. روحي تحب وتكره، هي الروح الحية المحلقة التي أملك، حرة طليقة داخل جسدي المقهور، أما خارجه فقد خضعت بذل ومهانة لليفة آوا تحك جسدي وتغيرني.

بت أفهم كل ما يقال، وإن ظللت قليلة الكلام، لا أنطق إلا بالكلمات

التي أعتقد أنهم سيفهمونها، وغالباً ما تكون كلماتي إجابة ورداً موجزاً محايداً بلا ظلال ولا ألوان على أسئلة لهم، أسئلتهم فضولية أحياناً، وتحمل صيغة الأمر والنهي أحياناً أخرى، هكذا بدأت حياة العبودية في مزرعة بعيدة في آخر أقاصي الأرض في قرية برتغالية تدعى فاتيما.

تثرثر آوا العجوز دون توقف في غياب السيدة، تشرح لي نظام البيت الكبير الذي يرتكز على تقديم خدمات متواصلة للسيد والسيدة، كما تشرح نظام الحقل وجني العنب وعصره وتعبئته في البراميل، وتضيف معلومات موجزة عن حظيرة الأغنام والزريبة البعيدة التي تكتظ بالخنازير وردية اللون، وتتذاكى متأكدة أن سيدي جلبني لأحتل مكانها إذا ماتت أو تعطلت، وهي ستفعل؛ فقد طعنت وما عاد يجدي تظاهرها بالهمة والنشاط، تضحك آوا وهي تؤكد أن الأمر لا يزعجها فعاجلاً أو أجلاً ستخلفها سوداء أخرى فتية.

جاءت آوا الخادمة حليقة الرأس طفلة نحيلة إلى مزرعة والد كارولينا الإقطاعي الأقسى في القرية، انتزعها من بين ثلاثة أخوة وأمهم وصلوا معها على ظهر سفينة أبحرت من جزيرة غوري في السنغال، فقدت أسرتها تماماً، لم يبق لها منهم إلا سواد جلدها واسمها السنغالي المجيد آوا وستين عاماً تنوء بها عظامها انتقلت فيها من خدمة الكونت دي كارمو إلى خدمة صهره سارماغو.

شككت بكل الذكريات التي سردتها خاصة تلك المتعلقة بطفولتها، والدها السلطان، والذهب الذي قلدتها إياه أمها، والخدم البيض! كنت أسمعها بصبر، ولا أتحدث كثيراً، أتبادل ابتسامات الصبر والشك مع ابن آوا الشاب فيردي وهو يمر حاملاً أدواته الثقيلة، المجرفة حيناً والشاعوب أو المنجل حيناً آخر، يمر متجاوزاً حكايات أمه.

لا أتذكر حكاياتي، نسيت، وإن قفز كامونقه إلى ذهني مرات وأنا أتمسك بالكائنات القوية الذكية داخلي، طلباً لأحلامها السعيدة التي تنبعث في مخيلتي عند النوم، لم تعد لي ذكريات أسردها مقابل ذكريات آوا، أسمع ولا أعلق رغم أني أبديت اهتماماً مرة واحدة حين رفعت كفيها إلى أذنيها المفرطحتين ومطت صوتها لتنشد:

- الله أكبر.. لا إله إلا هو.. محمد رسول الله...

ولأني ابتهجت؛ قدرت أني مسلمة، واحتضنتني فرحانة ففزعت وارتد ظهري إلى الخلف، لم أكن قادرة على تحديد هويتي في تلك اللحظة، ولا أريد أكثر مما يسكنني من روح قوية قادرة على مقارعة الحياة، أنبت نفسي على التجاوب الرخو، فأن أنكسر للمسة أو لشدو الآذان أو ثرثرة العجوز وودها يعني أني أفرط في صمودي. لأكن صخرة.

***

تقدم كشبح هزيل جائع، لا يمكن للثياب الأنيقة أن تخفي عني الرجل الجديد الذي وصل إلى بابي، حتى حين راح الخدم يتصايحون:

- السيد سارماغو، وصل السيد.

راقبت غبار العربة التي تقله، ونزوله من بابها بكامل أناقته، ربما أكثر نحولاً مما عهدته، خلفه طيف أسود مثقل بالصوف، يفوح برائحته، كما حفنة قمح عطنة، لا يخطىء حدسي حين أشتم رائحة زوجي في جسد غريب.

تدافع الخدم ينزلون متاعه ومشى هو باتجاهي، يا الله! أحقاً هذا سارماغو الفتى الجريء الجميل الذي كان يمطر نافذتي بأزرار الورد فأصحو خائفة متقطعة الأنفاس، أومئ له بأن يكف خوفاً من استيقاظ أبي، أهو الذي كنت أصيح بآوا وأدفعها في صدرها من أجل أن تفتح البوابة وتتركني أخرج خلسة للقائه تحت ضوء القمر؟ لا يشبهه بشيء. الفتى الإسباني الأسمر الذي قض مضجعي مفتول الجسد، في عينيه ضحكة صفيقة، هكذا وصفها أبي، ولكنها ضحكة استطاعت اصطيادي.

قفز حصاني في الحقل هائجاً، فطار جسدي النحيل من السرج وهويت بين ذراعيه القويتين، أنقذني سارماغو ابن آمر المزرعة. تم استدعاؤه يومها ليدخل القصر النبيل ويتلقى الشكر والمكافأة، اجتاز بوابة

المهوجني الضخمة وداس بحذائه المطاطي المترب على السجاد الفاخر وجلس فوق الأريكة المصنوعة من خشب الجوز المرصع بالعاج، اتكأ على حشيتها المخملية بثيابه المعفرة وكوعه الخشن المسود، لم يشعر بالحرج وهو ينثر آثار الحقل والأرض فوق رياشنا النظيفة ولا ارتبك وهو يلتهمني بعينيه الضاحكتين. سقطت عن ظهر حصاني إلى شبكته الملعونة، لن أسامح نفسي على تلك السقطة التي ذهبت إليها بقدميّ وكل جوارحي دون أدنى تردد.

هذا الأنيق القادم نحوي، في عينيه وجل، كأنه يخفي خطيئة فعلها. لا يشبه الرجل الذي فتنني، كما لا يشبه الثائر الذي كان، هو الآن كما هو، ابن آمر المزرعة، تاجر استطاع أن يستعيد لصالحه جزءاً من ثروة أبي التي صادرها أصحابه الذين كانوا ثواراً، وهو كما هم، واحد من رجال الحكومة التي أسقطت الملكية وقتلت أبي بحسرته.

كنت كارولينا الصبية المنعمة الناعمة المفعمة بالحياة، أثيرة أبي الكونت دي كارمو، يدعوني بصغيرته النبيلة الكاملة الجميلة، ولأن أمي بيلار ارتحلت مبكراً وهي تلد سانشو الصغير، فقد تركني أبي أحتل مساحتها في البيت وفي حياته، رغم أني كنت أضحك كثيراً وأستمتع بالمقالب المحرجة التي أنصبها للزوار، «بيتنا كان عامراً بهم دائماً» قبل أن يطاح بالملكية وتصير البلاد جمهورية، كان زوارنا

يضحكون من حيلي المزعجة ويتقبلون سخافاتي، كما يتقبل أبي علاقتي الوطيدة مع مربيتي السوداء آوا، التي كانت تعد متطلبات الحفلات الصاخبة التي تعيث الفوضى في البيت والحديقة، ثم تتركني أتفاخر بأني أنا من رتب وأعد للاحتفال، هكذا يشعر أبي بالثقة، ويغالي في اعتماده علي، كما ينفتح صندوق أسراره مساءً بعد أن يحتسي الكثير من الخمر، وينصرف ضيوفه، ينسى أني مجرد صبية حمقاء، يحدثني كما لو كنت امرأة ناضجة، يكشف لي دناءات الضيوف المبجلين واحداً واحداً ويعري الوجوه الضاحكة المجاملة، نسخر منهم معاً، رغم ذلك، نسي أن يصحح لي فكرتي في أن النذالة ممكنة في كل البشر، اعتقدت حينها أنها من صفات الطبقة البراقة المنافقة التي أنتمي إليها، فتعاطفت مع المسحوقين الذين يحيطون بي كما لو كانوا كل عالمي، تآمرت معهم على أبي، تجرأت على ثقته وسقطت بين ذراعي ابن آمر المزرعة، تولهت بنظراته الصفيقة، وظننت أنه بابتسامة واحدة قادر على جعل الحياة جنة، لم أعتقد قط أنه يملك ذات الشرور التي يتحلى بها ضيوفنا المبجلون، راهنت على أنه مخلوق ساحر وسحري وقع على بلدتنا ذات معجزة، ولم أعد أسمع كلمات أبي ولا يعنيني غضبه، كما لم يعد قادراً على حبسي وهو منشغل بالكارثة القادمة.

ثار الناس في كل أرجاء البلاد، وعلت أصواتهم وغيروا مصيرهم بأنفسهم جاعلين ملحقات الملكية من النبالة والطبقية في مهب الريح، لم أعرف حينها أهمية هذا الأمر في حياتي، كنت عاشقة أتمرغ في وحل ممتع، أحلق مع محبوبي الذي بالكاد يفقه كلماتي الأرستقراطية الرفيعة، هربنا معاً إلى لسبون، وتظاهرت آوا حينها بأنها فوجئت، كنت غرة لا أعي حتى انتفخ بطني بابنتي، ولدت ابنتي أوريانا في لسبون، ببقية من أمل ظننت أن العالم لي، رأيت في ابنتي اشراقة حياة جديدة، لكني سرعان ما بدأت أفتح عيني على تفاصيل كريهة، ليست هذه هي الحياة التي أستحقها وتليق بي.

انقلبت الأحوال تماماً في مزرعتنا «ديدو» بعد طرد خوسيه آمر المزرعة عقاباً على خيانة ابنه، كما انقلبت الأحوال في البرتغال كله، لتقع البلاد في أزمات اقتصادية متتالية، في لسبون تمكن سارماغو من تدبير أمورنا باتصالاته بالثوار الجدد، كانوا في معظمهم يشبهونه، فلاحين جلف يتحدثون صياحاً ويقهقهون إذا ضحكوا، ويتطاير الرذاذ من أفواههم وهم يتفاخرون ويتوعدون من كانوا أسياداً، واثقين من أنفسهم كأن نساء البلاد كلهن سقطن بين أذرعهم. زرعوا عالمي بالضجر والاشمئزاز، وكشفوا لي هيئة الرجل الذي كان حبيبي.

عدنا إلى المزرعة أنا وزوجي سارماغو لنجد أبي مريضاً يهذي بأن

كل شيء سيتغير بعودة الملك مانويل الثاني إلى كرسي العرش مجدداً كما عادت ابنته الأثيرة.

عدت حين خبرتني آوا بالحالة الصحية الحرجة لشقيقي سانشو، ولأن الأوضاع الأمنية في لسبون لم تعد تحتمل، كذلك أوضاعي المعيشية، مرت بعض الليالي التي شعرت فيها بالجوع كما لو كنت خادمة، سقطت من شاهق حين تبدد ولهي بالفتى الذي لا يجيد ربط شريط حذائه ويصدر أصواتاً تستفزني حين يمضغ طعامه، علمت حينها أني فقدت أمني وأن بوصلتي خدعتني تماماً، لكني حافظت على كبريائي، تحججت بأن عودتي إلى بيت أبي كانت من أجل أخي الصغير الذي لم أتمكن من التخلي عنه، سألعب دوري بمهارة كما لو أني أمه.

صفح أبي عني، واستقبل أوريانا الرضيعة بفرح، هو نبيل حقيقي على أية حال، لكنه انتكس تماماً بعد ذلك وهو يسمع أخبار الانقلاب الذي قاده الجنرال كارمونا. كنا في نهاية الشهر الخامس من عام 1926 حين اعتلى الجنرال دبابته وصدر البلاد، وجاء بأنطونيو سالازار وزيراً للمالية، لم يحتمل أبي هذا التغير الانقلابي في الحياة، فالثوار الذين صاروا حكاماً صادروا أملاكه، لم تعد مزرعة ديدو ممتدة كإصبع طويل داخل السهول، باتت مجرد بقعة صغيرة، وبتنا فيها

نتساوى مع فلاحي البلدة الفقيرة فاتيما.

رحل الكونت دي كارمو في صبيحة باردة مصاباً بذبحة قلبية، لم أتصور أن الأصدقاء الذين كان يشوي لهم الخنازير والخراف ويريق لهم الخمور المعتقة سينكصون عن حضور جُنازه، أقمنا الجناز المتواضع في الكنيسة بحضور بعض فلاحي المزرعة، بينما وقف العبيد الذين أدمى ظهورهم بسياطه بعيداً يرقبون، يتأكدون.

لم أسيطر على رجفة فكي، وقد هرب لوني والقس يقرأ تأبين أبي في كلمات تناجي الرب ولكنها تلقى بظلال مقيتة على ما حدث لنا: استرد الرب وديعته، ودفن جسد الكونت بسلام.

ثم في انزياح مفاجئ ينشد خاشعاً مترنماً كأنه فرحان: «عرياناً خرجت من بطن أمي، وعرياناً أعود إلى هناك، الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركاً». آية(أي1 : 21)

احتضنت الراهبة الشابة لوشيا كفي المرتعشتين بكفيها؛ تعينني على احتمال ألمي، مفترضة أن لمستها المقدسة تخلصني من غضبي وقهري وحقدي الذي بدأ ينمو وأرعاه كطفل أعتذر له كل يوم عن حماقاتي، لن تصنع لوشيا لحزني معجزة رغم أن زمناً قصيراً مضى منذ وقعت لها معجزة تجلي السيدة العذراء، استعصت حالتي على تسامحها وبركاتها، بت أكثر صرامة وقسوة، ووجعاً، ولسبب غامض

شعرت يومها أني أكره سارماغو الواقف وقد أرخى رأسه فبدا حزيناً بصورة هزلية، لو لم يظهر في حياتي ولم أسقط بين ذراعيه لكان أبي الآن حياً، ولربما لم تفقد البرتغال ملوكها، غرقت في تأنيب نفسي وإدانة أفعالي الحمقاء، كأن ناراً تشتعل في كبدي.

يظن زوجي الفلاح الذي تحول بعصا الثورة إلى تاجر فأرستقراطي مزور أن بامكانه السخرية من جزء أصيل في حياتي الماضية، كأن يلوم أصدقاء أبي الذين تخلفوا عن جنازه، ظن في غفلة أنه ولمجرد ارتدائه مثل ما يرتدون وتأبطي ذراعه بين الناس أن الحواجز تتلاشى بسهولة، بل بوقاحة، لكنني لم أسمح بذلك، واضحة تماماً فيما يخص الأصدقاء الخونة، لا أسمح لأحد بالمس بهم رغم جفائهم وانصرافهم عنا، فذلك احتقار خفي لتاريخ الكونت دي كارمو. كما لن أترك الحبل على غاربه لعبيد المزرعة لمجرد أن آوا البدينة تولت العناية بي وشقيقي بعد رحيل أمي، وتآمرت معي حين فررت للقاء الرجل الذي أحببت.

أضع الأشياء في مكانها تماماً، ولا أتردد باستخدام السوط إذا لزم الأمر، لقد أرسل زوجي لوالده خوسيه ليعود إلى المزرعة، عجوزاً متهالكاً، لا مهام له ولا سلطة على الاسطبلات والزرائب ومزرعة العنب والحديقة، يقبع في كوخه القديم بعيداً عنا، كما عادت شقيقته

الخبيثة نيتا لتمريض والدها، ولكنها لم تغادر عندما مات، قطنت وأمها الشمطاء في المنزل الحجري المجاور، وتوسعتا في المكان، تمارضتُ عندما مات خوسيه فلم أذهب إلى الكنيسة، لا يجدر بي التصرف ككنة لآمر المزرعة، قالوا لي إن فلاحي فاتيما حضروا جميعاً، واحتضنت الراهبة لوشيا كفيّ نيتا مواسية كما احتضنت كفيّ حين مات الكونت دي كارمو. لن أغفر للجميع هذا النفاق، ولن أسمح لسارماغو باذلالي كون الحياة أذلتني، لن يفسد ذوق ابنتي، ولن يدعو الأثرياء الجدد رغم أنهم أعانوه لاستعادة بعض الأملاك وجعلوا إصبع «ديدو» ينتفخ ويمتد لتصير مزرعة معقولة في فترة وجيزة، مع ذلك، لن تتجول نيتا وأمها في بيتي، ولن يدخل قصرنا الحمقى وأنصاف النبلاء، وأثرياء الحرب ورجال الثورة الذين سرعان ما ارتفعت كروشهم وتساقطت شعورهم، وباتوا يدخنون السيجار البرازيلي الفاخر بشراهة ويكرعون نبيد ديردوا بسوقية كما لو أنه خمر رديئة.

لم نعد نقيم الاحتفالات في قصرنا الفاخر ومزرعتنا الممتدة، صدئت أواني الفضة، وتهدلت أطراف المفارش المنشاة، وانبعجت وسائد الأرائك المخملية، بهتت صورة الكونت وبيلار التي رسمها فنان إسباني لهما في مقتبل شبابهما، ولم تعد الخادمة البدينة قادرة على

التسلق لمسح الأغبرة عن بروازها المزخرف العريض، واصفرت الحشائش في ممرات الحديقة التي كانت زاخرة بالأزهار، صارت الحياة كئيبة مثلي.

استثني سانشو من كل هذا القتام، كبر أخي طفلاً ذكياً خالياً من الأفكار المقيتة، لم يشعر بأن المزرعة شاخت والبيت طعن وبليت مقتنياته. ظل أخي مقبلاً على الحياة كما لو لم يتغير شيء، يعيث الفوضى في أرجاء المكان، ويصنع لنا برنامجاً يومياً في ملاحقته وتوجيهه والاهتمام بشؤونه، قادر على اقتناص محبة من حوله، حتى وهو موضوع نزاع بيني وبين زوجي، خفف عني وجود أخي تلك المسافة الخفية بيني وبين ابنتي، كانت باردة هادئة بالكاد نشعر بها، لم أسع بعدها إلى الانجاب، بل حرصت على بقاء جسدي لي، بت أرى في عيون الخدم والعبيد إشفاقاً على المرأة العاقر التي أصبحتها، لا يهمني، ابنة واحدة تكفي، هي وشقيقي يعدلان ميزان أمومتي التي لا تطفو على السطح، ومن جانبي صنعت بين زوجي وابنتي مسافة معقولة تقيها من الابتذال الذي يلون طبقته، وباعدت بينه وبين أخي، كي لا يظن زوجي لوهلة أن له حقاً في سليل الكونت، كلما حاول تقريبه نجحت في فصلهما، ألم أقل إني أجيد وضع الأشياء في أماكنها الصحيحة؟

كبر سانشو متوازناً، لكنه سرعان ما غادرنا إلى لسبون للدراسة أولاً ثم العمل، استقر في المدينة وباتت له حياته المكتظة بالسياسيين والتجار والشعراء والمتفلسفين، أشتاقه فأزوره أحياناً، وإن كان هو متعدد الزيارات إلى قصرنا، يعاملني باحترام لائق، ويجلب لي المراوح الأنيقة والشالات الملونة، يجلس في شرفة القصر يلعب الشطرنج مع أوريانا ويقاهرني بمداعبة العبيد وإضحاكهم، ولا يتردد في تقبيل آوا كأنها قريبتنا البيضاء، يثير غضبي، ولكني أمرر له سخافاته العابرة حرصاً على تواصله الحميم معنا، فقد صار شخصاً مختلفاً يلغو في الفن والأدب والسياسة ولا يشعر بأن هناك إرثاً مجيداً دُفعنا من أعلى قمته إلى الحضيض. باتت الحياة كلها حضيضاً.

***

- كأني أنظر في مرآة، هي أنا دون شخبطات ولا إضافات ولا تحسينات، ترتدي ثياباً صوفية غريبة، لا بد أن السيد جلبها لها من لسبون، حليقة الرأس، مفرطحة الأنف، سوداء كما لو كانت جوهرة نادرة، تسير بثقة وراء السيد، كأنها أمامه، تلك الفتاة لا تعرف موقعها من العالم بعد، لكن عينيها المتسعتين لا تعكسان ذات الهلع الذي سكن عينيّ لسنوات، بدت لي وقحة في مواجهة عالمها الجديد، ربما لأنها تكبرني بأعوام قليلة، إذ أني الكهلة البدينة

المتهالكة كنت طفلة حين جيء بي إلى المزرعة.

لم تهتم بيلار زوجة الكونت بمنحي حماماً دافئاً كما فعلت ابنتها مع الزنجية الجديدة، رجحت يوم وصولي أني لن أدخل القصر ولكني سأنضم إلى مجموعة العبيد العاملين في الحقل يقطفون العنب ويعصرونه ويخمرونه ويعبئونه، وقد أفيدهم في خدمة الحظائر حيث الأغنام والخنازير والدجاج، حاولت بيلار تغيير اسمي، ولكني صممت أذنيّ عن الاستجابة لأي اسم عداه، فقد كانت أمي تناديني به على ظهر السفينة التي أبحرت من جزيرة غوري إلى البرتغال، آوا النداء الغامض القادم من سحيق أعماق السنغال وهي تموت في ذاكرتي.

تخاطفونا في الميناء المتسخ، شدوا أمي بعيداً عارية تماماً، وكان أخ لي يبكي بحرقة، وأمي تصيح:

- آوا اعتني به.

اختفت بين الجموع بين أيدي الرجال الذين أوثقوا ذراعيها وقدميها وشدوا رقبتها بدولاب خشبي منعها من الالتفات نحوي للمرة الأخيرة.

اختفت أمي، ابنة السلطان التي كانت في ذاكرتي مشنشلة بالودع والترتر والذهب، محاطة بمهفات الريش الأبيض، اختفت مدماة عارية على

رصيف برتغالي، وشُد جسدي الصغير الذي لم يفارق طفولته بعد في اتجاه مخالف، ففقدت اخوتي، الباكي منهم والصامت، ورأيت البيض الذين يكثرون خدماً في سلطنة جدي، يدفعونني أمامهم ويضحكون مني، يقرصون مؤخرتي الصلبة، ثم يعرضونني للبيع أنثى سوداء كاملة بلا عيب، فيبتاعني الكونت دي كارمو ويصطحبني معه إلى فاتيما. لم أتمكن من الحفاظ على إخوتي، فحافظت بعناد وإصرار على اسمي.

عندما وقع نظري على البنت الجوهرة رفمة كأني رأيت نفسي، ظننت لوهلة أن السنغال بُعثت أمامي صبية عفية، رقص قلبي رغم أن اللئيمة كارولينا أصدرت أوامرها بتفحص عذرية البنت وغسل الرائحة الكريهة عن بدنها، فرحت بمجيء البنت وإن كنت أعرف أنها بديلتي، فقد هرمت ولم أعد أقوم بما هو متوقع مني، كأني أستغل إهمال سيدتي فأزداد إهمالاً، كما لم تتمكن أفي زوجة ابني من الخدمة في القصر الكبير لكسلها ولأن رضيعها يتشعلق بثديها طوال النهار ويتبعه شقيقه الحافي قابضاً طرف ثوبها. أُبعدت فتيات كثيرات عن القصر لغبائهن ولفوح رائحة الخنازير من أجسادهن، تبدو هذه القادمة من أفريقيا خامة يمكن للسيدة تشكيلها. رغم ذلك فقد تحدثت عنها بكراهية معلنة منذ اللحظة الأولى، لا أتوقع من كارولينا موقفاً مختلفاً، لا تملك هذه المرأة أن تحب، حتى ابنتها الطفلة حرمت من

تعاطفها.

التمعت رفمة تحت الماء الصافي، خالية من الضربات والجروح، مشدودة الساقين، ثدياها عاليان صلبان، مضمرة الخصر، قدرت أن أحداً لم يعاملها بعنف، هذا متوقع من سيدي، ولكن لم أعثر حتى على خدوش قديمة، فتاة صافية، ليتها ابنتي التي لم أرزق بها، تقول إنها من بلد بعيد لم أسمع به بتاتاً يسمى دارفور، أو نيالا، أو السودان، ربما كانت بلداً واحداً أو مناطق متعددة تتذكرها البنت، لو أني كبرت في السنغال لتمكنت من قياس اقتراب هذه البلاد أو ابتعادهاعن بلدي. أما وجهها فقد كان مثل وجهي.

فهمت استفساري عن عذريتها، واستهانت بالأمر كما يجدر بأفريقية أصيلة، لكن بطنها وفرجها يفصحان عن أن الأطفال لم يمروا من هنا، ستشتاق تلك الفرس للأمومة يوماً وتقوم الحرب بينها وبين كارولينا الجبارة، تلك التي تريد جيشاً من العبيد بدون تبعات، ونساءً يفنين في خدمتها دون انشغالات، حين نطور لغة التفاهم بيننا سأخبرها بما عليها فعله لتجنب انتفاخ بطنها بطفل يهدد موقعها.

النسوة البيض، المسيحيات الطاهرات، يرجئن الأمومة متبتلات مبتعدات عن الرجال، والسوداوات مثلنا مباحات لكل من يستطيع في المزرعة، كانت مرتي الأولى والثانية وربما لعام كامل في اسطبل

الخيل، حين يأتي سيدي الكونت ثملاً، فيدفع بطفولتي أرضاً وينالني، حين مل مني صرت مباحة لعمال المزرعة وسط تهديدات مشددة من السيدة بيلار ألا أسمح لطفل بالنمو في أحشائي، لم أكن أعرف كيف أتجنب الحبل، بل أني اشتهيته حين جعلت جسدي ملكية لنفر واحد، كان آمر المزرعة الشاب خوسيه فاتناً فيه ما في ولده سارماغو من الوسامة، يميل إلى سمرة إسبانية طفيفة، تعاشرنا سراً خوفاً من زوجته ومن غضب السادة، فزعت حين تكور بطني فوجدت زوجاً زنجياً أنقذني من الورطة، هكذا اقترنت بزوجي منظف الزرائب زواجاً مسيحياً، وأنجبت فريدي الجميل الذي ظللت أدعو الله أن لا تكشف ملامح وجهه هوية والده الحقيقي، فجاء أسود سنغالياً جميلاً، وسميته بما يشي بأن هناك اخضرار في لونه، فريدي.

لن يعرف السيد سارماغو يوماً أن له أخاً جادت به بطني السوداء، حتى حين ظهرت بعض ملامح الإسبان في أبناء فريدي الثلاثة، لم يعلق أحد، كانت الدنيا مقبلة على تغيير، وحام الشك حول زوجة ابني أفي بأنها عرضت فرجها لاختلاطات غير لائقة، وفي كل الأحوال لم تعنينا هذه الأمور، فالحياة صارت أكثر مرارة بعد موت بيلار وتنمر الصبية كارولينا، لم أعد أسيطر على اندفاعاتها، وباركت بسلبية كبيرة علاقتها المشبوبة مع ابن آمر المزرعة سارماغو، وهل كان لي خيار؟

المستقبل لها ويمكنها أن تشويني حية لو أرادت.

طُرد خوسيه وتوقفت الاحتفالات في المزرعة وانفض الناس عن أسيادنا، وصودرت معظم أملاكهم، وحين خطط الكونت لبيع معظمنا، رجوته لإبقاء عائلتنا معاً، لكنه تخلص من زوجي وأبقى لي الولد والأحفاد، بعض الوجع أخف وقعاً من سواه.

ازداد نفوذي في المزرعة ديدو التي صغرت لتصير مجرد حديقة تحيط بالقصر، وقلت مهامها، وانتقلت من مرتبة الخادمة العبدة إلى مدبرة المنزل فقد وقع سيدي الكونت طريح الفراش، كاد يذوب أسى على ابنته التي هربت وعشيقها، ولم يعد للصغير سانشو عداى. لكني ارتكبت خطيئة عصفت بموقعي الجديد وأعادتني إلى الوراء، حين مرض سانشو ظننتها فرصة لتصالح العائلة، وترويض البنت الشرسة وجعلها ممتنة لي، أرسلت إلى الابنة المارقة فعادت وزوجها وطفلتها لتنقلب الحياة بعد ذلك في المزرعة والقصر إلى جحيم.

تمكن سارماغو بسرعة من تعويض بعض الخسائر، استعاد المزرعة الأصلية ومزيداً من الأراضي حولها صارت ملكاً له، رغم أن كارولينا تتصرف كما لو أن المزرعة لها كما في الماضي، لم تكن ممتنة، بل غاضبة على الدوام، تفقد أعصابها إذا تركت النافذة مفتوحة، وإذا زاد الملح في المرق، وإذا أحدث سانشو ضجة في حجرته، أو مر أحد

أحفادي قرب البوابة، وإذا تأخرت أوريانا عن مائدة الافطار، وإذا تبقعت الملعقة الفضية بسمرة خفيفة، أو وقعت قطرة ماء على شرشف الدانتيلا المخرم، كل شيء، أي أمر، مهما صغر يمكن أن يكون مقدمة لانفجار غضبها في وجهي أو وجه زوجها.

بعد موت الكونت دي كارمو استدعى السيد سارماغو والده مجدداً إلى المزرعة، عاد خوسيه مريضاً عديم النفع، وانكسر قلبي لأجل أيامنا العتيقة التي لا أظنه يذكرها، لم أقترب منه مواسية، تصرفت كأنه غريب لا أعرفه، لم تكن سيدتي ستتسامح لو أبديت أي تعاطف نحوه، هي نفسها تصرفت مع الرجل بلؤم كأنها لم تتزوج ولده، تاركة إياه في كوخه العتيق يجتر السنوات حتى توفى في زمن كان فيه ولده سارماغو مسافراً في واحدة من سفراته الطويلة التي تمتد أشهراً إلى إفريقيا، وابنته نيتا تلد ابنها الثاني في مزرعة بعيدة، دفن خوسيه بيدي ولده الذي لا يعرف أنه ولده، ولدي فريدي.

أصبحت الحياة مريعة في ديدو فسيدتي تجن بين الفينة والأخرى، وشقيقة السيد تحاول لعب دور السيدة في المزرعة والمعصرة، وبدني يثقل. ترك سوط كارولينا مشحة من الاحمرار على ردفي حين لاحقت به حفيدي الذي تسلل إلى الشرفة، مر السوط موجعاً بين ظهر الصغير وردفي، عندما تقع مثل هذه الأحداث أسترجع مشهد أمي تحاول

الالتفات نحوي فتمنعها الاسطوانة الخشبية التي تغل عنقها، وأسمع صوتها كأنه آت من سحيق:

- آوا.. اعتني به.

لم يعد لي ما أعتني به، زوجة ابني تحيط أبناءها صغاراً ثم تسلمهم لأبيهم يعملون معه، حتى أوريانا الرضيعة، لم تسمح لي أمها بالعناية بها، لعلها خافت أن أتآمر معها يوماً لتهرب مع عشيق وضيع، وهأنذا، أشيخ عبدة بلا فرح، وفجأة، تظهر رفمة.

حين تتمكن من اللغة سأخبرها بهذا التاريخ الرمادي المكتظ بالأسى، في البداية حدثتها بسنغالية قديمة أنا نفسي أتلعثم بها، إذ لم أستخدمها لزمن طويل. حين لم تفهمني عدت أحدثها بالبرتغالية، حتى هذه اللغة غريبة عنها، لعلها فهمتني قليلاً لكنها تحتاج إلى وقت لفهم التفاصيل ودلالات الكلمات، وسيكون وقتاً قصيراً، فالصبية قوية ذكية ومستعدة.

لدي قناعة بصلابة وجبروت المرأة السوداء وهشاشة وضعف البيضاء، أقنعتني كارولينا أن في إهاب كل امرأة بيضاء بقعة رخوة يمكن اختراقها منها، تجن البيضاء أو تنهار أو تنكسر، تبيع روحها للشيطان أو الرجل أو الغضب أو الأشياء البراقة، وتزداد السوداء حكمة وصلابة وانتصاباً مع كل ضربة تتلقاها من زمانها، تكبر روحها

بكبرياء الزاهدين، هذه أنا، القادمة من السنغال على يقين بأني سأترك أثراً غائراً في لحم الحياة كما شفرة المحراث تترك ثلماً في الأرض، هذه هي رفمة التي تلتمع تحت وطأة ليفتي، قلبي يحدثني أن روحها أوسع حرية من روحي، تكذبني عيناها حين أتحدث عن جدي وأبي السلاطين المنعمين بالذهب الكثير، على الأغلب لم تعرف هذه الفتاة رفاهاً في حياتها السابقة، جاءت من حرية فقيرة، إلى عبودية مرفهة. لكنها تحدق بعينين مترعتين بالحرية.

***

يحدث قطع في مشاعري وذاكرتي بمجرد دخول القطار حدود أوريم الملاصقة لفاتيما، أتغير إلى النقيض، تهجم على روحي كآبة غامضة تقتات من فرحي القديم وتفتتني بصمت مريع، الأرض فاتنة وروحي حزينة، أين الذي كنته وأنا أتبختر فوق السفينة التي تمخر البحر الأبيض؟ أين مني الرجل الحر النبيل الذي أصيره إذا لامست أقدامي شاطىء الجزائر حيث رائحة البخور والسحن السمراء؟ كيف أحلق خارج هذه الحدود على فتنتها الظالمة وأتقوقع في كهف روحي إذا لاحت روائح فاتيما من أوريم؟

لدي أسبابي لأحب المكان، كما لدي أسباب لكراهيته، عرفت محبته طفلاً، لم أقتنع يوماً أن أبي جاء مزارعاً من إشبيليه، ولدت وكبرت

في مزرعة الكونت، لم أكن مهيئاً لفهم معنى امتلاك الكونت كارمو للمكان، فقد كنت أكثر التصاقاً بمزرعة ديدو منه، أعرف مداخلها وأسرارها، أشجارها ونباتاتها القصيرة، كبرت العناقيد في حقول الكرمة على يدي، وساهمت في قطافها وعصرها، وحملت براميل النبيذ على كتفي وصففتها في الأقبية المعتمة، في كل زاوية لي ذكرى لا أجد من أتندر بها معه، ظننت يوماً أني أملك كل هذا الفائض عن حاجة البشر، لم أتورع أن أوزع على العبيد وعلى فلاحي فاتيما بعض ما كان يعده أبي لسوق المدن الكبيرة من فاكهة وحبوب وألبان، ربما وجدنا أنفسنا في منطقة ضحلة نقترب من عبيد المزرعة الذين هم في قاع الترتيب الطبقي، لهذا بدا لفلاحي فاتيما أن عائلتي، عائلة آمر المزرعة خوسيه سواء زوجته أو ولده أو ابنته يمثلون وسيطاً مثالياً بين الكونت وبينهم، عدا عن أنهم يهيئون المكان لسلام معقول مقارنة بالمزارع التي يمتلكها الإقطاعيون في سهول البرتغال، كنا أكثر مرونة من أن نفقد الأيدي العاملة التي تشغل المزرعة، وأكثر سلاسة من أن نفقد رضى الملاك الذين يسوسوننا بعنجهية، تلك سياسة تعلمتها على يد أبي، لكنه قطعاً نسي في مراحل كثيرة تنبيهي إلى الخطوط الفاصلة الحمراء التي لا يجب أن أتخطاها، ففعلت، ووقعت في حب ابنة الكونت الجميلة النزقة المرحة.

كانت شقيقتي نيتا تستعد لمغادرة المكان وقد خطبت للتو لسائس الخيل الذي يعمل بعيداً عن القرية، لكنها تنبهت للحب وهو يغزل شباكه بيني وبين كارولينا، رأتنا نتهامس وراء الحظيرة أو نتسابق بين الأشجار ضاحكين، ونلوذ بالأماكن المغلقة فنتبادل القبلات، لن أنسى كلماتها وهي تهمس:

- لا تقع في الفخ، هذه الجميلة ستصير امرأة مجنونة قريباً، إنها نصف معتوهة، خليط من أبشع ما في نفوس السادة.

لم أناقش نيتا حينها، فقد كنت عاشقاً متيماً، ظننتها شعرت بالغيرة، كما شككت بتنظيراتها لفرط اقترابها من راهبات الكنيسة، إذ لا تجد شقيقتي متعتها إلا في الجلوس مطولاً معهن والحديث بوله مع لوشيا الراهبة، نيتا ليست ابنة الحياة، إنها مغرمة بحكايات لوشيا ومعجزاتها وإقامة الصلوات وقراءة الورديات والتسابيح، حتى اتقانها لعملها في معصرة النبيذ كان ناجماً عن وضعها الطبقي، لا عن شغفها بالعمل، ومن ثم؛ لم أكن أحتاج إلى رأيها حين اضطرمت نيران عشقي.

مغامرتي الحمقاء أثبتت صحة اعتقاد شقيقتي فيما بعد، بعد فوات الأوان.

لم تمض أشهر على وفاة الكونت حين أخبرت زوجتي أني سأستعين بالعبيد في عصر العنب، جن جنون كارولينا، قالت إنها كانت على يقين

منذ زمن أن أبي وشقيقتي يستعينون بالعبيد سراً في عصر العنب، لقد شمت رائحة أجسادهم في الشراب الأحمر الرائق. ومع ذلك نظرت نحوي بازدرائها المعهود قائلة:

- افعل ما تعودت وأهلك، ستشمون رائحة أقدامهم المتقشرة في نبيذكم، أنا لن أشربه على أية حال.

لم تكن تشرب من النبيذ إلا الفرنسي، واثقة أن الفرنسيين لا يستخدمون العبيد في قطاف العنب وعصره، رغم لؤم نظراتها وكلماتها واصلت شرحي لأسباب استعانتي بالعبيد، أخبرتها أن فلاحات فاتيما يهيئن أنفسهن للاقتران بالأثرياء الجدد ولم يعد إيجادهن لمثل هذا العمل ممكناً، تكبرن على مهمة معس أرتال العنب بأقدامهن، ومن لم يحالفها الحظ بالزواج تذهب إلى التعليم وتسافر إلى مدن بعيدة، أو تتحول إلى ناشطة في حزب يساري، الحياة تغيرت وعليها أن تتفهم ذلك، نظرت نحوي ساخرة وهمست:

- اذهب بنبيذك المتواضع هذا إلى أفريقيا، سيشمون رائحة أقدام بناتهم وحفيداتهم، سيحبونه، يمكنك أن تجني ثروة ببيعه هناك.

سخرت مني، ولكنها من حيث لا تدري فتحت لي باباً جديداً، عالماً يمكنني الهروب إليه في المقام الأول، ويمكنني من صنع ثروة معقولة، درب جديدة أهرب إليها كلما شعرت بالاختناق من قصرنا المسكون

بأطياف أجدادها وعدائيتها وبرودة ابنتي، لقد أحببت أفريقيا التي أنقذتني من موقفي الحائر في فاتيما، وأبعدتني عن زوجتي وشعوري بالمهانة الذي يلاحقني كظلي رغم أني منتفخ وجاهة في ثيابي الجديدة. لقد تحولت الصبية المرحة التي أحببت إلى روح شريرة وتقطعت بيننا كل محاولات التواصل، حتى في ضعفي وإذعاني، أضل بعيداً بقلبي وعقلي.

بت أطيل المكوث في أفريقيا، أشحن براميل النبيذ وأعبئها في الجزائر، وإذا وجدت صداً من المسلمين الذين لا يشربون الخمور استقبلني من يحتسيها من مسلمين وإنجليز وبرتغال على طول الساحل، أعود من رحلتي ببلح الجزائر فأخمره أيضاً، كما أعود ببعض الرقيق رغم صدور قانون يمنع الرق ويستبدله بما يسمونه العمل بالسخرة وبموافقة العامل، لم يكن هذا القانون ليوفر لنا العمالة الرخيصة التي تنعش أعمال المزرعة، مثل سواي كان لدي جيش من العبيد، وأصبحت ثرياً يجرؤ البعض على مناداتي بلقب الكونت دون أن أُرسم كونتاً. مع ذلك، لا أشعر باكتمالي إلا على الشواطئ الأفريقية، هناك عشت أكثر لحظات حياتي بهجة، حين وقعت عيني على رفمة، وهي طازجة متحررة مما يكبل الروح رغم الأصفاد في كفيها، جميلة كطائر رغم ثوبها القطني الرث الأبيض الذي تتسربل به واشياً باسوداد

بشرتها، قدمت لي رفمة جسدها منتشياً طائعاً، فصرت رجلاً كاملاً، تلك لحظة لن أستعيدها ما حييت، ولن أجد من أخبره بمبلغ نشوتي حتى رفمة نفسها، فكيف لهذه البدائية الفذة المعجونة بالعفوية والجمال أن تفهم شرهي وإقبالي عليها جائعاً ظامئاً إلى المعنى، كيف أشرح لها أنها كانت المعنى، ثم كيف أبرر انقلابي وإقصائي لها؟ تتحرك رفمة تحت سقفي وفي مرمي ناظري، لكنها بعيدة حقاً، يستلزم مني مرورها التجاهل التام، وهي بخيلة الظهور، أراها من الخلف تمد يدها لتتلقف ثياب أوريانا المعدة للغسيل، أو تسير مسرعة وراء زوجتي التي تشرح لها بغضب أن الغبار لم يمسح كما يجب عن ثريات حجرة النوم، أحياناً ألمحها تهيىء المائدة فتوزع الصحون والملاعق، أشفق عليها من طقوس القصر، أتمنى لو أساعدها في التفسير والشرح فلست واثقاً بعد من فهمها لكل ما يقال، وإن بدا أنها تبلي حسناً، لقد روضت الفرس الأفريقية البرية الجميلة لتصير ابنة الحضارة الأوروبية.

أتحرر قليلاً من حذري مساء، حين أجلس إلى الشرفة تمتد أمامي حديقة تغرق في العتمة تدريجياً، أميز بين الأشجار هيكل جسدها الرشيق من جسد آوا الممتلىء المترهل وجسد آفي الجهام، جسدها أسود متناسق صلب أملس عابق بريح البحر وما ترك الرمل في

المسامات، جسدها الذي دخت فيه وولجت منه إلى فردوسي، أغمض عيني بهدوء وأذهب في التذكر.

***

يصهل التعب في مسامات جسدي، أسمع حسه، هناك إيقاع رتيب ونبض لا يتوقف يجتاح أطرافي حين أمدد جسدي المتعب مساء على الفراش الذي أعدته لي نيتا في المخزن الملاصق لبيتها، جسدي يرتعش كما لو كان ينفق، إلا أنه يستكين بعد لحظات ويسترخي، نيتا توبخني قائلة إنها لم تر زنجية في مثل ضعفي وكسلي، تطردني في الأيام التي يأتي فيها زوجها سائس الخيل لزيارتها من مدينته القريبة، أمها تنظر نحوي بشك وازدراء على الرغم من كونها عجوزاً متهالكة لا تغادر كرسيها ولا تتكلم، احتجت إلى فترة زمنية امتدت شهوراً لأعرف أن تلك العجوز المنفية في كوخها هي أم سيدي سارماغو ونيتا شقيقته التي تتأرجح بين حالات من القسوة والتجبر وموجات من السكينة والتعبد.

أنا نفسي أتعجب لتعب جسدي، أكاد أشك بنفسي، أراني ضعفت عما كنت عليه، لا شك أن الحياة التي كانت لم تكن حياة رفاه، لم يكن لمثل هذا المعنى دلالة في فهمي، عشت الحياة على ما هي عليه، بلا رتوش ولا إضافات شاقة ممتعة تتطلب من الجسد أن يواجه الشمس

والهواء والجوع والعطش، ولـم يكـن جسـدي العـاري يشـكو التعـب، لكنه في تلك الأصقاع البـاردة ينبض في المسـاء مفرغـاً شـحنة التعـب الذي خزنه طوال نهاره، تكلفني كارولينا بمهام صغيرة تافهة في القصر، وتتحـرك آوا ورائـي متثاقلـة تـوجهني، أعمـل بآليـة دون توقـف، حـين أنتهي من تنظيف صالة القصر والبرندات الكئيبة والمطبخ المتهـاوي، قد أجلب بعض الخضار واللحمة والدجاج الذي يناولني إياه فريـدي من البـاب الخلفـي بينمـا زوجتـه أفي تقـف وراءه تراقـب بحـذر، هـذه المرأة لا تحبني، أظنها تتخوف مـن أن يشـم الرجـل فيّ رائحـة الأنثـى، وأظنه غـافلاً عـن مخاوفهـا كمـا هـو جاهـل لمبلـغ نفـوري مـن رائحتـه حيث يختلط فوح العنب الخاثر وجبنة الماعز وبعض مـن هـواء فاسـد يشبه تمامـاً ذلك الـذي يتصـعد مـن المخلفـات حـول أرجـل الخنـازير البشعة التي تتزاحم في الحظيرة البعيدة.

مـا الـذي يهـدد النسـاء حـين ينظـرن إلـيّ؟ كارولينـا وآفي ونيتـا، كيـف يجمعن عليّ حين يكون رجـالهن في الجـوار؟ ومـا معنـى تلـك النظـرة التي تفيض خوفـاً وتحسـباً ومـا يشـبه الكراهيـة، سأسـميها فيمـا بعـد: غيرة، غيرة لـم أكن أعرفها من قبل.

عالـم متسع مكتظ، الفضاء والمدى في نيالا المفتوح على السماء يبـدو الآن بعيداً وهميـاً ضيقـاً، بينما تلك المسـاحة المحـدودة مـن المزرعـة

التي تعبق بروائح الأغنام والخنازير والعنب المخمر، تلك المغلقة على أناس موصدي الأفئدة عالم بشع كبير أتوه فيه كما لو أني شريدة، لا أغلال في قدمي ولكن خطوتي ضيقة، وهم كثر ولكني وحدي. تقول آوا إن عقلي يضيء كما الشمعة، وإني أفهم بسرعة. بت أتقن لغة لم أعرفها في عمري القديم، لست بليدة كآفي ولا مترددة كما كانت هي ولا خائفة، لكن هذا كله غير صحيح، أنا وحيدة، الوحدة والكثيرون حولي أمر غريب وجارح كحد السكين، أعرف أن هذا الشعور الذي يتحرك حاراً في صدري يزداد في الأيام التي تعقب ظهور كابوس الطريق لي، كابوس ثابت لم يتغير مع مضي السنين، يعاودني في أيام التعب الشديد، أو عند اكتمال القمر تماماً كما لو كان جنوناً موسمياً، إذا ما صحوت منه وفارقت سطوته أشعر أنه الواقع وما عداه وهم. كان هناك رجل يدعى كامونقو يعتقد أن الأحلام السعيدة بفعل كائنات خفية تسكن الروح بينما تتسبب شياطين الجسد بالكوابيس، لعله على حق، يبدأ كابوسي كما لو أنه أحد همسات أحلام كائناتي الخفية: أراني أمضي في طريق طويل ذاهبة إلى هدف أعرفه، كأني أذهب إلى مزرعة الفول السوداني، الطريق خالية إلا مني، وأنا أسير دون عوائق، لكني لا أراني، أعرف فقط أني أنا تلك التي تمشي على الطريق، ثم أشعر فجأة بجسدي وإن كنت لا أراه، حينها يتحول الحلم

إلى كابوس، يلتوي أحد أطرافي ويسقط مني، تاركاً في مكانه فجوة مدماة، وأوصل السير، مفزوعة مما حدث، ولكني أواصل، فجأة يسقط طرف أخر، أتفتت تدريجياً على الدرب، وكلما انقطعت من لحمي كتلة شعرت بوجعها، وظللت أواصل المشي، في آخر الطريق شاهدت كفي تسير وحدها، أراها من عين سقطت مسبقاً، تقفز الكف وحيدة محاولة الوصول، أعرف أنها تصل، ولكني أصحو قبل أن يتمثل المشهد تماماً في حلمي.

في الصبيحة التي ينقض عليّ فيها هذا الكابوس أصحو وقد فقدت القدرة على تحريك أطرافي، أحاول اللحاق بأنفاسي وألهث، جسدي بارد ومتعرق في ذات الوقت، وفمي جاف وحنجرتي تيبست، أحتاج إلى دقائق حتى أستعيد توازني وأنهض لأبدأ يومي، أو تلكزني قدم نيتا بحذائها الجلدي، وينبهني صوت آوا تناديي.

عندما تطلع الشمس الدافئة على السهول، أنتقل بهمة في المزرعة من حجرة منامتي في ملحق بيت نيتا إلى تجمع الطوب الذي تقطنه آوا وعائلتها الممتدة، ثم أسير وقد سبقت خطواتي خطوات السنغالية الكهلة إلى بيت سيدي الواقع في بداية مرتفع مطل على فسحة كانت حديقة وارفة وأضحت مساحة متروكة للإهمال، تثرثر آوا ونحن في طريقنا، تقول بحماسة إنها آخر العبيد الذين تدفقوا من قلب السنغال

ليعمروا تلك الأصقاع الباردة، لم أعد أستشعر البرد كما كنت أحسه سياطاً على بدني عند قدومي، لقد اكتشفت دفئاً مفاجئاً يرافق دوران الشمس فوق الحقول، وبت أعتقد أن جسدي مرتبط بتلك الحركة الدائرية على صورة فريدة، إذ أنهي أعمالي والشمس تتحرك باتجاه المغيب، أو تراقص الغيمات العنيدة في الشتاء، كذلك لم يعد المطر يزعجني، كأني اكتشفت بينه وبين المطر الدافئ الذي عرفته في نيالا قرابة، لعلهما ينهمران من ذات البحيرة السماوية، أصبحت أكثر تواصلاً مع آوا، لم أتمكن من توثيق صلتي بأفي فهي نكدة ومشغولة على الدوام بلا شيء، ولكن آوا وهي تواصل دورها في تعليمي رغم أني لم أعد بحاجتها فإنها ظلت صلة وصلي بحقيقتي، لا تكف هذه المرأة البدينة الثرثارة عن تذكيري بموقعي من العائلة والحياة، لم تسمح للتعود أن ينسيني حقيقتي، تستمتع بذكر تفاصيل يوم وصولي عبدة إلى القصر، وتضحك بمرح وهي تسخر من نظرات الشك التي سكنت عينيّ السيدة كارولينا مثل عفاريت أو شياطين ولا تمل من مدح إتقاني لعملي، وذكائي الذي تدلل عليه في أني بت أنطق اللغة البرتغالية كما لو أني ولدت على هذه الأرض، لم أعرف أبداً إذا كانت آوا تشعر بالنيران التي تأكل روحي، ذلك أني عشت بوجه محايد يمكن رؤيته، وكهف متوار مظلم أراه وحدي وفي أحلامي.

في الآحاد المقدسة تعتكف آوا مع عائلتها، وأعفى من دخول القصر، هكذا تستغلني نيتا، أنظف بيتها وأخرج فراش أمها العفن الرطب بآثار بولها إلى الشمس فأفرده على أغصان شجرة البلوط خلف البيت، ثم أساعد أبناءها الأربعة لارتداء ثيابهم الزاهية، وأسير خلفهم وهم يتراكضون حول أمهم في طريقها إلى الكنيسة، نقطع الحديقة مبتعدين عن القصر، ونجتاز طريقاً مضللة بفيء أشجار الكستناء، تحرص نيتا على صلاة الأحد في الكنيسة، لكنها لا تصطحب الأطفال إلا في الأيام المشمسة، أرقب الشمس في كل أحد برجاء، لأن سطوعها يعني أني سأرافقهم في تلك الرحلة، مهمتي مراقبة الصغار والحرص على ألا يبتعدوا عن خط السير، ولا يتسلقوا الأشجار، أو يتجولوا محدثين هرجاً بين المصلين، والأهم ألا يصعدوا ظهر الكنيسة إذا ما انتهت الصلاة واختلت أمهم بالراهبة لوشيا، كما أن علي نقل تقرير كامل للأم عما فعلته الابنة الكبرى، مع من تحدثت وهل ضايقها شاب أو امرأة ذات غاية! لم تكن الإبنة رامونا شابة مليحة ليلتفت إليها أحد، كما أنها ورغم دخولها مرحلة الصبا ما زالت تتصرف كطفلة خرقاء، لكن الأم التي أصبح شقيقها كونتاً، كانت معنية بتدبر مستقبل مشرق للفتاة مما يعني الاهتمام بألا تنزلق لخطأ يكلفها دمار تلك الاحتمالات، تراهن نيتا على أن قربها من الراهبة لوشيا سيساهم في

تأمين زواج محترم لابنتها النحيلة.

تتحدث نيتا عن معجزات الراهبة بإيمان تام، توجه حديثها لابنتها ونحن نقطع الطريق، وتظل البنت لاهية غير معنية بالمعجزات السماوية التي شهدتها القرية على يدي لوشيا، ولكني أستمع مستمتعة متذكرة حكايات كامونقة.

تقول نيتا إنها كانت طفلة والحرب الكونية الأولى تشوه العالم وتدمره، شغل الناس في فاتيما بما أصاب الرعاة الأطفال الثلاثة الذين كانوا يجمعون الأحجار للعب في السهل بين فاتيما وقرية الخوستريل، حين شاهدوا ضوءاً في السماء ففزعوا؛ وظنوا أنه الصاعقة. قررت لوشيا التي قد بلغت سنتها العاشرة مناداة شقيقتها خاسنتا وابن عمها فرانسيسكو اللذين يصغرانها، جمعوا الخراف وهبطوا مسرعين نحو القرية، في أسفل التلة شق الضوء السماء مجدداً وتنزلت سحابة شفافة تشكلت في جسد صبي بشري نوراني، هدأ الطيف من روعهم وأكد أنه الملاك الذي يبشرهم بظهور السيدة في نفس الوقت من الشهر القادم، ثم سجد الملاك أرضاً حتى لمست جبهته الأرض، وصلى: «أنا أؤمن بك وأعبدك وأحبك يا إلهي! وأطلب عفوك لأجل الذين لا يؤمنون بك ولايعبدونك ولايحبونك». كررصلاته مرات ثلاث، ونهض مخاطباً الأطفال: «صلواهكذا. إن قلب يسوع والعذراء منتبهين

لصوت تضرعاتكم». ثم اختفى.

في المرات المتعاقبة الخمس وفي المواعيد التي حددها الملاك، تجلت للأطفال المباركين امرأة مشعة تمسك مسبحة بيضاء، كانت سيدة المسبحة ودودة وهي تهدئ روعهم وتدعوهم لتحريض الناس على الصلاة وتعد بالعودة في الثالث عشر من كل شهر. مرة تمنحهم سر التناول، ومرة تريهم أهوال الجحيم ليصلوا للخطاة والمذنبين ولانتهاء الحرب بمآسيها، ومرة تخبرهم عن سر سيغير وجه الحياة على الأرض حين تكفر روسيا المؤمنة، وفي السر الأخير أطلعت السيدة لوشيا على أحوال البشر وأمنتها على حفظ سر المستقبل القادم، وأعلنت عن نفسها بأنها العذراء أم المسيح مخلص البشرية. تنقلت الحكاية بين مزارعي فاتيما واجتازت القرية إلى قرى مجاورة، وصلت إلى المدينة. بعد أن تجلت العذراء خمس مرات، جمع التجلي السادس سبعين ألف مؤمن كاثوليكي، جاؤوا من كل صوب ليشهدوا معجزة صورتها كاميرات الصحف.

تقول نيتا:

- وقفت ذلك اليوم ممسكة بكف أمي ولكني أفلتها في الزحام، كان هناك قرابة سبعون ألف مؤمن جاؤوا يشهدون المعجزة المعهودة منذ الصباح الباكر، ورغم تساقط المطر الغزير والريح العاصفة

انتشروا في السهل مترقبين، كنا في اليوم الثالث عشر من أكتوبر من عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر، وقفت الجموع تنتظر كما الأطفال المباركين، لكن شيئاً لم يحدث، غضب الرجال وصاروا يسخرون، بل قاموا بطرد الأطفال الثلاثة من السهل ولكنهم لم يتراجعوا، تقدم الكاهن لإرغامهم على الانصراف، وساد الهرج، وفجأة صرخت لوشيا:ها هي.

لقد رأت البرق الذي يسبق ظهور السيدة، وانقطع المطر في لحظة واحدة، وأشرقت الشمس وضاءة، إلا أن سحابة بيضاء ظللت رؤوس الأطفال الثلاثة دون سواهم، تحدثت العذراء ولوشيا والناس يسمعون ولا يرون، نقلت إلينا لوشيا رغبة السيدة ببناء كنيسة في المكان لنصلي المسبحة وندعو لانتهاء الحرب، كما وعدت بعودة الجنود إلى بيوتهم، وشفاء المرضى. شهقتُ فجأة كما كثر حولي، لقد دارت الشمس كعجلة من نار حول نفسها مترنحة، ومثل كشاف جبار أرسلت فوق رؤوسنا ألواناً بهيجة وبدا كما لو أنها ترقص حول محورها استعداداً لتنقلب فوقنا، ثم صارت باهتة كما القمر. صحنا معاً وسجد الكثيرون باكيين وزحفوا على أيديهم وأرجلهم في الطين. تملكني الرعب كما لو أن هذه اللحظة نهاية العالم، وبينما لوشيا تواصل نقل ما تسمعه من رسالة العذراء: توبوا وأصلحوا طرقكم.

كنت أصرخ مع الناس وأرى كما يرون أطيافاً لقديسين يمسكون بكف الطفل يسوع، وراحت هلالة من نور أزرق ترتفع، كان ثوب السيدة يهفهف وهي تغادرنا نحو الشمس. حين انتهت المعجزة تعانقنا وتسامحنا ودفعنا كلفة خطايانا واعترفنا، تذوقنا روح الإيمان، منذ تلك السنوات وأنا لصيقة بالأخت لوشيا، أمسح التراب عن حذائها، وأبكي وكأني أعيش لحظة المعجزة من جديد.

كنا قد اقتربنا من الكنيسة فخرت نيتا على ركبتيها وراحت تزحف فاردة ظهرها لترى بوضوح المبنى الأنيق للكنيسة وبرجها العالي، وفعل أطفالها مثلها وقمت بذات الحركة وإن لم أقتنع بمغزاها، وكلما اقتربنا من الكنيسة توافد الزاحفون على ركبهم أو بطونهم، دلفوا قاعة الصلاة فصرت حرة نسبياً بالخروج وراء أحد الصغار وقد تسلل للعب في الخارج، ولكني أسمع بوضوح تراتيل الصلاة تتلى: المجد للاب والابن والروح القدس، كما كان في البدء والآن وعلى الدوام وإلى دهر الداهرين، آمين.

كثيرا ما أترك الصغار يعبثون في الخارج وأهيم على وجهي، أستمتع بلسعات باردة على صفحة خدي وأحدق مندهشة بلون السماء الأزرق حين تخالطه غيمات بيضاء ورمادية ووردية، إذا تنبهت إلى ابتعاد أحد الصغار لحقت به وحملته عائدة به إلى الكنيسة، تناولته أمه

عبر الباب الخشبي الضخم، وسمعتهم ما زالوا غارقين في صلاتهم ونجواهم: يا أم سيدنا يسوع المسيح، يا أم النعمة الإلهية، يا قديسة يا طاهرة، يا أمـًا حبيبة، يا بتولاً حكيمة مكرمة، يا حنونة يا أمينة، يا مرآة العدل.

أتخطى السياج صاعدة إلى السلم الذي يقودني إلى أعلى الكنيسة، منذ اليوم الأول الذي وصلت به إلى فاتيما وبي رغبة لتحسس تلك الأم المنتصبة ومسبحتها فوق ظهر البناء الأبيض.

في الأعلى كانت الريح سريعة باردة بعض الشيء على نحو محبب، ارتجفت وجنتاي وتمثال السيدة يقف وحيداً قبالي، في الأسفل كانوا يتشبثون بهذه الوحيدة لتداوي جراحهم: إلى حمايتك نلتجىء يا والدة الله يا قديسة، فلا تغفلي عن طلباتنا عند احتياجنا إليك، نجينا من جميع المخاطر.

أية تضحية قدمتها السيدة لتستحق دموعهم وآهاتهم آيام الآحاد، أعلي أن أبذل كما بذلت؟ أم أني بسوادي لا ألج باب الرحمات هذا؟ ها أنا ذا وحيدة خائفة أرتعش وقد تخلى عني الكون، أقف وإياها في مواجهة الهواء تصفعنا الريح ويمتد العالم حولنا.

زعقت نيتا حين رأتني:

- العبدة على السطح المقدس.

جروا جسدي ولم أقاوم، تخدشت ذراعاي وظهري وأنا ذاهلة، صممت سمعي عن تأنيب القس وإن التقطت دموع الأخت لوشيا وهي تنظرني بعطف، لم يمنع عطفها نيتا أن تجلدني عند عودتنا بحجة إهمال أطفالها، كما لم يمنع كارولينا من حرق جلدتي السوداء بمشعلها، ذلك أني العبدة الوثنية دنست سقفاً مقدساً.

لا الجلد ولا الحرق خدشا روحي، ولكن جن جنوني حين حبست في حظيرة الماعز عقاباً على ما فعلت، رائحة الماعز تودي بما تبقى لدي من الصبر، وأرى بين أرجل البهائم البيضاء ظل الماعز الكبيرة، أسود متكوراً على نفسه، يا إلهي؛ هذا ليس ظلها، هذه أنا! التبس عليّ بلونه القاتم الحزين. لم تحضر السيدة إلي، رغم أني بكيت وصليت نصف صلاة استدعيها، همست بكلمات سمعت رجعها في الكنيسة أو اقتنصتها من صلاة كان جدي يؤديها، لم تحضر الحنونة، مرآة العدل، وحده كامونقة كان يواسي ذعري.

***

تقف أوريانا على الشرفة بثوبها الذي يغطي ركبتيها، تبدو نحيلة وقد طالت بعض الشيء، ينسدل شعرها حتى كتفيها بإهمال كما لو أن أحداً لم يصففه منذ زمن، كلما تركت البيت أعود لأجدها طالت قليلاً، وشحب وجهها، وازدادت عزلة، ومع ذلك تبدو لم تكبر أبداً،

هذه الطفلة تحتاج إلى الفرح، لماذا لا ترتدي الثياب الملونة البهيجة كأمها، والتنانير القصيرة مثل بنات لسبون الجميلات، ما كل هذا الحزن الذي يرتسم على وجه ابنتي؟ فيشلني ويجعلني حائراً لا أعرف كيف أتعامل معها أو أكون أباً لها، لا أجيد رسم ابتسامة على الوجه الكئيب، ولا أجرؤ على احتضانها في مواساة قصيرة، ولا تعرف هي كيف تكون ابنتي، نسلم كالغريبين، أخلفها على الشرفة كما لو كانت شبحاً مر في قصرنا المهجور، وأدلف إلى القصر الذي يزداد وحشة وتبهت ألوانه، لا أجرؤ على خلع قبعتي أو فك ياقة قميصي وربطة العنق في الصالة فحين تظهر كارولينا سترمقني بنظرات التأنيب، أجلس على الأريكة المنبعجة وأفكر ربما يجدر تنجيد هذه الأرائك بلون حليبي عصري يعيد رونقها خاصة أن تجاراً من لسبون وعدوا بالوصول قريباً، أكره كل ما ورثناه عن الكونت كارمو، لكنني أعرف كتاجر خبر الدنيا أن الوقت قد حان للإفادة من اسمه أو قصره أو هالته.

أتحدث باقتضاب عن التجار الذين سيفتحون الأبواب لنا لتحويل المزرعة للبضائع التي يمكن إرسالها فيما بعد إلى أوروبا المتحاربة الجائعة، لا يبدي وجه كارولينا حماسة أو استنكاراً، بارد محايد كعادته، كأني أحدث نفسي، على أني كنت مضطراً لإخبارها لأنها

الوحيدة القادرة على إصدار أوامرها بتجهيز جناح للضيوف المرتقبين، في حين أن بقية الترتيبات ستكون من تدبيري، أخبرتها أيضاً إن المطبخ سيشهد نشاطاً في تكريم الضيوف، ولعله من الأفضل إعادة توزيع المهام على الخدم والعبيد، كأن تتفرغ آوا ورفمة لتزويد المطبخ باحتياجاته وإعداد الموائد اللازمة، ظننت أن كارولينا ستبدى شيئاً من الحماس على الأقل لعودة الحيوية إلى مطبخ وقصر الكونت، قد يذكرها هذا بأيام مجدها الأرستقراطية، إلا أنها ابتسمت ساخرة وعلقت بلؤم:

- لا تهدر مالك على الأجلاف الذين ركبوا الموجة، أثرياء الحرب الجدد، فهم من طبقة حقيرة ولن يغير ثراؤهم شيئاً.

كانت على حق في جزء من تصورها، فضيوفي أثرياء حرب. اشتعلت الأسعار وأوروبا تعاني الجوع، كانت بلادي تنأى عن العراك المسلح وتتحول إلى عراك في لقمة العيش والسلاح، في خضم هذه الفوضى اختلط الجواسيس بالتجار، وتكاثر اليهود رغم أن رئيس الوزراء بميله العاطفي إلى الفاشية حاول تقنين دخول اليهود بمرسوم يمنع منحهم تأشيرات دخول إلى البلاد، لكن قنصلنا في بوردو «ارستيد دو سوزا» تمرد على الأوامر وأدخل الكثيرين دون تحفظ، مما أظن أنه سيكون وبالاً على مستقبله السياسي، ولكنه في الوقت الراهن على الأقل قرار

مفيد لتجار السلاح الذين سيمررون بضائعهم من مزرعتي ديدو.

مرت رفمة أمامي مسرعة تعرج خلفها العجوز آوا، منصاعتين لأوامر زوجتي في إعادة تأهيل الجزء الغربي من القصر الذي لم يدخله أحد منذ غادرنا سانشو، كنت أقلب الدفاتر التي قدمها لي فريدي حين رأيتها كما لو أن الزمن توقف برهة، نحيلة كما لم تكن أبداً، وقد قصت شعرها الأكرت بعد أن طال منذ زمن وجدلته، هناك ما حدث للفتاة، عامان قد مرا منذ جاءت إلى المزرعة وتلاعب طيفها برغباتي وعواطفي، ولكنها في تلك اللحظة السريعة العابرة تثير تعاطفي، انتظرت حتى اختفت النسوة من الصالة متجهات إلى الجناح الغربي، وقلت بصوت تعمدت أن يكون متعادلاً لا يبدي اهتماماً ولا عاطفة، سألت فريدي الذي بدا وسيماً ورجلاً مكتملاً:

- أليست هذه رفمة؟ هل هي مريضة؟ تبدو عليلة.

فريدي أكثر الزنوج الخلاسيين بروداً، يتصرف كأن لا شيء يعنيه في الكون، يجيب بأتوماتيكية تشبه سؤالي:

- هي، لقد نحلت واكتأبت منذ حبست في الحظيرة، ولكني أظنها الآن بخير.

لم أسترسل في الحديث حول العبدة التي نحل جسدها، وأدرنا حوارنا حول نتاج المزرعة وهل بالإمكان زيادته واستغلال التجارة به مع

الضيوف المرتقبين، كنت أأتمن الرجل على المخازن التي ستودع فيها البضائع المرتقبة، وأخطط معه حول من سيقوم بالنقل، وهل بالإمكان إحضار العربات اللازمة، أعرف أن الأوان مناسب لأجني ثروة لا بأس بها مع عملائي الجدد.

تعرف زوجتي أني أعتمد على الفتي ابن الخادمة في أعمالي، ولا تعترض، لقد كفت عن الاعتراض مع ندرة العمال، كما أن فريدي قد هيأ ابنه الأكبر وثلاثة من عمال المزرعة ليتحولوا إلى خدم منزل في الفترة التي سيزورنا فيها الضيوف، تواصلت الحركة في القصر، نجارون وعمال ومنجدو الأرائك، والنسوة اللواتي عكفن على تلميع الأدوات الفضية وغسل الستائر، وجزارون وباعة الخضار. هيأت زوجتي ثياباً جديدة لائقة لها ولابنتنا. تتجول رفمة في نشاط ولا ترفع ناظريها نحوي، كما رأيتها تعلق ثيابها المبتلة على فرع من فروع السنديانة المجاورة لبيت نيتا، عندها نظرت نحوي نظرة خاطفة، ودلفت إلى حجرتها، يدفعني النشاط في القصر إلى الجلوس في الشرفة لاحتساء النبيذ، أو إلى زيارة أمي القعيدة في بيت نيتا.

هرمت أمي وهرمت معها، توحدت تماماً رغم كل الانشغالات الراهنة، أشعر بحرقة أني مجرد ابن آمر المزرعة المرفوض.

استسلم أهل بيت شقيقتي للنوم وشخرت أمي، فسرت بهدوء عائداً

إلى القصر، في العتمة دب في قلبي اشتياق عارم، أردت دفن رأسي في حضنها واحتضان رأسها الخالي من الشعر، أردت أن أكون في الجزائر مجدداً.

دفعت باب حجرتها المتهالك، فتحركت فوق الحشية الأرضية ورفعت رأسها اتجاهي، التمعت عيناها في هيكلها الأسود، لا أعرف ماذا رأت مني، هل كان طيفي يشي بأنه أنا؟ لقد انزاحت قليلاً في فراشها، وشممت في المكان رائحة عرقها، كثيفة وفادحة تماماً كما كانت رائحة حزينة حين ركبت السفينة. جثوت على ركبتي فتنهدت، وفي العتمة تعانق طيفانا لثوان، ثم وقفتُ ورددت الباب وعدت إليها بشبق مجنون.

واظبت على زيارة أمي، ولم أكن أفعل سابقاً، كنت أخرج من بيت نيتا كالمخبول إلى امرأتي السوداء، حاولت التنصل مني بعد ليلتنا الأولى، أصابها الهلع، قلقة من انكشاف أمرنا، تنطق باسم زوجتي وهي تتأتىء، ولكنها تقع تحتي في كل مرة مستسلمة، باكية أحياناً، متجاوبة أحياناً. في الليالي الرائقة بيننا تستعيد ذكرى حبسها في الحظيرة بمرارة، ولا أعرف ما الذي يجعلها متوجعة إلى هذا الحد من نومها لليلة بين الخراف والأغنام، لقد رأيتها تعمل في المزرعة والبيت بطاقة تفوق قدرتها كما لو كانت مجموعة من الرجال، وتذل على يد

زوجتي بالكلمات وعلى يد شقيقتي بالسوط الجلدي، لكنها لم تشكُ دامعة إلا مرارة الحبس في الحظيرة، رغم تعاطفي مع آلامها إلا أني صرت رجلاً سعيداً، كنت أكمل الإجراءات الخاصة باستقبال ضيوفي بحماسة ونشاط لم يعهده أحد مني في المزرعة، عادة أكون نشيطاً في السفر، ولكني أخمد فجأة إذا عدت إلى بيتي، الآن وبعد تلك الليالي الشبقة دب فيّ حماس جديد جعل فريدي يبتسم دون تعليق، لهذا الفتى ابتسامة خفية تذكرني بأبي.

وصل سانشو برفقة زواري المرتقبين، وعاتبتني زوجتي برقة أمامهم إذ لم أخبرها أن شقيقها قادم معهم، وقلت إني أردت مفاجأتها، كما في مسرحية هزلية، كنا نضحك ونتمازح ونمثل ببراعة منقطعة النظير أمام مجموعة من التجار وصلوا في سيارات ثلاث، إحداها تجر مقطورة ثقيلة تبطىء الحركة، استجاب عبيد المزرعة لأوامري في نقل البضائع الثقيلة إلى المخزن المعد لها، وتركتني زوجتي أصدر الأوامر ككونت حقيقي، ذهبنا بضيوفنا إلى ردهة القصر التي أنيرت بالكامل قبل أن يهبط الظلام، وجاء الفتيان الذين تم اختيارهم بأكواب من عصير الليمون والبرتقال في كاسات كريستالية، يديرهم ابن فريدي الوسيم بيدرو وقد بلغ العاشرة من عمره، شرب الضيوف بظمأ وسرعة، جاملونا وأثنوا على الاستقبال، قبلوا كف زوجتي وابنتي أوريانا التي

في مفاجأة حقيقية لي بدت شابة جميلة بثوبها الوردي الجديد الذي يكشف ذراعيها ويضيق عند خصرها بحزام جلدي أسود، حتى خالها دهش لمرآها وأبدى إعجابه، فتبعه الضيوف بعبارات المجاملة المعهودة، تفحصتهم عينا كارولينا بخبث، حين توجهوا إلى الجناح الغربي لينعموا باستراحة تسبق العشاء، وصفتهم بعناية. قالت إنها لم تحب تاجر الأسلحة اليهودي ميرو وإن علي الحذر عند التعامل معه، كما وجدت عمانويل الرجل الخمسيني كثير الضحك رجلاً فجاً لديه الكثير من الإشارات التي تدل على أصله المتواضع، ولم يكن يستحق اسمه كما ظنت، أما ولده الشاب خورخي فيبدو إمعة لا وزن له، ولكنها تعجبت ما الذي أتي بالشاب المهيب الطويل غارسيا دي ريغا بين هؤلاء الحثالة، ربما كان ذات السبب الذي حشر اسم شقيقها سانشو ابن الكونت كارمو.

مضت أربع ساعات وهم في استراحتهم، والقصر على أهبة الاستعداد للعشاء، أعيد فرش المائدة المستطيلة التي تتوسط حجرة الطعام بمفرش مخرم من الدانتيل الفاخر تمكنت شقيقتي من اقتراضه من الكنيسة. رغم ذلك لم تتم دعوتها على العشاء.

بدلت زوجتي وابنتي ثيابهما، وتزينت زوجتي ببعض مجوهراتها المودعة في صندوق مقفل، استيقظ الجميع نشيطين، وتجمعنا على

الشرفة، تحرك الخدم ينقلون الطعام في حين تحدثت مع ضيوفي حول الصفقة التي سنقوم بنقلها فيما بعد إلى الأراضي الإسبانية، وتعاملت بذكاء وأنا أغريهم بتجربة نبيذ المزرعة الذي سيلاقي رواجاً في أوروبا كما لاقى في أفريقيا، لم تسترعي صفقة النبيذ اهتمامهم إلا الشاب خورخى، الذي بدا راغباً في مثل هذا التعامل، ولم تفارق عيناه أوريانا التي تحاول أمها أن تمد بينها وبين الشاب غارسيا خيوطاً من الكلام، بدت واهية ولا معنى لها لأن غارسيا الذي جلس قربها انشغل بالحديث مع سانشو في آخر أخبار الحرب، كانا ممتنين لسيد البرتغال سالازار تجنيب البلاد الخراب والضحايا والامتناع عن إطلاق طلقة واحدة، وفتح الموانئ ممرات للمهاجرين إلى الولايات المتحدة هرباً من جحيم أوروبا، وإتاحة الفرصة للصناعة وكافة المهن التي تحتاجها الحرب بشدة، عدا عن نشاط المصارف الذي جعل النقود تتدفق بين أيدي التجار في حين لا يجد الأوربيون قطعة سكر لتحلية شايهم. استعرض الشابان حسنات كثيرة ثم عكسا حديثهما متذمرين، تخوفا من إدارة البلاد بقبضة حديدية وجلد الحريات بصرامة، عددا وقائع ملاحقة السياسين والمفكرين وتكبيل الصحافة، وأبديا قلقهما من خسف الأجور لكثير من العامة، إضافة إلى ضبابية الموقف السياسي، فتارة يسود التعاطف مع هتلر وتارة تؤجر الجزر البرتغالية لقوات

الحلفاء؛ ظنا أن هذه البهلوانيات خطرة في عالم السياسة، وأن البلاد لا شك تدخل في مستنقع طيني سيكلفها غالياً مع انتهاء الحرب.

اعتبرت ما يقوله الشاب غارسيا حيرة طبيعية يمكن أن تصيب أي مواطن عادي، فأنا لا أعرفه على أية حال، ولكني ابتسمت ساخراً وأنا أسمع آراء سانشو تتبدل إلى النقيض تماماً، تتأرجح بين رضا وسخط، بالنسبة لي لا تعكس هذه الأفكار المتضاربة حيرة من نوع ما، لكنها تستجيب لقياس حذر يتعلق بالمكتسبات، هذا ما تفعله الثروات والمصالح، تعيد الأبناء الضالين والأغنام الشاردة إلى قاطرة الرأسمالية والمصالح وإلى السكة المرسومة سلفاً.

انزعجت كارولينا من حديث الحرب الذي يقوده شقيقها، ولم تفلح في لفت انتباه الشاب غارسيا إلى ابنتها، عن نفسي كنت أكتفي بمراعاة أهدافي، أؤكد على صفقة السلاح مع مهرب السلاح وميرو والرجل الخبير المراوغ عمانويل، كما أضع النقاط على صفقة النبيذ مع ولده النزق خورخي، تفعل الحرب بي ما تفعله بالأثرياء، فقد بت واحداً منهم. أقنعت الغر خورخي بأن نبيذنا لا يقل جودة عن نبيذ دويرو الشهير، في أسوأ الأحوال يشبه نبيذ بورتو حلو المذاق، كنت عملياً، فإذا صمتُ، تظاهرت بسماع الحوارات الجانبية وضحكت مع الضاحكين ونظراتي تتابع عبر الباب الخشبي المفتوح على مصراعيه

جسد رفمة في حركتها الدائبة في حجرة الطعام.

انتقلنا إلى المائدة، لا أتذكر أن تلك المائدة قد تم استخدامها على هذا النحو منذ أصبحت فرداً في تلك العائلة المتعالية، ولكن ذكريات بعيدة ترجع لي حاملة صورة الكونت كارمو وهو يقيم حفلاته ويستقبل ضيوفه، كنت أتلصص عليهم من وراء الشرفة، وها أنذا اليوم جالس على رأس المائدة العامرة أتبادل الأنخاب مع ضيوفي أفاقي الطرق أثرياء الحرب الجدد متأكداً أن أثرياء الماضي بنوا ثرواتهم على ظهر حرب ما قديمة.

اكتظت المائدة بالأطباق الخزفية المزخرفة والأواني، وبأنواع متعددة من النبيذ وحساء كالديرادا الشهي، وأسماك متنوعة، ولحوم مشوية ودجاج يسبح في مرق كثيف وتوسطها خنزير مشوي، بينما تناثرت على أطراف المائدة أطباق شهية لمعجنات اللوز التي جلبناها من الكنيسة. رفعت الأطباق وجيء بالحلوى، ورغم الشبع تناولنا اللوز الحلو والتين وحلويات كثيرة ممزوجة بالجبن وأخرى بالفاكهة، أطباق لا أعرف لها اسماً حضرت في هذا اليوم الحاسم الذي سيجعلنا من كبار الأثرياء.

انتهت السهرة بالشاب خورخى يرفع غيتاراً ويعزف موسيقى الفادو الحزينة ويغني بصوت أجش كلمات مجروحة عن خسارات وأوجاع،

رغم أن عينيه كانتا تبرقان بفرح وهو ينظر إلى أوريانا، وقد احترم الجميع الغناء الحزين فاستمعوا بانتباه، إلا سانشو الذي راح يعبث برأس الزنجي الصغير بيدرو شاكراً له حسن الخدمة، وغارسيا الذي يتحدث بجدية عن الشخوص التي اخترعها الأديب الشاعر بيسوا قائلاً إنها مرايا لنفسه. أما أنا فمن موقعي رأيت طيف آوا يقعي في الشرفة متصنتاً على اللحن الحزين، وفي أعطافها طيف رفمة وقد اتكأ رأسها على كتف السنغالية العجوز، فيما بعد أخبرتني رفمة أنها بكت بصمت وهي تسمع رجع الوتر الحزين.

مكث الضيوف في المزرعة ليومين، وما أن غادرونا حتى عدت إلى لهفتي في لقاء امرأتي السوداء، لهذا لم أناقش زوجتي وهي تهيئ لإرسال ابنتي إلى لسبون، قالت إنها فتاة تحتاج إلى بعض خبرات المدينة، فقد تلتحق بمعهد لدراسة اللغة الفرنسية أو الإنجليزية، وقد تبتاع ثياباً أجمل وتتحسن ذائقتها، وقد تعاشر أناساً ذوي شأن من معارف خالها، وقد تجد عريساً يليق بها كحفيدة للكونت كارمو، كانت زوجتي تفعل ما بدا لها، وأعود إلى زيارة أمي، واشباع جسدي وروحي في الحجرة الحقيرة الملحقة ببيت نيتا.

بدأت زوجتي في مراسلة شقيقها للترتيب لالتحاق ابنتها به، وأرسل الضيوف سيارت لشحن البضائع على دفعات بعد ذلك وتركت

معالجة الأمر لفريدي الذي أصبح يعرف كل شاردة وواردة، وتفرغت تماماً لهوسي الأسود الفتان، أقضي نهاري في متابعتها وهي تنجز مهامها، لا تكاد تنظر إلى وجهي، تتجاهلني وأتجاهلها، فإذا جن الليل كان لنا شأن آخر.

بدأت الأرباح تتدفق، ولم يكن من الممكن ترك الأمر كلية لابن الخادمة فريدي، استعنت بشاب كان يعمل معلماً في مدرسة البلدة ليجرد لي حساباتي الجديدة على نحو مدروس، وعملت على استيراد قوارير متوسطة الحجم أنيقة لتعبئة نبيذ المزرعة وكتبت فوق ورقة لاصقة على الزجاجة «نبيذ ديدو من أرض فاتيما المباركة»، أرسلت لخورخي كميات منتظمة من النبيذ، فغمرني بالهدايا، بعضها مخصص للشابة أوريانا. ظلت هذه صفقة هامشية في حين أن الصفقة الحقيقية تمثلت في خروج السلاح من مخازني بكميات معلومة ليحل محله المزيد منه، إضافة إلى صناديق المؤن التي تهرب إلى إسبانيا، دبت الحياة في ديدو.

لم أنتبه في البداية إلى أن حياة أخرى تتشكل، كان بطن سودائي يبرز على مهله، في مرحلة مناسبة التفت إلى الأمر ودب الفزع في أوصالي، كل ما بنيته في حياتي على وشك أن يتبدد، ستسقط السماء فوق رأسي وتحطم جمجمتي، ماتت لهفتي على المرأة السرية التي تمتعني،

وحل الخوف مكانها، لم يكن الوقت مناسباً لمثل هذاالانقلاب الفضائحي القاسي، فالمزرعة تعج بالنشاط والأرباح تتدفق، والضيوف لا ينقطعون، وزوجتي راضية نسبياً، هل ستدمر رفمة كل هذا بغبائها؟

***

لم أخدع نفسي هذه المرة، منذ الليلة الغامضة التي سقط فيها هيكل سيدي فوق جسدي، لم أمني النفس بليالي الجزائر العتيقة، أكتم حسي حتى لا أتعرض لعقوبة ما تنزلها عليّ نيتا القاسية أو كارولينا الشريرة، أتفلت وأدفعه مرات ويفلت جسدي من عقلي في مرات فيستسلم بخنوع، أكاد لا أعرفني، كأني ضعت من نفسي في مزرعة العبودية التي أتحرك فيها كما لو كنت كلبة لا تعرف الفرح، لقد علمني جسدي أن الروح تشاركه حريته إذا ما باح برغباته وانفجراته، فإذا غابت فإن كل ما يقع على الجسد ما هو إلا تنكيل لئيم، لم أعد أحب تنكيله بجسدي. أرى نظرات الزهو في عينيه إذا التقينا في النهار، حين يهرب من ناظري سريعاً كي لا تلتقطه زوجته، بعض الأحيان أشعر أن آوا تعرف، ولكنها صامتة مثل حجر، منشغلة بما يشغل عائلتها وقد ازدادت أعباؤهم جميعاً والبيت يتعرض لتجديدات، والمخازن تتوسع في إضافات لتستوعب ما يأتي به الزوار الغامضون

الذي يخزنون بضائعهم في المزرعة ثم يعودون لاستردادها، يبدو سيداً مبتهجاً على الدوام، وحين يضمني في المساء يكذب في سبب بهجته قائلاً إني أنا من جعله على هذا النحو، كيف يكون ذلك وروحي تتفتت على مهل!

في فوضى ما يحدث في المكان نسيت تماماً توصيات آوا التي نصحتني ألا يحمل بطني نطفة رجل ليس زوجاً لي، ورغم أني نضجت فإني لم أتمكن من منع تلك النطفة من النمو في أحشائي، لسبب لا أعرفه ظننت جسدي لا ينجب، فقد عرضته لكثير من النطف في مطلع صباي ثم في مغامرة الجزائر وظل مثل جسد فرس أصيلة يصهل دون تبعات، لهذا تملكني اليأس حين أقعيت أرجع ما في معدتي وأصابني دوار هو بعض آثار الحمل، تملكني الشك أولاً، وقمت بمزيد من المهام التي من شأنها أن تهد جسد الأنثى فلا يقوى على تبعات الحمل، حملت الأكياس والشوالات الثقيلة، ساعدت أبناء فريدي في ضرب التراب بالفأس، تسلقت الأشجار وسقطت عنها، فعلت كل ما في وسعي وأنا أزداد خوفاً ونفوراً، قبل أن ينتبه سيدي إلى بطني الذي ارتفع بمقدار.

في عتمة الحجرة الضيقة التي نتعاشر على أرضها؛ ركلني في خاصرتي، وشد شعر رأسي الذي نما وتجدل، صفعني صفعات متتالية فتكورت

لأحمي وجهي من غضبته المفاجئة، ثم حين أجهشت بالبكاء قرفص في مكانه وضم رأسه بذراعيه واهتز بعنف اهتزازات تشي بأنه يبكي، كان بامكاني سماع نحيبه وشكواه بأني سأدمر حياته لو عرفت زوجته، قلت بصلافة:

- لن تعرف، لن أفتح فمي لو انطبقت السماء على الأرض.

لم يصدقني، قال إني سأفضحه عندما يتم تعذيبي، فاقترحت عليه إرسالي إلى لسبون برفقة ابنته إلى خالها سانشو، شد شعري مجدداً واتهمني بأني لا بد عاشرت سانشو عند وصولي لسبون، أو في واحدة من زيارته الكثيرة.

انقلب سيدي إلى رجل غاضب أو وحش حائر، تحول إلى شيطان مقهور، كأنه مرآة زوجته، كأن جسده لم يضم جسدي ملهوفاً يوماً.

لم نكن قد وجدنا حلاً ناجعاً لما يحدث حتى استوقفتني نيتا وجعلتني أدور حول نفسي، ثم جلدتني بقسوة، كما سمعت صوت صراخها مساءً وزوجها الذي لم يكن يظهر إلا في أوقات متباعدة، تشاجرا وهي تدفع إليه بالكتاب المقدس وتستحلفه إن كان له شأن بحبلي، صفق الرجل باب بيته ليلاً وعاد أدراجه من حيث أتى، وخرجت نيتا وراءه تجوح وفي يدها سوطها الموجع، داهمتني في الحجرة الضيقة وانهالت ضرباً، لم تكن آوا أو فريدي قادرين على أن

يحولا بين سوطها وجسدي، وهكذا انفجرت فضيحتي في المزرعة، وفتحت أبواب القصر، خرج الجميع يتفرجون على عقابي، لم يكن سيدي بينهم، في شعور غامض تمنيت أن تقود قسوة العقاب إلى سقوط النطفة من أحشائي، لكن ذلك لم يحدث، واقتادتني كارولينا مجرورة في الطين إلى شرفة القصر، صرفت الجميع، وجلست قبالي حانقة، تحشرج صوتها وهي تسأل عن هوية من زرعني، كنت وفية لقسمي، لن أبوح ولو انطبقت السماء على الأرض.

طال التحقيق كل ذكور المزرعة، عمالاً وخدماً، جلد كافة العبيد، حتى فريدي نال نصيبه من الجلد، وهددت الخادمات وشويت أذرعهن ليبحن إذا كن يعرفن سر حبلي، بينما أودعت مقيدة حجرة صغيرة قرب المخزن غلقت برتاج ثقيل، بكت آوا وهي ترجوني أن أصرح باسم شريكي حتى يرتاح الجميع، لكن ارتجاف صوتها يتوسل ألا أبوح.

تقرحت جراحي وأنتنت، لكني ظللت ملتفتة حول بطني، خلافاً لأمنياتي السابقة داهمتني لهفة شديدة ومفاجئة في الحفاظ على فلذة بدني، لم أعد أريد الخلاص منه، رحت أحمي رحمي من الضرر الذي أصاب جسدي في كل بقعة منه، كما تبدد الألم فجأة، الأمر الذي كان يشعرني بمرارة ما يحدث لي في غياب سيدي، لم أسأل عن غيابه،

وتنامت إلي إشارات على سفره بعيداً عن المزرعة، ثم ظهوره فجأة، ثم غيابه، في كل ذهابه وإيابه لم أره، كأنما كان كابوساً خدش أحلامي ومضى، وفي وحدتي في حجرة المخزن لم يعد صوتي يعلو، صمت تماماً إلا من أنين خفيف بين حين وآخر، لم أهتم بالجراح على رسغيّ أو في كاحلي جراء الربط بحبل خشن، لم يفزعني القيح من جراحي، ولا أرهبتني الحمى التي كانت تضربني حد الهذيان، كما لم أكن ممتنة كثيراً كلما دلفت آوا إلى محبسي تحمل طعاماً وراحت تنظف جراحي وتنوح، مضت أشهر لم أر فيها ضوء الشمس عياناً، ولكني شاهدت ضياءها يفج في سماء زرقاء بعيدة حيث كنت طليقة أجري ضاحكة وسط حقل فول سوداني تهرب حولي بعض القرود ويلاحقني العشاق، ثم أصحو على واقعي.

انتظرت سيدة القصر بصبر غريب ولادتي، وحين دب فيّ الطلق، جاءت تقف على ولادتي، تفصد عرقي ولم أصرخ، فكوا قدميّ فأرخيتهما إلى جانبي جسدي وفتحتهما حتى تفسحا لابن بطني القادم، وفي الباب وقفت أفي تنتظر، بينما آوا تضغط بطني وتحضني على دفع جنيني خارجي، وكانت عينا كارولينا مفتوحتين على تربص وانتظار جزع، شعرت بالدفء ينساب بين فخذي ثم كرة صلبة تشق فرجي من الداخل إلى الخارج، تنشقت بعمق ثم زفرت، وانزلقت

مولودتي، همست آوا:

- بنت.

قبل أن أسمع صوتها، وبينما السنغالية العجوز تمسح جسدها الصغير المعلق في الهواء بخرقة خشنة تزيل دمي عن بشرتها الغضة وتربت على مؤخرتها. صاحت كارولينا فزعة:

- ليست سوداء، مخلطة، كريولو.

***

كريولو

- كريولو.. كريولو..

صاحوا وتهامسوا باسمها قبل أن أتبينها، استرقت نظرة خاطفة من بين انثيالات عرقي وأدمعي، وشهقت كأني أموت، فإذا بها تنزلق من رحمي، لمحتها مرفوعة، لحمة ملتوية كأنها فاصولياء صغيرة أوأقرب ما تكون إلى حبة فستق «مجاوة» تتأرجح في الهواء، حمراء أو بنية شقراء، تدبغ بشرتها نتف من ماء رحمي ودمي، لم أتمكن من رؤية عينيها في الكرة المتدلية كرأس، مخلوق غرائبي يتطوح في كف السنغالية العجوز، بينما كفها الأخرى تربت مؤخرة اللحمة المدماة، وفجأة انفتح فم على جرعة الهواء المفاجئة وصرخت قطعة اللحم محتجة، وسمعت صياح سيدتي أيضاً تجوح مفجوعة:

- كريولو.. كريولو.

لماذا كريولو؟ أي اسم يدعون به مولودتي التي اختفت فجأة!

استعدت انتباهي وهمست آوا في أذني ألا أحزن؛ فالطفلة بخير تتكفل بها أفي بين صغارها. لماذا؟ ألست أنا أمها؟ لماذا أبعدوها عني سريعاً؟ ولماذا يسمونها كريولو؟ أريد تسميتها «اللمون»، لا يعنيني ما تشرحه آوا من دلالات الاسم الغريب، فالكريولو أولاد سود يجري في

دمائهم بياض آبائهم. أردت الصراخ: لا علاقة لي بالسود أو البيض، لا أعرفهم ولا يعرفونني، ولست أأتمن أفي، أعطوني ابنتي.

لم أُمنح فرصة الاحتجاج، صدرت أوامر سيدتي بحبسي في الحظيرة، ظننت أني مجدداً سأودع مع الأغنام التي أكره رائحتها، لكن سيدتي الغاضبة من الدم الأبيض الجلي في بشرة ابنتي أعدت لي عقاباً أقسى، فأرسلتني إلى حظيرة الخنازير.

لم تستدع مهامي من قبل التعامل مع تلك الحظيرة التي بنيت من الأخشاب في أبعد بقعة في المزرعة، ولم أكن قد استوعبت بعد فظاعة العقاب.

ترنحت مستندة على ذراعي اثنين من الخدم ينفذان أوامر السيدة، سفع الهواء وجهي منعشاً، لكنه سرعان ما انقبض محملاً برائحة حمضية عفنة ثقيلة حين وصلنا أقصى المزرعة، شرع الخدم باب الحظيرة الخشبي الموصد برتاج ضخم، ودفعوا بي إلى الداخل ثم أعادوا إغلاقه، فقدت توازني ووقعت أرضاً على رخاوة لزجة، سمعت حمحمات مقتضبة وحشرجات متواصلة، وتدافعت حولي أرجل الخنازير الثقيلة فحشرتني أجسامها الوردية إلى البوابة، تقدمت أنوفها الاسطوانية تشمني بمناخير مفتوحة واسعة، صرخت وتكورت على جسدي ضامة رأسي بذراعي، فغرقت مؤخرتي في طعام لزج عفن

تُـرك علـى أرضـية الحظيـرة لعشـرين خنزيـر أحاطـت بـي تتحسسـني بأجسادها القوية العفية. تعودت الخنـازير المستأنسـة أن يدخل عليها فريدي أو أحد صبيانه بأكياس الطعام المجلوب من بقايا مطبخ القصر أو بقايـا مطـبخ أفي وقمامـة العمـال في المعصـرة، لـم تصـب بـالهلع لوجودي ولكن فضـولها أرعبنـي، ومـا أن اعتـدت احتكاكهـا بجسـدي حتى تنبهت للطين الذي غمـر قـدمي ولثـوبي المرفـوع ودمـاء النفـاس التي فاضت على طول فخذيّ، تنبهت الخنازير أيضـاً وراحت تلعقني رغم كـل محـاولاتي لضـم سـاقيّ وحمايـة جسـدي، لـم يـأت صـراخي بأحد إلى الحظيرة، كأني خارج العالم.

الآن أكثر مـن أي وقـت مضـى أحتـاج إلـى كائنـاتي القويـة، لتمـد يـدها لإنقاذي، لترفع روحي إلى حيث أتيقن مـن إنسـانيتي، جـاءتني أطيافـاً شفافة بعيدة حومت في فضاء الحظيرة، لكنها لم تقـترب مني، تركتني لمصير مفجع. بعـد معانـاة يـومين دون نـوم، هلوسـت قلـيلاً وتقيـأت، ورغـم أن دمي يندلق بين فخذي ويجف تباعـاً، إلا أني نمت وشـخرت كما قباع الخنازير، ورأيت ذات الحلم: رأيتني ذاهبة إلى مزرعة الفول ثـم التـوى كـاحلي، وبـدأت أتسـاقط عضـواً عضـواً. صـحوت علـى اختناقي برائحة بقايا الطعام المخثرة في الطين، ورأيـت فريـدي وولـده يفرغان كيس القمامة والخنازير تتدافع نحوهما، نظرني فريدي مشـفقاً

فلم أقو على الكلام، اقترب مني والخنازير منشغلة بتقليب طعامها، أخرج من جيبه منديلاً لف فيه حبتان من البطاطا المشوية، قدمها لي، تناولتها بوهن، ثم من جيبه الآخر أخرج لفافة، مدها نحوي كأنه يعتذر هامسًا:

- هذا من أمي.

أمسكت بمنديل الطعام في يد وتناولت بيدي الأخرى اللفافة، فضضتها عن مسبحة خشبية تشبه المسبحة التي تحملها نيتا في صلاة الأحد، وتلك التي تتدلى من كف السيدة الحجرية الواقفة كما لو أنها ستطير فوق مبنى الكنيسة. لم أقل شيئًا وإذ استدار وولده مغادرين الحظيرة موصدين بوابتها خلفهما، رميت المسبحة أرضًا، فأنا لا أعرف ماذا علي أن أصنع بها، وتشبثت بطعامي أنهشه بحيوانية كما تنهش الخنازير أكوام الطعام العفنة أمامها.

البرد قارس في الحظيرة، تتسلل أشعة الشمس شحيحة خجولة في موقعين متباعدين من فجوتين ضيقتين في السقف الخشبي، يبدو كل ما هو خشبي مبتل، تجتاح البرودة عظامي ولا أشعر بالدفء رغم ملاحقتي لخيوط الشعاع المتسللة من الزاويتين المتباعدتين، وتسليم قدمي لدفء وهمي ينبثق من خمائر الطعام التي تحللت حولي وتحتي ونفثت بوخًا ثقيلاً، أحيانًا أقتنص الحرارة في أجساد الخنازير

التـي يخرجونهـا مـن الحظيـرة لتتشـمس وتعـود، أنـا لا أخـرج، ولا الحظيـرة يعـاد تنظيفهـا. أيـام مختلطـة لا أجيـد عـدها، تنقضـي وسـط البرودة الحامضة والرائحة النتنة، يتصلب نهداي ثم ينزان بياضـاً دبقـاً سرعان ما يجف، يفقدان استدارة كتلتهما ويرتميـان علـى صـدر يتنهد بصعوبة، يتراءى لي طيف كتلة اللحم المدماة، حبة الفستق التي هي ابنتي، ماذا تأكل؟ أين تنام؟ ثم أنساها.

أحاول الخلاص من الديدان التي تقرض ساقي ملتصقة بلؤم، فتخرج مزق من جلدي بين أناملي، أخلع ثوبي مرتجفة وأنفضه من حشرات مرئية وأخرى خفية، ثم أعـاود ارتـداءه علـى قذارتـه، تيبس الـدم علـى مؤخرته تماماً لكني كورته ومسحت بنسيجه سيلان الدم الخاثر الذي نز فجأة مني، أتأوه ثم أفقد قدرتي على الأنين، حين لـم تعـد لـي طاقة علـى ضـم فخـذي لعقـت الخنـازير دمـي بشـهية، وأغمضـت عينـيّ باستسلام منتظرة الموت.

لا أموت، أنا فقط أتعود، حين يتـأخر فريـدي بإحضـار حبـات البطاطـا المشوية أنبش أكوام الطعام وبقايا المطابخ كمـا تفعـل الخنـازير، أعثر أحيانـاً على بقايا برتقالة، أقضم قشرتها التي لم يطلها العفن، لا أتناول مخلفـات الأسـماك ولحـوم الطيـور فقـد تسـبقني الديـدان إليهـا والخنازير، يتباطأ ذهني كضوء ينوس، لا أهتم بالمشـهد الـذي أراه أو

الحالة التي أنا عليها، تتوقف الأحلام عن التكشف لعقلي النائم، أسمع همسها كهسيس بعيداً كأنها أيضاً تتآمر عليّ.

انقطع نزيف دمي، ولم تعد الأنوف الاسطوانية للخنازير ترعبني وهي تحتك بفخذي، كما فقد الزمن معناه، لا أميز الليل من النهار، وأعي في لحظة خاطفة أن خراباً أصابني، لم أعد أشتم رائحة الحظيرة، كفت أكوام القمامة حولي عن بث روائحها، لا رائحة على الإطلاق رغم سماعي نقر المطر على سقف الحظيرة وسيلان المياه من شقوق السقف الخشبية، وتحول المكان إلى مستنقع من الطين والقذورات، تغرس الديدان أطرافها في أطرافي فلا تترك ألماً ولا وخزاً، لا حس على الاطلاق، تبلدت، لم أعد أحرك مؤخرتي تلقائياً إذا تبولت أو تبرزت مبتعدة عن موقع البراز، لم يعد هذا مهماً، ظننت فجأة أن الله استجاب لأمنياتي، ظننت أني مت.

***

صليت بخشوع للمرة الأولى في حياتي الطويلة المملة التي باتت عبئاً على قلبي العجوز، صليت لإله يسمعني ولا شك، لا يشبه الإله الذي يصدحون باسمه في أعالي المآذن في السنغال البعيدة، ولا هذا المصلوب على واجهة جدار في الكنيسة، إله يرأف بحال الفتاة التي بدت لي نسخة عني ولكن أكثر اكتمالاً وعزيمة وقوة، فما حل بها أيقظ

جراحي النائمة، لأني ولفرط اعتيادي حياتي الصعبة البائسة خدعت نفسي وتوهمت أن السعادة عرفت دربها إلى قلبي، ألم أحب آمر المزرعة؟ ألم أحتضن طفلي وأنعم بأحفادي؟ ألست أقتات طعاماً دسماً لذيذاً حتى بت امرأة سمينة؟ ألسنا نغني وندق الأدوات النحاسية أحياناً استجلاباً للبهجة؟ كأننا لم نباع ونشترى، كأننا لم نغادر سماء بلادنا لنكون عبيداً، كان بإمكاننا أن نفرح بين الفينة والأخرى. أحببت أسيادي حتى خيل لي أني بعض منهم، صاروا عالمي أو قدري، خدرتني الحياة بأوهامي السعيدة التي بدأت أنسجها منذ اللحظة التي فارقت فيها وجه أمي وهي تمضي مختنقة مشلوعة الرأس بعجلة خشبية في الميناء. لقد تناسيت أني مجرد عبدة سوداء، تجرأت على احتضان سانشو رضيعاً كأنه ولدي، غنيت له أغان سمعت نسوة سنغاليات يرددنها في الماضي، باركت عشق كارولينا كأني جدتها الحنون، وتواطأت معها لتهرب مع الفتى الذي تحب، ظننت أن الحياة تبتسم لي، وأن قدري رحيم، لم ألعن زماني حين اعتدى الكونت على طفولتي، ولا عتبت على زوجته التي أذلتني ولا ابنته التي تناست دعمي لها، لم أغضب من آمر المزرعة حين زرع نطفته في رحمي ثم أدار لي ظهره ومضى، لم أجد غضاضة في الوقوف في الكنيسة أتعمد وأعمد ولدي، لا يضايقني أن أحفادي ممنوعين من

دخول القصر الذي أمسح أغبرته وأطهو طعامه، لا أشعر بجوعهم حين أعد الموائد العامرة للسادة وضيوفهم، ولكني فجأة أنخ مثل جمل يهلك.

جروا الصبية الأفريقية إلى الحظيرة أمام ناظري، وأصدرت سيدتي أوامرها بألا تنظف الحظيرة بتاتاً، ومُنعنا من إرسال الطعام للمرأة النفساء. تتحرك كارولينا مثل ضبع حبيس في الشرفة أو بين الأشجار تراقبنا خوفاً من خرق أوامرها، لا أجد في جثتي الضعيفة المتهالكة قوة تساعدني على مد يد العون للصبية.

أرغمت أفي على ضم المولودة البنية اللون إلى أطفالها، بتنا نسميها ابنة رفمة أو كريولو، لم يكن هذا اسماً لها، فقط مجرد لقب نتعرف من خلاله على هذا الجسد الضئيل الذي جمع بين لونين في فرادة غريبة، خلاسية يتسيد الأبيض على بشرتها بنسبة أكبر، لون أطار عقل سيدتي، كما دبت الفتنة في بيت نيتا التي تصايحت وزوجها وحملت الإنجيل مرات عديدة فجعلته يقسم أنه غير مسؤول عن هذه الكريولو الصغيرة.

دسست حبات البطاطا في جيب سروال فريدي لتأكل، وأرسلت لها بمسبحة أوقن أنها ستعرف كيف تمسك بها وتنادي السيدة الجليلة لخلاصها، مع ذلك رحت أذوي. أنتظر سيدي سارماغو على أمل

ضئيل بأن ينقذ الفتاة، ورغم الحمى التي تركتني طريحة الفراش أتابع بنفسي ترطيب قطع من القماش بالسكر والماء أو بعض حليب الماعز المخفف، وعصره في فم الرضيعة النحيلة التي لا تحمل اسماً، متأكدة بأنها لن تحتمل، ستموت لا محالة، ولكني لن أسمح أن يكون موتها بسبب تخلينا عنها، ولدهشتي خالفت الرضيعة كل التوقعات، تبكي كثيراً وتأكل قليلاً، ضئيلة متعبة، لكنها عاشت.

أفز فجأة كأني سمعت هدير سيارة سيدي، أصيح بأحد أحفادي ليهرع خارجاً ويتيقن من وصول السيد، يعود هازاً رأسه بالنفي، يصدر العمال والمشترون ضجة ويعيشون فوضى عارمة حين يجيئون، وتراقبهم سيدتي بخبث، عل أحدهم هو الذي زرع رحم الصبية، تنتظر أن يسأل عن غيابها أو يفتقدها، إلا أن شيئاً لا يحدث، سوى أني أنهدم من الداخل وأتيقن من عبوديتي التي سأموت عليها.

طلبت من ابني وزوجته أن يحملا الرضيعة إلى الكنيسة ويعمداها ابنة لهما، صرخت أفي رافضة الفكرة وسخر فريدي من اقتراحي، هذا الولد يزداد عجرفة منذ ولاه ساراماغو مهاماً أعلى في المزرعة ومعصرة العنب، وبات يعتمد عليه في تعبئة القوارير التي تحمل اسم ديدو، وبما أن سيد المزرعة غائب فولدي يتصرف كما لو أنه السيد، أيها الفتى الذي جاء بك رحمي إلى الدنيا، لو أنك تعرف حقيقة

علاقتك بالسيد، تلك العلاقة التي لا نقوى على ادعائها، سري الذي أدفنه معي، في لحظات كهذه تنزع الرحمة من قلب ابني، يصبح مثلهم تماماً. أما زوجته التي تعنى بشؤون الطفلة بآلية تامة فهي أكثر غباء من أن تعرف الرحمة قلبها.

قفز حفيدي فجأة صائحاً:

- عاد السيد.

طحنت سيارته الحصى في بوابة القصر، جاء وسانشو يركبان سيارة جديدة بدواليب عالية، تحاملت على أوجاعي لأقف في الشرفة أنتظر لقاءهما، كان ذلك اليوم الذي أُخرجت فيه رفمة من الحظيرة، أخبرتني أفي أنها تكاد تموت وقد نحلت وباتت شبحاً عطن الرائحة، حملوها إلى كوخها قرب بيت نيتا وتولت أفي غسلها بماء وصابون كثير، ثم إطعامها، وتُركت لتنام.

أما أنا فقد وقفت في الشرفة راجية ظهور السيد، خرج لي سانشو الصغير يحمل غليونه العاجي، اقترب مني بوجه فزع هامساً:

- آوا! لم أعرفك.

- هل تغيرتُ إلى هذا الحد يا ولد؟

كان وجهه ممتقتاً ونظراته عطوفة، لقد حدثت أشياء تحمل الفتى نتائجها، أنكر ساراماغو شكوك زوجته وقاد الشبهة ببراعة إلى الفتى

الـذي كـان شـجاعـاً في الحفـاظ علـى سـر صـهره وإرضـاء شـقيقته الحمقاء، بدا لي كأنه فقد مرحه ولكنـه لـم يفقـد اهتمامـه، همسـت في أذنه:

- عليـك اقنـاع السـيدة كارولينـا بـأن نـذهب بالصـغيرة إلـى الكنيسـة لنعمدها.

ابتسم ساخراً:

- ولكنك لا تعتقدين أن هذا أمر مهم حقـاً، أعني ما الفرق؟

تنهدت هامسة:

- الفرق ليس عندي وعندك، نحن سنموت، وقد تعيش الصغيرة بين أناس قساة يريدون أن يعرفوا هل هي كافرة أم مؤمنة.

سحب نفسـاً من غليونه وقال وهو يشيح بوجهه بعيداً:

- افعلي ما تريدين، لن يمنعك أحد.

استأجر فريدي عربة يجرها حصان من القرية، حملتنا ورفمة المنهـارة والرضيعة، تجاوزنا أشـجار الكسـتناء التي اصـفرت أوراقهـا وتسـاقط الكثيـر منهـا، وقـف حصـاننا والعربـة في بـاب الكنيسـة، انتظرنـا مطـولاً وفريدي يتفاوض كي يؤذن لهذا الجمع الأسود بالدخول إلى الكنيسـة المقدسة، يلتفت نحوي أحيانـاً علّي أتخلى عن تلك الرغبة المستحيلة فنعود أدراجنا، فأتظاهر بـأني لا أراه، وأنتظـر بعنـاد. في النهايـة خرجـت

لوشيا للقائنا، تحاملت على نفسي وترجلت من العربة مسنودة بذراع ولدي، وقفت قبالة وجهها الرحماني المشرق متفائلة أسألها:

- ألستُ من عبيد الرب؟ ألا تحب سيدة الرحمة كل الناس؟ ألا ينطبق هذا على السود؟ هل ستمنعون الصلاة عليّ إذا مت؟ ألم أتعمد هنا أنا وولدي؟

همست محرجة:

- هذه البنت لا أب لها.

- كذلك كان يسوع.

لم أكن أحاجج أو أقارن، فقط هو منطق بريء، منطق أثار اللغط والغضب عند باب الكنيسة. تصايح الصبية الذين يغنون في الكورس، وتمتمت الراهبات الصغيرات، وهرع الشماس يستدعي القس، تلقيت أوامر صارمة للمغادرة أنا وجمع العبيد السود في العربة، لكني لم أتزحزح، ظللت أبادل لوشيا نظرات تحد ثابتة، لوشيا الطاهرة التي سمعت صوت السيدة الأم وحدثها الملاك الرسول ابتلت عيناها بالدموع، تلفتت إلى الوراء تتأكد أن القس لم يخرج لنا بعد، ثم أشارت بذراعها تطلب الطفلة الوليدة، ناولتني أفي الرضيعة، التقطتها وقربتها من لوشيا المباركة، كشفت رأسها الغض ووضعت كفها فوقه، أغمضت عينيها وتمتمت على عجل بما لم أسمعه، ثم رفعت جفنيها

ودموعها تتأرجح في حدقتي عينيها، همست:

- اذهبي، ببركتي، اذهبي، اعتبري أنها عمدت.

سألت راجفة:

- ماذا أسميها؟

نظرت خلفها والحركة تزداد توتراً والقس قادم، همست على عجل:

- لوشيا.

منحتها اسمها ومضت، التقطت أفي الرضيعة مرتبكة، وساعدني فريدي لاعتلاء العربة، رحت ألهث وأتنفس بصعوبة وأنا أسمع صفير صدري، لكني ابتسمت حين مدت رفمة ذراعيها تطلب احتضان ابنتها، وضعت أفي الصغيرة بين الكفين الخشنتين، ضمت رفمة وليدتها باكية، ورحت أضحك سعيدة كأني أطير والحصان يسحبنا في العربة محدثاً عجاجاً غمر الجمع الواقف بباب الكنيسة.

أظنها تمطر بينما نقطع درب الكستناء، شعرت بعمق وامتنان وبأني أتممت مهمتي في الحياة، وبت جاهزة.

***

لم أتمكن من مواجهة الأزمة التي تسببت بها الزنجية رفمة، تهدد خطرها حياة شكلتها بتعبي وبطاقة هائلة من الطموح والحقد والتمني، وجدت نفسي في مفترق دروب غامض بين اشتهاءات الحياة التي

كانت تعن لبالي إبان كنت ابن آمر المزرعة الإسباني الغارق بالأتربة والعرق، وتلك التي جعلت مني كونتاً بلا لقب رسمي، حيث يبدو كل شيء ناصع البياض، أخجل أن أسميها الزنجية بعدِ أن جعلت حياتي لزمن طويل ملونة بهية، لكن هذه هي الحقيقة، زنجية اختطفت روحي بسحر غامض لسنوات، وصحوت على خياري الذي ساقتني إليه أقداري.

الحياة واعدة أمامي، كل ما مضى منها على وشك التغيير، تتفتح الآفاق المغلقة وأستحقها عن جدارة، وفجأة، تنفجر قنبلة الفتاة الحبلى. غادرت إلى إسبانيا قبل ولادتها، بانتظاري أعمال كثيرة معلقة، لا يمكن ترك كل شيء للآخرين، التحقت ابنتي بخالها في لسبون، وفررت أنا من غضبة زوجتي إلى مدريد. رتبت وسائل واتفاقيات وخطط لتهريب البضائع من فاتيما إلى مدريد أو باريس، أبتعد وشركائي عن مراقبة الحكومة الصارمة حول نهر تاجو، حتى لو اقتضى ذلك إطالة الطريق، ومرورها في الغابات والجبال الموحشة أو دفع الرشاوي والأعطيات. عقدت صفقات لبيع السلاح وأخرى لتوريد السكر، وحاولت بمساعدة خورخي إقناع مستورد أوروبي بنبيذ ديدو، مهام تقض مضجع أي رجل، لكنها تغادرني في المساء حين أمسي وحيداً أنا وسقف الحجرة التي أحاول النوم فيها، لتحضر

تلك الصبية السوداء فقط ببطنها المنتفخ.

مضى ما يكفى من الوقت لتمر الفاجعة وأنا بعيد عنها، قمت برحلة دائرية عائداً إلى لسبون، أطمئن على أحوال أوريانا، في الواقع كنت متعباً بحاجة إلى من يطمئن على أحوالي، في حين باتت ابنتي الصغيرة شابة مرحة جميلة، أظنها صبغت شعرها، إذ لم تكن خصلاته حمراء لامعة، ترتدي الآن ثياباً ملونة أكثر عصرية جعلت سانشو يمازحها قائلاً إنها بفتنتها سحرت بيته، وأبعدت كل جميلات المدينة عن العازب الذي لا يصدقن أنه ما يزال عازباً. رافقني خورخى التافه في رحلتي ذهاباً واياباً، وهاهو يبدي مزيداً من الاهتمام بابنتي، جالساً في صالون سانشو لساعات طويلة يسمع عزف أوريانا النشاز على بيانو عتيق، ويصفق بحماسة كاذبة، لا يمكن أن يعجب هذا العزف السقيم أحداً إلا إذا كانت الخصلات الحمراء المصطنعة قد فتنته.

انشغل خورخى بإضحاك ابنتي أو التظاهر بأنها تضحكه وتفرحه، وانشغل والده عمانويل باقناعي بأن فرصة الحرب تلك تعني أن كل فرد يملك من الذكاء قدر حبة الجوز يمكنه أن يصير ثرياً، إنها الحرب، حيث كل ثمين يصير رخيصاً، وكل رخيص يبدو ثميناً.

تحدث وميرو اليهودي عن جزر الرأس الأخضر، وأنا رغم تعدد رحلاتي البحرية لم أيمم جنوباً في عرض المحيط الأطلسي، كنت

رجلاً أوسطياً، يحلو لي قطع البحر الأبيض المتوسط، وولوج أفريقيا من شمالها، تحديداً النزول من الجزائر إلى ليبيا فدارفور، لم أتوغل إلى أبعد من هذا. عندما أفكر بتلك الحقيقة، أتذكر رحلتي الأخيرة والمرأة التي أغوتني كأنها ثمار الجنة، والتي تنتظرني بفجيعتها في فاتيما.

لم أزرع الموز في حياتي، وإن قال خورخى إنه أسهل أنواع الزراعة علي تصديقه، فهو رجل كسول، خبرته في رحلتي إذ يقف متفرجاً غير قادر على التعامل التجاري، لا شك أن ما يصفه بالسهل سيكون سهلاً حقاً، أما إغراءات وميرو فكانت تنحصر بأن الأسعار باتت منخفضة إلى حد كبير، لم يعد هناك حياة في تلك الجزر التي كانت تعج بالناس، يمر فيها المهربون وتجار الرقيق في طريقهم إلى الأمريكيتين، لكنهم لا يعمرون فيها بيتاً ولا يزرعون حقلاً، وهذه فرصة يجب انتهازها.

قال عمانويل:

- تخيل أن تبتاع مزرعة شاسعة في إحدى تلك الجزر، وتزرعها بالموز، خلال عام يمكنك أن تجني ما زرعت، سيكون لديك بكلفة متدنية عمال من بقايا عبيد أفريقيا الذين تجمعوا هناك، وستنتهي الحرب فجأة، فتغرق السوق الأوربية بموزك، صدقني ذلك أجدى وأقل كلفة من تعبئة نبيذ ديدو.

وصدقته.

حمل خورخى وعمانويل كل ما ربحته من صفقات تهريب الأسلحة وبيع النبيذ لإتمام الصفقة مع عرابها وميرو، ابتاعوا لي أراض شاسعة لم أرها في جزيرة بعيدة في عمق الأطلسي اسمها سانتو أنتاو.

عدت بكل هذه الوعود راجياً أن تخفف الآمال المستقبلية من غلواء زوجتي، قد تشكل وعود الثراء رشوة مؤقتة تنزع فتيل غضبها، وكانت حقاً تغلي بانتظاري.

سانشو هبة الله لي، أنقذني الفتى من ورطة دون أن يفصح، تصرف كالنبلاء حقاً، فطعنني مرتين، مرة لجبني وتقاعسي، ومرة لأنه يحفظ سري. أحالني مجدداً إلى الفتى الفلاح المتسخ المذعور أمام أسياده.

ترك شقيقته تعتقد أنه والد الطفلة التي أنجبتها رفمة، لم يعترض أو ينكر أو يدافع عن نفسه. كما لم ينظر نحوي بأية نظرة اتهامية، أقدم على تضحيته بسهولة كأنه معتاد على الأفعال النبيلة، لعله ظنها لا تكلفه شيئاً، لعل لديه أسباباً أخرى لا أعلمها، لا أحب أن أصدقه، كلانا يعرف شكل تلك الجريمة التي ندفنها معاً في أبعد كهف في ضمائرنا. وقفنا معاً نخفف عن كارولينا ونطبب جراحها وهي تدخل في انهيار عصبي، أظنها كانت مصابة به قبل وصولنا لفرط يقينها بأني الفاعل، جن جنونها عند المواجهة، وانهارت بين ذراعي كما لو كانت لا تحتمل فعلة شقيقها أو لا تصدقه، انحنيت فوقها أسند جسدها

المتهاوي كأني الزوج الطاهر الحنون، لم أبذل جهداً يبرىء سانشو الذي خرج إلى الشرفة يتحدث مع المربية آوا.

علمت من فريدي فيما بعد أن رفمة خرجت من حبسها، وأن الطفلة عمدت على يد الراهبة لوشيا، لكن أوامر زوجتي بعدم اقتراب الزنجية النجسة وابنتها من القصر ظلت سارية، لم أعد أرى رفمة ولا ابنتها، ولا عاد قلبي يهفو إليها، أو ضميري يذكرني بها، لقد شغلتني الحياة بتفاصيل مريعة بعد ذلك.

باتت المزرعة تحت إدارة فريدي عملياً، أثق بهذا الرجل وقد أكرمته عندما رحلت أمه آوا بجناز لا تحلم به زنجية سنغالية ما يزال صك عبوديتها مطوياً في أحد أدراج زوجتي.

تردد التجار على المزرعة جالبين بضائعهم السرية، مستخدمين مخازني ومواقع جديدة هيأها لهم فريدي، يرسلون عمالهم حيناً، يأتون بأنفسهم حيناً، ما تزال الحياة في المزرعة قادرة على استنفاد آخر بركات الحرب المستعرة، يأتي غارسيا دي ريغا مرات عديدة، يذرع المزرعة مشياً مادحاً عطاء الكرمة وجودة العنب، ومقللاً من شأن النبيذ، يجيء ببضاعة ويعود بسواها. يتجدد أمل زوجتي في مصاهرة عائلة رفيعة المستوى كلما زارنا، تحلم باقتران ابنتها بهذا الشاب المثقف الوسيم. فترسل معه الهدايا لابنتها، أشياء كانت قد

جلبتها أساساً من لسبون لتعيدها إليها، حجة ساذجة لإدامة احتمالات لقاء الشابين.

أصيبت كارولينا بالانهيار العصبي للمرة الثانية حين تشاجرت للمرة الأولى مع شقيقتي، كانت نيتا امرأة حصيفة، لم يحدث أن تجادلت مع زوجتي، تصرفت دائماً كابنة آمر المزرعة، وابتعدت بمقدار جيد عن عائلتي الجديدة، فما الذي توجب طردها من القصر بقسوة وعنجهية؟ ذلك النهار تجاسرت نيتا وحملت لنا نبأ زفاف الشاب غارسيا وابنتها القبيحة رامونا، دمر الخبر آمال زوجتي وما كانت تخططه لابنتنا في لسبون، اعتبرت ما حدث خيانة وتطاولاً لا يليق، خطة خسيسة حيكت حبائلها في المزرعة وراء ظهرها، أنا أيضاً فوجئت بالخبر، لم أنتبه إلى الشبكة التي نسجت خيوطها في غفلة منا، ولأن ردة فعل زوجتي كانت صاعقة وجنونية فلم أتمكن من الذهاب إلى شقيقتي لمزيد من التفاصيل أو الاعتذار أو مباركة العروس، ولم أرغب بالاقتراب من بيت تجاوره حجرة رفمة وابنتها. تعلمت في غفلة من الزمن كيف أقصي الأشياء الجارحة في حياتي، وكيف أتظاهر بالصلابة.

التحقت ابنة اختي بزوجها صاحب اللقب وسليل العائلات النبيلة في لسبون، ومنع الزوجان الشابان من زيارة المزرعة، وانتقلت شقيقتي

وزوجها بعد وفاة أمنا إلى قرية مجاورة هرباً من غضبة كارولينا، لم يقم لأمي جناز لائق، تظاهرتُ بالمرض، أو أني مرضت حقاً، مرت تلك الحادثة كعاصفة هوجاء مدمرة. خرجت منها زوجتي واهنة جريحة، تحمل أخيها مسؤولية هذا الخراب بمباركته لزفاف صاحبه النبيل، لقد تعودت على ملامته حين تتساقط أحلامها وأوهامها مهشمة مثل شقف الزجاج.

تمر الأعوام خبيثة، أشعر أني بت أدور في رحى لا يتوقف، يتصدع بيتي كلما ازداد جنون زوجتي. وتنهار كارولينا مراراً، تقترب من الجنون وابنتي أوريانا تقذف في وجهينا مفاجآتها اللعينة، لقد تزوجت بالفتى التافه خورخى. تعبت وتجددت أوجاعي، ليس أني أهتم أو أنكر على ابنتي زواجها دون معرفتنا وموافقتنا، في أعماقي لم أعتقد أنها تستحق أكثر من هذا الرجل، يناسبها تفاهة وحضوراً مملاً، وليس تأثراً بانهيار وتدهور صحة زوجتي، ولا شوقاً لرفمة وابنتها الكريولو التي لم تقع عليها عيني، ولا حزناً على وفاة أمي أو المربية آوا، ولا حتى تعباً من العمل المتواصل الذي لم يعد يتناسب مع سنين عمري، ولا الحرب التي استعرت تأكل الأخضر واليابس، ولا النقود التي لم أستردها بعد من موز الرأس الأخضر، ليس كل ما تقدم. فقط وجدت نفسي متعباً موجوعاً، كهلاً هرماً على شفا الانهيار، حصان مسن يكابر.

ليس مقدراً لي الارتماء في أحضان تعبي، تستكثر عليّ الحياة استراحة ما ولو على سبيل التمارض أو الاعتزال، ولت ليالي الهناء التي مرت عليّ في الجزائر، فقدت انتباهي للتفاصيل، ومتعي الصغيرة، وكثيراً من طموحي الممزوج بالشغف، تعطلت حواسي نسبيًا، لا أتذوق الطعام ولا النبيذ، ولا أشم رائحة المزرعة وفوح العنب في المعصرة كالسابق، لم أعد أستمتع. ثور يدور في حلبة المصارعة بلا انقطاع، حتى حين سمعت بمرض رفمة الغامض، لم أتعاطف، لا متسع لوجيف الفؤاد ولانهياراتي الشخصية.

توالت انتكاسات كارولينا وانهياراتها، حتى لم تعد قادرة على المضي في حياة عادية، وكلما ناوشني شركائي في الأعمال التي تدار في المزرعة وخارجها اضطررت إلى الوقوف على أقدامي المتأرجحة تحتي، ثم جاءت الضربة القاصمة التي غيرت حياتنا إلى الأبد في ديدو ودمرت كل ما كان واقعًا أو حلمًا.

خطت الحرب العالمية الثانية آخر معاركها وتحالفاتها تاركة أوروبا جريحة ذاهلة يسودها الدمار، في أعماقي أظن أن الناس يستحقون هذا الدمار الذي حولهم إلى أكداس من النمل المدهوس بلا رحمة ولا هوادة، لقد فشلوا في طروحاتهم ووسائلهم، كانوا أحقر من أن يبنوا عالمًا جديداً يليق بالإنسان، أتحدث عن نفسي أولاً، تمضغني الكآبة

كما لو كنت لقمة مستعصية تثير الغثيان. في هذا التوقيت السيء عادت أوريانا إلى القصر ثائرة حانقة، صورة مصغرة عن أمها، امرأة فقدت أنوثتها مبكراً، وتمطى فيها كل ما أورثتها أمها من غطرسة الأثرياء وجنون الخاسرين، فقد جرحها الرجل الذي أحبته بانصرافه إلى غانيات لسبون، لفرط ما أثارت ابنتي من قلق وكآبة في البيت بت أحياناً أتذكر بصورة خاطفة عابرة أن لي ابنة أخرى كبرت على بعد أمتار مني، قد تكون أكثر دعة وحناناً، مساحة يمكنني اللجوء إليها إذا سقطت أرضاً، ولكني لا أفعل. أعاود التناسي والإنكار منصاعاً للواقع.

عادت أوريانا إلينا مثقلة بالخيبات، خيبات تخصها وأخرى تطالنا. فخورخي خانها ولم يوفرنا، ضاع كل ما جنيناه من ثروة في أرض بعيدة ومزرعة موز قاحلة، لم تكن جبال سانتو انتاو الوعرة صالحة لزراعة الموز خلافاً لكل جزر الرأس الأخضر، معلومة لم يتفضل أي من شركائي بإطلاعي عليها مقدماً، أما بقايا العبيد الأفارقة هناك فقد رفضوا العمل في فلاحة غير مجزية وانتسبوا إلى حركات السود المتمردين في الجزر المتناثرة على امتداد الطريق البحري الواسع الشاسع بين القارات العظمى على الأرض. حتى نبيذي الذي كنت أفخر به وببطاقته التي تحمل اسم ديدو وقد ألصقها فريدي على ظهر

الزجاجات، أزيلت وتحول نبيذي بفعل فاعل إلى شراب فرنسي مغشوش يباع بأبخس من تكلفته، تبخر الوهم تماماً، وبدد صهري الوضيع ثروتي التي كانت وتلك التي جمعتها من تهريب البضائع والأسلحة في زمن الحرب. آل حالنا في قصر الكونت كارمو العتيق إلى آمر مزرعة عليل كان يمني النفس بالصعود على سلم لا يحسن تسلقه، وصبية رعناء حولتها الخسارات والصدمة العاطفية إلى قطة شرسة كريهة، وزوجة أسيرة للانهيارات العصبية وضعف عام أصاب عظامها حتى باتت تستخدم كرسياً هزازاً يترك على الشرفة معظم الوقت، تحمله أفي لتنقله إلى الداخل إذا غربت الشمس، أو أمطرت، نبدو كبيت الأشباح تماماً، ماذا تكون الأشباح غير ما نحن عليه؟

حاول سانشو في زيارته القصيرة المتباعدة إشاعة مرح مفتعل، ولكن غضبي عليه لم يتلاشَ بسهولة، فهو من جاء لي بزمرة التجار وشذاذي الآفاق الذين دمروا أعمالي، كما أن شقيقته لم تسامحه على تورط ابنتها بعلاقة غير لائقة تحت سقف بيته وأمام عينيه وبمباركته، يتراجع غضبي قليلاً حين أتذكر موقفه الصامت إزاء تهمة انجاب البنت الكريولو، ولعجبي بت أعطف عليه، فالرجل النبيل، سليل العراقة، السياسي الذكي، والمثقف الحافظ لشعر بيساو، الذكي، ثري الحرب، شاهدته من وراء ستارة الشرفة التي يلعب بها نسيم الفجر واقفاً يتأوه

تلذذاً بينما الشاب الصغير الأسود بيدور ابن فريدي البكر يقبله في فمه ويداعبه بعضوه الأسود، احتبست صرختي في صدري، وكتمت ضحكة ساخرة، تفتت عالم الكونت كارمو وعائلته المجيدة أمامي تماماً، يمكن لهذا السانشو حتى في خطاياه أن يرفع معنوياتي عالياً. ها أنا ذا أحفظ سره كما حفظ سري، فلتتمرغ الأرستقراطية الماجدة أرضاً، لتتلطخ البرجوازية بالوحل أو تتكرسح على كرسي هزاز، العالم الخاوي يتهاوى، إلى الجحيم.

***

هواء طري رطب يتحرك حولي، وفتنة عارمة تميد في كل اتجاه كلما تمايلت أغصان أشجار الكستناء التي تلونت بمهرجان أصفر وأحمر وبرتقالي يلاعب النظر ويبهج الفؤاد، الخريف في آخره، ولم يكن لي أن أعرف الخريف من الفصول الأخرى لولا تلك المهمة التي أجبرتني عليها العمة أفي، فقد مضت أسابيع قليلة منذ قمت أنا وأبناء العم فريدي بجمع ثمار الكستناء اليانعة، رغم أنهم تعودوا على تلك المهمة في سنوات سابقة، وأني أصغرهم، لكنني الأكثر مهارة. أتسلق الشجرة الفخمة المعتقة وأندس بين فروعها غير آبهة بتشريط ثيابي أو الشروخ التي تحدثها الفروع اليابسة الخشنة على ذراعي وفخذي، ألتقط بكفيّ الثمرات الشوكية وأفتحها فرحة مستخرجة حبات

الكستناء اللامعة البنية التي يشابه لونها لوني، أرمي بها الأولاد الذين يسبونني كلما ارتطمت حبات الكستناء برؤوسهم:

- كريولو. كريوليو.

أعيرهم بسواد بشرتهم، وأصيح:

- بريتو.. بريتو.. (*)

أصل مبنى الكنيسة مصابة بالكدمات، ألم ثوبي بكفي كما لو كنت خجلى، أقف وحدي بعيداً أراقب بفضول، ويتقدم بيدرو وأخويه حاملين ماجمعنا، يدخلون من باب خلفي ويعودون وقد باعوا حصيلة ماجمعنا، يقولون إن الراهبات يحولن ثمارالكستناءإلى حلوى شهية، أنا لم أتذوق حلواهن ولكن أمي تطبخ الكستناء بمرق لحم الخنزير، بامكاني الفرز بين زفر اللحم وحلاوة الكستناء في لقمة واحدة.

تلاحقني عصا أبي حين أغيب لساعات طويلة عن البيت، وتهجم أمي لتخلصني وهي تشتم أبي وتشتمني أيضاً، تتهمني بأنني لفرط حركتي ومشاكلي الصغيرة أقتلها ببطء، النسوة لا يفهمن مللي من البقاء في البيت ممنوعة من الاقتراب من القصر وفق أوامر سيدته المجنونة، وممنوعة من الاقتراب من الزرائب وفق أوامر أمي، ممنوعة من اللعب مع الأولاد وفق أوامر أبي، ممنوعة من الاقتراب من بيتنا القديم

(*) أسود أسود.

وفق أوامر نيتا التي أوصدت البيت وغابت هي وعائلتها، ممنوعة من الاقتراب من الكنيسة وفق أوامر الله. لم يبق لي متسع في تلك المزرعة الشاسعة، أفر بجناحين من فضول وبهجة إلى الغابة، أسمي شجرات الكستناء العجوز كل واحدة باسم يشبهها، أسماء أخترعها، وأخرى أستعيرها من حكايات أمي، هناك شجرة عتيقة باذخة تقشر لحائها أطلقت عليها اسم آوا. يحكون عن آوا أساطير لا يصدقها عقل، كيف كانت تجعل من المكان جنة على الأرض، ويدعون أنها كانت تسوس الجميع وهي عبدتهم السنغالية، وأنها حولت القصر في الماضي إلى درة البيوت في المنطقة نظافة وتنظيماً، لا أستطيع تفسير ذلك، إذ أرى الشرفة التي تجلس عليها المجنونة على كرسيها الهزاز وابنتها الشريرة تلاحق من يمر من العمال والعبيد بالسباب البذيء والأوامر، شرفة متسعة فيها بعض الكراسي المهشمة، وكثير من أوراق الأشجار والأتربة والأخشاب والأكياس التي حملتها الريح وراكمتها هناك، لا أعلم شيئاً عن قصر كان يوماً متألقاً يقطنه الأثرياء. ولأن أفي لا تهتم بتنظيف الحجرات الصغيرة التي تقطن بها وأولادها فاني لن أصدق أنها تقوم بتنظيف القصر كما يجب، وما دام أحد لن يأمرها بذلك، فإنها تكتفي بحمل كرسي المجنونة من الشمس إلى الظل وبالعكس، كما تقوم بنقل الطعام الذي تعده ليتناوله أهل القصر.

أعود إلى شجراتي المتجذرات في مكانهن منذ مئات السنين، أسميت الأضخم باسم كامونقو، أظن أن الاسم يلفظ هكذا، لأمي طريقة مضحكة في لفظ اسم جدها الحكاي، الشجرة أيضاً كانت تشبهه كما هو في خيالي، وارفة خشنة، أغصانها أكثر انحناءً واقتراباً من الأرض، تحكي لي الشجرة قصصاً كثيرة غريبة وخيالية، هي الأضخم، تتصدر الغابة في أول الطريق، وبيننا سر أطلعكم عليه إذا وعدتم بأن أحداً لن يسمعه منكم، في الواقع أحب أن أبوح بسري هذا لمخلوق لا علاقة له ببقية المخلوقات المحيطة بي. لجذع الشجرة العملاقة سحر لا تمارسه إلا معي، أقف أمامها، أحييها بقداسة واحترام، نتبادل الاحترام إذ تهتز فروعها الجديدة بأوراقها اليانعة مثل أكف تلقي التحية، وتتأرجح الأغصان العتيقة في حركة ضئيلة بالكاد ترى، أقترب، أتحسسها بكفي وأدور دون رفع كفي الملامسة للجذع الخشن. أتمشى كأني أتجاوزها إلى الجهة الأخرى منها، عندها ألقي نظرة على كفي فأراها وقد صارت بيضاء كأنما هي كتلة من الثلج الناصع، أتحول كلي إلى فتاة بيضاء بشعر ناعم مرسل ذهبي، ويصير ثوبي حريرياً هفهافاً، أعكس وضع كفي وأواصل تمسيد الشجرة عائدة إلى الجهة التي جئت منها، أتحول تدريجياً، إلى بنية مثل قلب الفستق، فسوداء كليل بلا نجوم. ها قد بحت بسري ومعجزتي في

التحول من بنت سوداء إلى بيضاء بلمح البصر، وبالعكس.
تحمل الأشجار مزيداً من الأسماء: اللمون، النجومي، عبدالله، التيجاني، ونسة، طيبة، نيالا، أطياف وهمية التقطتهم من شطحات أمي، يعقدون مجالس حكاياتهم الخرافية في غابة الكستناء الواقعة وراء الكنيسة في قرية فاتيما البرتغالية، لكنهم حريصون على عدم التجلي لسواي، ليس لهم خاصيات عجيبة كشجرة كامونقو، لكنهم يلاغونني ويبعثون البهجة في نفسي وأنا أضيع عامدة في الغابة. هناك لا بد أن شجرة صغيرة تحمل اسم أمي رفمة، أضيع موقعها أحياناً، وتلتبس عليّ بين سواها من الأشجار المتشابهات، تماماً كما هي علاقتي بأمي إقبال ونفور، مخلوقة عجيبة مليئة بالأسرار، قادرة على حنان دافق فجأة، ثم ينضب كما ينقطع المطر، أحاول منذ طفولتي المبكرة ودون وعي مني بناء عادات رتيبة معها، كأن ننام سوياً فتسمح لي بامتصاص حلمتها الجافة وتغني لي، أو نحمل أحمال العنب إلى المعصرة ننظفها من الشوائب ونعود ونحن نلحس أكفنا الحلوة، أو تحافظ على تكرار القصص الخيالية التي أحب الاستماع إليها وترويها لي حين تمطر. كل هذه أمنيات مستحيلة، فحال أمي متقلب مثل قواها البدنية، أظنها تنسى أحياناً أني ابنتها، يسود بيننا جفاء بارد، حين ترتفع حرارتها وتستلقي موهنة وقد ازداد انتشار البقع السوداء الجافة على

صفحة وجهها وذراعيها، ثم تعود لتحتضنني بلهفة خانقة حين تلتقط أنفاسها وتظن أنها تعافت، لن أصير مثلها إذا صرت أماً.

أصل مشارف الكنيسة، وألمح من بعيد مئات المصلين الذين جاءوا إلى القداس يشكرون الرب على انتهاء الحرب التي قتلت الأطفال ودمرت البيوت في أرجاء أوروبا، يزحف المصلون على ركبهم وبطونهم باكين طالبين بركات العذراء التي تطل عليهم من أعلى مبنى الكنيسة، أفكر أحياناً أن أسمي شجرة باسم لوشيا الراهبة، فهي سيدة المعجزات كما يقولون، ولكن هذا اسمي أنا، ربما كنت أنا الشجرة.

هجم الشتاء بعد الخريف، وتواصل المطر عنيفاً مصحوباً برياح باردة، تتقصف الأشجار في الخارج، وتعوي الريح في الممر الفاصل بين بيتنا وقصر السيد، أبقتني عصا أفي وتوبيخ أمي حبيسة حجرتنا، لم يكن العم فريدي يشعرنا بأن بيته لا يخصنا، ولكن أفي لا تعدم وسيلة لتذكيرنا بأننا زائرتين ثقيلتين طارئتين، تتأفف من ضيق الحجرات وتعتقد أني وأمي شغلنا مكاناً تفضل لو تناثر فيه أبناؤها. كنا قد انتقلنا منذ عامين من الحجرة الرطبة في جوار بيت نيتا الشريرة لنشاركهم بيتهم، ننام في حجرة الجدة المتوفاة التي تكثر أمي الحديث عنها، في صغري ظننت أن آوا التي رحلت وأنا رضيعة هي جدتي، ولكني استوعبت تلك الإشارات والتوضيحات التي تحرص أفي وأبناؤها

على تفسيرها، مؤكدين أن آوا جدتهم وحدهم، تقول أمي إن لي جدة ولها أيضاً، ولكنهما في أرض بعيدة نحتاج إلى عمر فوق عمرنا لنصلها. لا تعرف أمي شيئاً عن غابة أشجاري الخاصة.

حبستنا العاصفة في الحجرة، رغم أن الأولاد خرجوا لقضاء المهام الموكلة إليهم في القصر، لكن ضعف أمي وهزالها استوجب تفادي غضب الطبيعة هذا الموسم، كما حكم عليّ بمرافقتها بعد أن أصبحت أطرافها واهنة وحركتها عشوائية بالكاد تتمكن من الإمساك باحتياجاتها، فقد ينسكب الماء وهي تشرب، أو تقع أرضاً وهي ترجع ظهرها لوضع مؤخرتها في بطن الكرسي، تلتقط أنفاسها الهواء بصعوبة، ثم تهمد. ما تزال أمي شابة وأنا أدخل عامي العاشر، لكن جسدها يخونها تدريجياً، تبقعت وشاخت فجأة وراحت تنحني.

مع تقدم الدفء وعودة الحياة إلى أغصان الكرمة اليابسة، تصنع الحياة معجزتها السنوية، تتلوى الأعواد النحيلة اليابسة وتخضر، ثم تنبت من بين عقدها الصغيرة أوراقاً يانعة تنفرش لتجلل الدالية تماماً، وتتدلى العناقيد صغيرة حامضة، وكلما غابت شمس وعادوت الظهور ساطعة حارة تكورت حبات الحصرم وفقدت خضرتها إلى اصفرار فاحمرار مكتنزة على عصارة حلوة.

غضب أبي مرير هذا الصيف، فقد اصطحب السيد سانشو ولدها البكر

بيدرو ليصبح المشرف على بيته في لسبون، خسرت المزرعة يداً عاملة ماهرة، وتبقى الولدان الأخرقان اللذان يبددان الوقت ولا يجيدان العمل دون رقابة، في حين أن العمال الذين يتم الاستعانة بهم من سكان القرية قلوا أو امتنعوا، وكثرت هموم فريدي في المعصرة والقصر، يقول إن الزراعة وتخمير العنب لا يسدان الاحتياجات الرئيسة، فقد أفسدت حرب بعيدة الحياة.

لم تتمكن أمي من مغادرة الحجرة دون أن تسندها ذراعي، كانت مهمة جني العنب متروكة بثقلها على كاهل أفي التي صارت كثيرة التأفف، تصب غضبها عليّ وحدي، وللحق رغم أن هذه المرأة مهملة بالفطرة فإنها قادرة على تقمص شخصية حماتها المتوفاة أحياناً، هذا ما تقوله أمي وهي تبتسم رغم إعيائها، تحت التهديد وبأوامر صارمة خرجت لمساعدة أفي. أشتل عناقيد العنب الثقيلة ببراعة فتنقطع في كفي، لعلي عثرت على مهمة ممتعة، تعبق العناقيد بحلاوة حمضية خفيفة، أمسحها بثوبي وأقضم حباتها اللذيذة وأدندن، خليط من الأصوات يبعث السكون في نفسي لأحتمل جنون الحياة المحيطة بي، أظن أني العاقلة الوحيدة في هذه الأرجاء، وكل من حولي جمع من المجانين الذين سقطت عاصفة على رؤوسهم ذات يوم فتركتهم ذاهلين مساطيل.

لا تسمح أمي لي بالحديث كما أريد، كأن أصف أفي بالشريرة، ونيتا شيطاناً، تلوح رفمة مروحتها بعنف لتضربني على كتفي حين أقول إن كل النساء شريرات، تعدني أني سأصير من النساء مما يتوجب عليّ التحدث عنهن باحترام أكبر، في الواقع أنا لا أعرف معنى الاحترام الذي تتحدث عنه، وأفغر فمي دهشة وهي تتذكر بشجن كيف كانت أوا تقوم بالواجب باحترام وبكرامة عالية، أيضاً لا أعرف ماذا يقصدون بالكرامة، على أية حال، ربما كنت أصغر من فهم كل هذه المعاني، فقد بلغت العاشرة للتو. مع ذلك تأتي هذه النيتا وتتلصص علي وأنا أنقل أحمال العنب إلى المعصرة بهمة ونشاط، ترخي عجيزتها الضخمة في حجرتنا الصغيرة، وتبتسم لأمي قائلة:

- لقد كبرت ابنتك يا رفمة.

عاصفة من نوع غريب جعلت صياح كل من في البيت يتعالى، جاءت نيتا في زيارة خاطفة للمزرعة، لكنها ارتأت أن تعود مصطحبة معها خادمة نشيطة لابنتها، ووقع اختيارها عليّ، لا يمانع السيد الذي لا أعرفه المختبىء وراء جدران القصر أن أنتقل من ملكيته إلى خدمة ابنة شقيقته، ولكن أفي تمانع.

صاحت بصوت شرير إن كل تعبها سيضيع سدى، وجلس العم فريدي يسمعها مغلوباً على أمره، لم يفهم كيف ترشح أحد أبنائها ليحل

محلي في البيت البعيد، وهي التي أقامت الدنيا حين ارتحل ولدها بيدرو إلى لسبون.

تقول أفي:

- كنت غبية.

ثم تشرح نظريتها، في المستقبل القادم سيتوزع أبناؤها على أملاك العائلات الارستقراطية ليكونوا الورثة الوحيدين لهم، فالسيدة المجنونة وابنتها الحمقاء لن تعيشا لترثا ديدو، ستحصدهما الانهيارات العصبية تباعاً، وسيتمكن فريدي من الاستئثار بالمزرعة ما دام السيد يثق به، بينما ينتقل ما يملكه سانشو العازب الذي لا ولد له إلى بيدرو، سيكون هذا تحقيقاً للعدالة الإلهية التي اطلعت على ما بذلته العائلة السوداء في خدمة هذه الأرض، أما الفرع الجديد المتمثل بنيتا وابنتها الثرية فسيكون لأحد أبنائها الآخرين نصيب فيه، بينما تبقى عليّ إلى جوارها أساعدها وقد تفكر مستقبلاً في تزويجي بأحد أبنائها.

يضحك العم فريدي ساخراً من أمانيها وتحليلاتها وهو يشعل قطعة من الفحم في الزاوية ويمد سيجارته إلى الجمرة المتقدة، يشعل السيجارة ويمجها وينفث دخانها، تأنبه زوجته على إشعال الفحم في حجرة النوم، ينظر إلى زوجته مستهزئاً، يؤكد أنها ستموت حسداً وجنوناً قبل الجميع، وإن كل ما تخيلته أو تمنته سيتبدد كما قطرات

العرق على وجهها في الصباح الحار المشمس. تزداد أمي غضباً وعناداً.

عادت نيتا مساءً إلى حجرتنا، جلستُ جوار أمي، يقابلها العم فريدي، وتواجهت المرأتان الشريرتان كديكين في صراع خفي بين شد وجذب، في اللحظة التي ملت فيها السيدة النقاش مع العبدة، قالت واثقة وهي ترفع عجيزتها بصعوبة عن الكرسي:

- أنا أضيع وقتي، سيحسم الأمر الكونت ساراماغو، فهي عبدته على أية حال.

تقصدني، يسعدني أن أكون موضع تلك المعركة، وأعرف أن السيدة ستنتصر، أتخيل حياتي بسهولة في بيت جديد، لا أجد في أعماقي ما يشدني إلى المكان، باستثناء شجراتي السرية، لكني لست حزينة لفراق أحد، بين ثانية ولمحة عين وقع ما بدل كل المخططات التي رُتبت لمستقبلي، كانت السيدة نيتا قد وقفت تماماً وتنهدت تلتقط أنفاسها، التفتت بحيرة وهي تعمل أنفها في الشم، نفثت أمي أيضاً الهواء وقطبت جبينها، كنا جميعاً قد شممنا رائحة لحم يحترق، لا نعد الطعام في الحجرة الضيقة عادة، من أين تأتي تلك الرائحة النفاذة؟ العم فريدي الذي حافظ على صمته وحياده طوال الحوار العقيم بين المرأتين، قفز فجأة مرعوباً يصيح:

- رفمة.

قبل أن يدرك أي منا ما حدث خلع فريدي قميصه وألقاه جزعـًا على ذراع أمي ملتقطـًا كفهـا التي تشوى فوق الجمرة المشتعلة، تبادل الزوجان الاتهامات لوهلة حول مسؤولية ترك الجمرة مشتعلة في الحجرة منذ الظهيرة، لكنهما وجما فجأة ونيتا تبدي دهشتها من سكون أمي.

احترقت كفها دون أن تشعر أو تشتكي! حتى وهم يحاولون تخفيف الأضرار بدت غائبة تمامـًا، حدقت نيتا برعب في المخلوقة القابعة أمامها، رأت البقع السوداء الخشنة فوق جلدها الأسود، ولاحظت انحناء أطرافها وتهدل كتفيها، وضمور أصابع قدميها وكفيها، صاحت مرعوبة وهي تغادر الحجرة برشاقة تخالف البلادة التي دخلت بها:

- مجذومة.. هذه امرأة مجذومة.

دب الفزع على نحو مضحك، فالسيدة نيتا قد صرفت النظر عن حاجتها إلى خادمة، تخلت عن رغبتها تمامـًا وفرت من المكان مسرعة، بينما شدت أفي ذراع زوجها تخرجه من الحجرة الملعونة، صارخة بأبنائها ألا يقتربوا بتاتـًا من المجذومة وابنتها، أغلق الباب علينا، سمعت بعد دقائق خبطات دق المسامير في الباب الخشبي، كانوا يحبسوننا أنا وأمي في الحجرة، ولم أفهم السبب. تأملت كف

أمي المحروقة في باطنها، كانت هناك أيضاً جروح تنز صديداً بين أظافر قدميها، خيل إلى أن شيئاً حدث جعل جسد أمي يأكل أطرافه، وتنبهت إلى أن عشرتنا اليومية لم تسمح لي بأخذ التغييرات على وجهها محمل الجد أو الاهتمام، كانت مبقعة وقد اندفعت وجنتاها كما لو أصبحت تشبه حيواناً برياً، ليس تماماً، اقتربت أحدق برهبة، لكنها تراجعت إلى زاوية الحجرة، بدت أكثرنا رعباً، صوتها راجف يزعق:

- لا تقتربي.. لا.. ابتعدي.. لا تلمسيني..

لماذا؟ سؤال ظللت أعيده على مدى يومين وهي تعيد منعها لي من الاقتراب منها، وحدنا في محبسنا، عالمان لا يلتقيان، تسكن بيننا مساحة من الذعر حتى أننا لم نشعر بجوع أو عطش، شممت رائحة الكاز الذي نحرق به مخلفات مزرعة العنب وراء المعصرة، كانت أفي وراء الباب تمسح المكان وتطهره منا، تتعارك وزوجها مانعة أياً من أفراد عائلتها من فتح الباب، لكنها بعد أن أيقنت سفر نيتا بعيداً عن المزرعة أرسلت بأحد خدم المعصرة ليفتح الباب الموصد، ويقودنا إلى حجرة أمي القديمة جوار بيت نيتا المهجور.

لم تسمح لي أمي بالاقتراب منها في رحلتنا القصيرة بين الحجرتين، وواصلت بكائي، سرنا بخطوات مترنحة، لم نكن نعرف الوجهة التي

يقودنا إليها الخادم الماشي يسبقنا بخطوات، في منتصف الطريق توقفت.

لن يقترب الخادم مني لمنعي، ولن تفعل أمي، غيرت اتجاهي، كنا نعبر الطريق المحاذي للقصر، الشرفة كما هي متسخة بأوراق شجر الخريف التي لم ترفع، والكراسي المخلعة تترامى في أرجائها، السيد ساراماغو يقف مثل عمود خشبي في منتصف الشرفة، يابس باهت غريب، يرقب بعينين ميتتين مسيرتنا الصامتة، وفي زجاج نافذة أغبش يمكن تبين طيف امرأة يتحرك رأسها يمنة ويسرة، تلصق وجهها لتتبيننا، لا أظن أننا واضحون لها، لأنها لم تكن كذلك لنا. لا أعرف أي حدس أحمق جعلني أتوقع بأن السيد سيرفع كفه المرتمية إلى جانبه محيياً، لم يتواصل معنا منذ وعيت حياتي في المزرعة، لكنه قد يفعلها الآن، وقفت أنتظر المعجزة، أطلت الوقوف ولم تحدث أية معجزة، التفتّ عائدة أمشي وراء أمي والخادم الذي يشتمني ويحثني على اللحاق به.

أغلق الخادم باب الحجرة القديمة وراءنا، كانت حجرة ضيقة تسمح لي بالاقتراب أكثر من أمي، لكنها تضم جسدها بعناية وتواصل زعيقها لمنعي من ملامستها، وأواصل البكاء، تنبهت فيما بعد إلى أن الخادم قد وضع لنا بعض الطعام في الحجرة، ألقيت لأمي خبزاً وعنباً، ورحت ألتهم حصتي، مثل وحشين حبيسين، نأكل بنهم وخوف،

نقضي حاجتنا في موقعنا، ونبكي كثيراً إذا دخل المساء.

عددت أياماً ثلاث، انفتح الباب بعدها فجراً، واقتربت شاحنة تشبه تلك التي كانت تجلب البضائع إبان الحرب، صعدنا أنا وأمي إلى صندوقها المفتوح، وقاد بنا السائق مبتعداً عن المزرعة، رأيت أطياف أفي وأبنائها يدلقون الكاز على الحجرة التي قطناها وينشبون النيران فيها، كلما تقدمنا في المسير تبدو النيران وكأنها تأكل ديدو كلها، أو لعلها تأكل ما عرفته في حياتي القصيرة فيها.

اجتزنا طريق الكستناء الذي لم يفقد فتنته، ورغم أنه فجر صيفي فإن غيمة صغيرة بلون الضباب الأغبش تهدلت وعبرت بين الأشجار تسبقنا قليلاً، كان بامكاني التلويح لشجراتي ونحن نمر بهن، لكنني صحت فجأة بالسائق:

- قف.. قف.. الآن... قف..

وراء الغيمة الغبشاء، في نهاية الطريق وبداية الدرب الذي يقود إلى الكنيسة رأيت الراهبة المباركة لوشيا، تمشي وحيدة كما لو أنها في قلب معجزتها، توقف السائق مترجلاً يتساءل عن أسباب صيحتي، نهرني فلم ألتفت إليه، قفزت من صندوق الشاحنة، وهرعت نحو المباركة التي تحمل مسبحتها المعهودة، حاول ملاحقتي لكن ذراع لوشيا ارتفعت تشير عليه بالتمهل، تباطأت خطواتي واجتاز جسدي الضباب البارد، ووقفت مقابلها تماماً، همست برهبة:

- أنا لوشيا، ابنة رفمة.

نظرت وفي عينيها ابتسامة خفية:

- أعرفك.

عاودت همسي:

- أمي مريضة.

ردت بصوت متعاطف:

- أعرف.

همست متوسلة:

- هلا تطلبين من يسوع شفائها؟

لم تجبني، ولم أتنفس، مرت ثوان ثقيلة، رفعت بعدها كفها وناولتني مسبحتها، التقطت المسبحة، ثقيلة كما لم أتوقع، استدارت مانحة ظهرها كاملاً ومضت نحو الكنيسة يصحبها نور كثير، استدرت أنا أيضاً عائدة إلى الشاحنة، تتصارع أشعة الشمس والظلال الكثيفة في الغابة حين مررت بشجرة كستناء وارفة، قلت أسميها، لتكن هذه إذاً: لوشيا.

علقت المسبحة الخشبية الثقيلة على فرع عال في شجرتها، وواصلت سيري.

***

سانتو أنتاو

وعدتني جدتي بالجنة، فردوس لم تره عين ولا سمعت به أذن، عرضه السموات والأرض. قالت: سيكون لي.

تهزأ أمي من فردوس جدتي، وتظن أن كل البشر يموتون، عادة ما يموتون لأتفه الأسباب وفي كل الأوقات، ثم لا يكون شيء. لا تؤمن أمي بآلهة جدتي التي في السماء ولا بالمصلوب على التقاطع الخشبي في بهو الكنيسة، لا تصدق وعودهما وتهديداتهما، لماذا إذاً عليّ أن أكون فتى طيباً؟ كان أبي طيباً، منصاعاً تماماً لأوامر سيد المزرعة، ولا شك أنه يجني بعض الرضى مكافأة لولائه وعمله الدؤوب، يستمتع بصلاحيات أوسع، ويتصرف كأنه مالك الدنيا، لكن، ليس هذا ما تمنيته لنفسي، لم أرغب في موقعه المتأرجح بين العبودية والتسلط، كنت أحلم بفردوس جدتي، وأتساءل، لو ذهبت إلى هناك، هل أجدها في انتظاري؟ لم يتسن لي تحقيق أمنياتي وراودني الشك في رؤية الجنان وأهلها، خاصة بعد أن روضني السيد سانشو لأكون رجله، لاحقني بصبر ونسج خيوطه حولي حتى أنساني البنات الجميلات اللواتي كنت أداعبهن في موسم عصر العنب بين البراميل المعتقة، تيقنت بعدها أن جدتي لن تفتح لي أبواب جنتها التي لم ترها عين ولا سمعت بها أذن،

لقد خالفتُ تعاليم الآلهة وولجتُ منطقة الخطايا، أحياناً أفكر على استحياء باستحقاقي للغفران، فلم أكن إلا عبداً مغلوباً على أمره.

عبد يكتسب قوة خفية من انصياع سيده لملذاته، هكذا اكتشفت نفسي بعد معاشرة سيدي لسنوات، ولكني لم أستخدم نفوذي إلا عندما جاءت الخالة رفمة ولوشيا الصغيرة إلى بيت السيد في لسبون مبعدتين، خيل إليّ أنهما كل ما تبقى من أهلي، فجعني انهيار جسد رفمة، وأشفقت على الصغيرة كريولو من الضياع، كانتا عائلتي، وأنا لم أزر عائلتي منذ عامين، لا يسمح سيدي الجديد بذلك، يحتفظ بي في بيته مستنزفاً قواي الجسدية. بمجيئهما قويت شوكتي وبت ملحاحاً، شعرت بانتصاري وبخوفه وارتباكه، فلم أسمح له بالراحة واستعادة سيادته، تمردت وتمنعت عنه متظاهراً بالغضب حتى يسمح لي بمرافقة رفمة والصغيرة إلى منفاهما. تصايحنا وتباكيت واعداً بالعودة إليه بعد أن تنتهي مهمتي بايصالهما إلى جزيرة المنفى التي اختارها سيدنا ساراماغو، حرنت مواصلاً ضغطي عليه، كأني أبحث عن منفى مؤقت ألتقط فيه أنفاسي وأحرر جسدي المكبل كما روحي. ثم، نسيت هدفي الخفي من الارتحال، وأصابتني حماسة عالية لفكرة الطيران، لم يعد مقرراً أن نسافر عبر البحر، ولكننا سنمتطي السحاب! فاجأني سيدي بقرار السفر جواً ومرافقته لنا، لم يعد قادراً على

مفارقتي. أبهجتني فكرة الطيران، سيصعد حصاننا المعدني إلى السماء حتى نصير في قلبها، وهناك قد يطل عليّ وجه آوا الحنون الساكنة في جنتها فيصفح عني ويقبلني في ملكوت الله الطاهر، ترقبت، لكن ساعات من التحليق لم تأت بها، ساعات أذهلتني وحيرتني، هل أضعت الدرب إلى الفردوس؟ أم أن أمي أفي على حق؟ عدا الأزرق والسحب المارة حولنا وضوضاء المركبة، لا شيء هناك.

لامسنا الأرض مجدداً، وسرت خلف سانشو نحو المرفأ في داكار مكسور الأحلام، ها أنا ذا، لم أجد شيئاً في السماء، ولم يتغير حولي شيء على الأرض، لا جديد، هي الحياة التي أعرف: أبي يسوس ديدو بعيداً، وأمي تتنمر، ورفمة تموت وابنتها خائفة، وسيدي سعيد مستبشر، وأنا مجرد عبد منذور للذة رجل آخر. ولكني عبد له قلب، تلعب به تقلبات سريعة من البهجة الطارئة والحزن المستكين، بمجرد ركوبنا القارب، فج فرح عميق في صدري، رشتنا المياه برذاذ نثره المجذاف على الجانبين، ورقصت الريح، وكموجة تفر من البحر قفزت أسماك فضية صغيرة رشيقة قفزات عالية، تتنشق مثل هوائنا ثم تغوص مجدداً في الأعماق، وعلى الشواطئ المتناثرة ومن فوق المراكب العابرة لوح لنا الصيادون، وكانت الجزر تنبثق فجأة حولنا وتنسحب سريعاً خلفنا، وأخيراً وصلنا سانتوأنتاو، أخيراً عثرت على

الجنة.

أنهار من عسل ولبن، لا نجوع ولا نظمأ، لا برد ولا حر، هكذا كانت آوا تصف فردوسها، لكنها قطعاً لم تؤكد ما ادعت، لأن عيناً لم تر وأذناً لم تسمع، وصفت آوا العزيزة خيالات الأماني في خاطرها، أما جنة سانتوأنتاو فقد كانت قاحلة بحجارة كبيرة سوداء صلبة، دخلناها عبر بوابة البحر والسماء العريضة التي اتشحت بحمرة المغيب، سرنا وراء أغواش تغالب دهشتنا التعب، ثم أوينا عند سفح الجبل في كوخ من الخوص، احتضنني سانشو برفق حالم وغفا سريعاً، وطار النوم من عيني.

سرت متمهلاً حريصاً على السكون نحو الباب المشرع، وقرفصت وسط عتمة دامسة، في تلك اللحظة خرجت من حياتي السابقة، ووقفت في مدخل النعيم. هنا، يمكنني إطلاق قدميّ للريح، لست مقيداً بطرقات المدينة الأنيقة الفارهة، ولا بالعيون الزرقاء التي تلتقط مرور جسد أسود بسهولة في الأرجاء، هنا يفج السواد جميلاً نبيلاً متحداً بالليل، الكوخ مفتوح على مصراعيه بلا رتاج، وأنا ممتلئ بالحرية، هذه هي الجنة يا جدتي الحبيبة الميتة، فهل أنت هنا؟

ذعرت للحظة وهي تتقدم نحوي في ضوء الفجر، جدتي في شبابها! كما أتذكرها، تحمل طبقاً من الطعام وتردف طفلاً على مؤخرتها الوفيرة

الرجراجة، تقترب أكثر، يتبعها أغواش وفي يده قرعة ضخمة، يصيح بالتحية ويتبعها بهذر متمنياً أن ليلتنا كانت سعيدة مازجاً كلماته البرتغالية بأخرى غريبة على مسمعي، يصير الرجل وامرأته قبالتي تماماً، يقفز الطفل على قدميه متحرراً من حمالة أمه يلاحق حشرة عبرت، يخاطبني أغواش بالبرتغالية مشيراً إلى المرأة التي ضللتني هيئتها:

- هذه سلمى، زوجتي، وهذا الشقي ولدي بانا.

هل يتشابه الناس؟ أم أن الروح ذاتها تسكن في جسد مختلف في كل مرة؟ أحتفظ بأفكاري لنفسي ونحن نلتقي العائلة التي ترعى أرض السيد ساراماغو الجبلية. أفطرنا عصيدة الذرة الحلوة وشربنا شراباً أبيض فيه حلاوة ومزازة الحموضة، قالت سلمى إنه منقوع الحبيبات الحمضية العسلية اللون التي تطلعها شجرة الباوباب الأفريقية، سخروا منا ونحن نتذوق حذرين بأطراف ألسنتنا الحموضة المفاجئة، قال أغواش بفظاظة:

- كان من الأفضل للسيد البرتغالي زراعة الباوباب لا الموز، من الأحمق الذي أقنعكم بزراعة الموز؟

هز سانشو رأسه دون معنى محدد، لن يبتاع الأوروبيون ثمرتهم هذه، مع ذلك استسغت مشروبهم الطافح في القرعة، كما العصيدة الملتوتة

بالسكر التي أعدتها سلمى ترحيباً بنا. لم يفهم أغواش لماذا علينا أن نرسل لرفمة بالطعام إلى حجرتها بدلاً من مشاركتها جلستنا الصباحية الأولى في الجزيرة، عد ذلك تعالياً، ناداها بصوت مرتفع فلم تجبه، شرح سانشو طبيعة مرضها، فحدجه الرجل بنظرة احتقار معلقاً:

- المرض ليس ابتلاء للمريض لكن اختبار للأصحاء حوله.

وراء كلماته تجريح خفي للرجل الأبيض سانشو.

حملت زوجة أغواش الطعام والشراب وتوجهت بجسارة إلى الكوخ. خرجت بعد وقت طويل أمضته بالثرثرة، قالت حزينة:

- المريضة لا تستطيع صعود الجبل، إنها متعبة.

وهكذا كان، توزعت المساكن ببقاء رفمة وابنتها عند سفح الجبل في كوخ الخوص، وصعدت مع سيدي إلى بيت حجري مقام بعناية أعلى الجبل الأجرد، بيت يمكن إغلاق بابه، وقد ألحقت به حجرة خارجية كبيت للخلاء، كرر سيدي مراراً كلماته، قال إننا لن نطيل البقاء، أراد الاطلاع على دفاتر الإنتاج، ورؤية المزروعات بنفسه، واستمر أغواش يسخر ويضحك هازاً رأسه، في الأسفل يلعب ولده الصغير بانا مع لوشيا، وقد بدأت سلمى تناديها باسم تركية.

راقبت أغواش يصلي في موقع مشرف على هاوية طبيعية من الحجارة الصوانية، ذكرني بجدتي ساجدة أرضاً ترفع ظهرها وكتفيها مكتفية

بتقاطع ساقيها تحت ردفيها، لعلهما يصليان لذات الرب، هل هو نفسه الذي منح جدتي صبراً رافقها إلى الموت؟ أيعقل أنه نفسه الذي يمنح أغواش القدرة على النظر بازدراء إلى السيد البرتغالي الجميل ذو العينين الزرقاوتين؟ لا شك أن السؤال الذي حيرني كان ساذجاً، وجدت دهشتي أجوبتها تدريجياً في ثرثرة سلمى. نجلس حولها كما كنا نحيط بآوا، لا شك أنها أكثر شباباً وابتهاجاً، لم أخبرها حول خلطي بينها وبين جدتي، ولكني أسمعها باهتمام وهي تحدثنا عن جزيرة بعيدة في قلب المحيط. أهناك مساحات أبعد من النقطة التي ارتمينا إليها بعد طيران وإبحار؟

جاءت عائلة أغواش من ساوتومي الواقعة قبالة الساحل الغيني، لم أعرف أين تكون هذه الأرض، ولأنهم كانوا يزرعون الكاكاو والقهوة هناك فقد ظنوا أنهم سيقومون بذات المهمة هنا، فخذلتهم سانتو أنتاو بطبيعتها الوعرة، فالجزيرة منعزل قاحل تنمو أشجاره العنيدة فوق صخر صلب، وتطل مرتفعاته على جروف مهلكة، تشرف العالية منها على بركان كوفادي بول حيث يحاول القاطنون على أطرافه تناسي مخاوفهم وكوابيسهم ليرعوا أشجار الخروب وجوز الهند التي يقتاتون منها ويواصلون الاشتباك بالبحر بحثاً عن الأسماك العالقة في شباكهم، حياة بسيطة تتطلب معاناة تفوق عطاءها، ولكن سلمى

تسميها السعادة خالصة، حيث لا هموم، إلا فقد ولدين من أبنائها بداء الملاريا قبل أعوام! لا تذكر لنا اسميهما، ورحيل ولدين آخرين قاطعين المحيط عائدين إلى جزيرة ساوتومي بحثاً عن عمل مجز بعقد يمنحهما بعض المال.

كيف يمكن لرجل أسود أن يجني المال؟ علق السؤال في حنجرتي، كيف لأسود ألا يكون عبداً؟ ها هم، عائلة كبيرة ممتدة من السود، ليسوا عبيداً، كيف؟ تجاسرت على السؤال، بدلاً من تقديم إجابة أو تفسير، شتمني أغواش بلغته الكريولية، ذلك المزيج الفريد من كلمات إفريقية وبرتغالية. شملني باحتقاره كأنه ينظر إلى رجل أبيض، لم أغضب ولاحقته حائراً لأعرف المزيد، رحت أتعلم.

عمل أغواش وعائلته لحساب سيدي ساراماغو لقاء عقد عمل لا يصادر حريتهم، لم تكن حالهم كحالي، فأنا مربوط إلى الأبد بسيدي بينما يستعد الرجل وعائلته لمغادرة الجزيرة مقتفياً درب ولديه العائدين إلى موطنهما الأصلي، تعطل أغواش منتظراً أن تضع زوجته ولدهم الأصغر، في تلك الآونة بالتحديد جاءت الريح بتاجر برتغالي يشتري أرضاً ليزرع الموز، ابتاع عمانويل «مندوب سيدي ساراماغو» سفح الجبل وقمته العالية المطلة على البركان بثمن بخس، يشكك أغواش بذكاء المشتري قائلاً:

- ليس هناك من هو أكثر غباءً من تاجر يبتاع أرضاً كهذه، إلا إذا كان يحاول توفير بعض المال لنفسه من صفقة يجريها لحساب غبي آخر، لا شك أنه يسرق القابع في قريته في البرتغال.

مع ذلك، لا يخجل أغواش من الاعتراف بأن الصفقة جاءت ملائمة له شخصياً، فقد حصل على عمل مدفوع لرعاية الأرض، وبناء البيت الحجري في القمة. لم يكن عقداً سخياً يحوله إلى رجل ثري، لكنها بالمقابل مهمة لا تستوجب العمل المضني، بعض أشجار البابايا القديمة، في الأطراف شجرات الباوباب المقلوبة الساحرة، وفي فسحة ضيقة حاول أغواش دون اهتمام أو نجاح زراعة الموز، وفي أخرى أينعت حبات أناناس خجولة. هناك ما يقيم أوده وعائلته التي صغرت برحيل ولديه الشابين، ينتظر أغواش اشتداد عود ولده بانا وانقطاع الدخل الذي يصله من السيد في البرتغال ليلحق بولديه، وينظر لي ساخراً:

- ماذا يفعل شاب مثلك؟ أحقاً أنك لست حراً؟ أما زال هناك عبيد على وجه الأرض كما في السابق؟ اتبعنا فنأخذك معنا إلى ساوتومي، هناك يناضل ولداي من أجل حرية كل السود.

تلفت بهلع، لو أنه كاشفني بهذه الكلمات الحمقاء بحضور سانشو، لأمضينا ليلتنا بين بكاء واستعطاف، ولكن سانشو برحمة الله لم

يسمعه، كان يقف بعيداً أعلى القمة يتأمل فوهة البركان الخامدة ويتنهد.

لا تخلو الجزيرة الخشنة القاسية من متعة، حتى وتركية -أعني لوشيا- تبكي بحرارة معلنة أن أمها لم تعد تستطيع أن ترى بعينيها، تهرع العائلة الحرة الحانية إلى كوخ الخوص، وتحتضن سلمى المريضة التي أخذت تعافر محاولة التملص من المشاعر المتدفقة، صائحة لإخافة ابنتها من الاقتراب، وأغواش يجري اختبارات بلهاء قبالة عيني رفمة، فيرفع إصبعيه سائلاً:

- كم إصبعاً تشاهدين؟

رفست رفمة بقدميها المتعبتين وذراعيها الواهنتين كل من اقترب منها، واستدارت بوجهها في اتجاه صوت أغواش قائلة بحزم ورضى:

- لا فائدة، أنا لا أبصر شيئاً، الكون معتم تماماً.

ليلتها، حمل أغواش رفمة كما لو كانت أمه، لعلها أصغر منه في العمر ولكن المشهد بدا مقلوباً، خرج بها من الحجرة وقد هيأت لها سلمى مجلساً مفروشاً بالحصير، قرفص سيدي سانشو في زاوية بعيدة ينظر بهوس، واستدعاني بنظرات حاسمة للجلوس إلى جانبه، لا يسمح لي بالتلامس مع رفمة تحت أي مبرر، يحذرني من العدوى، يخيفني في واقع الأمر، وتخيف هي ابنتها لتبتعد عنها أمتاراً معقولة، بينما لا

يلتفت أغواش وعائلته لتلك الترهات، يقولان:

- لا يفيد الاختباء من القدر، فهو نسر مفترس يراقبنا بصبر كيفما أراد، ويحط مختطفاً مصائرنا وقتما أراد.

يبرعان في الذهاب إلى القدر مبتسمين، ويحولان الحدث المأساوي بفقد رفمة بصرها إلى بهجة، جاء صحب أغواش من القرية القريبة بورتو نوفو، يحملون السمك المقدد وجبن الماعز الطري وثمار المانجو في السلال، تطفح جرارهم المصنوعة من القرع المجفف بشراب الباوباب وأخرى بالخمور الثقيلة ذات الروائح النفاذة، لمعت أجسادهم كلما تمايلت ألسنة النيران البرتقالية الموقدة في كوم الأخشاب في المنتصف، وانتشرت نساؤهن مزينات بعقود من اللافندر زكي الرائحة، تتأرجح فوق صدروهن العارية وأثدائهن الصلبة، عانقن رفمة كما لو كانت قديسة جئن خصيصاً لنيل بركاتها، ولاعبن تركية وهن يشركنها في رقصهن، كلهم باتوا يطلقون على لوشيا اسم تركية، لا أعرف كيف اهتدوا لهذه الصيغة المستخلصة من أحرف اسمها الأشهر سابقاً، كريولو.

لا يتعلق هذا البرزخ الملون بحياتنا الماضية ولا تلك القادمة قطعاً، تنهض لحظة الفرح على أنغام الطبول والخشاخيش التي يهزها الرجال والنساء وهم يتقافزون ويتلامسون في رقصة الكولا، عبيداً

وأحراراً، كفرة ومؤمنين، رجالاً ونساءً، من شمال الأرض أو جنوبها، نصير من نريد أن نكون، هذه هي الجنة التي أعني.

***

لم يحدث الأمر فجأة ومرة واحدة، كنت أعرف أني أفقد نظري تدريجياً، ولكني لم أخبر أحداً، لا يجدر بامرأة ترافقها في حياتها كائنات خفية قوية أن تنصاع لما يتوقع منها، كأن تصيح مرعوبة إذا استيقظت صباحاً فلم تجد إصبعها، أو تنبطح لمجرد تبقع جسدها وتكلس جلدها، ولأن قدميها تلتويان ولا تنهضان كأقدام كل البشر، حتى في بدايات المرض وحين لم أكن أعرف ما الذي يصيبني على وجه التحديد، لم أفكر كثيراً بالبقع التي تغير لون بشرتي أو تلك التي تدبغها بلطخات خشنة، كأن عظام وجهي انزاحت وبرز فكي ليصير وجهي مربعاً، مع ذلك لم أشكو وإن أعاقني التعب عن القيام بواجباتي، وجعل أمي تنظر نحوى مرتابة مزمجرة، ثم تتركني طريحة مكاني وتخرج لتعمل بمفردها متذمرة، لكن في اليوم الذي احترقت فيه كفي دون أن أشعر أصابني الفزع، وسمعت صيحة تسمي ما حل بي، لم أعرف ما هو الجذام، لعله مرض عارض، أو قاتل، لا يهم، فحتى لو أني أريد العيش لدعم حياة ابنتي الشاقة، فأنا قطعاً لا أريد العيش حاملة مرضاً معدياً يجعلها تتآكل أمامي كما يحدث يومياً مع

جسدي، وكما أنبأتني أحلامي القديمة.

حين فقدت نظري تماماً، توقف الحلم الكابوس عن اقتحام منامي، لم أعد أحلم بتاتاً، لم تعد بي حاجة لحلم يتحقق في كل لحظة أحياها، أو ربما ذابت منطقة الأحلام في ذهني كما حدث مع أطرافي التي تنحني وتتبدد فلا أجدها، ولكني في اليقظة كثيراً ما أتحدث مع جدي كامونقو وزوجته الجميلة اللمون، بت أظنها جميلة، وأخجل من سخريتي بها في الماضي، وأعتذر في أعماقي لأبي عبدالله وأمي ونسة، فكم قصرت في معرفتهما حق المعرفة، قبعا دائماً تحت ظل جدي العريض مخفيين شفافين، لو كنت أعرف أني سأفارقهما يوماً وأقطع البحر إلى بلاد أهلها بيض الجلود لكنت أحببتهما كما يجب.

جعلتني كائناتي الخفية امرأة قوية، ساعدتني لأشيح بوجهي متفادية رؤية شرفة سيدي وأنا أُطرد وابنتي من الحجرة في بيت فريدي إلى حجرتي القديمة قرب بيت نيتا، وقف سيدي يتابع ابنته تعبر الطريق راحلة، قد يكون هو من رسم خط رحيلها إلى الأبد، تخلص من الصخرة الرابضة على صدره، وحملت أنا صخرة من نوع مغاير.

تبلدت تماماً، انفصلت عن العالم حولي، ولولا خيالات الأشياء تتراءى أمامي لجهلت أين أكون، مررنا في الغابة وارتحلنا إلى البيت الهادئ في لسبون، ركبنا سيارات كثيرة، وتقلبت الوجوه ملتبسة

مخاتلة، ليس في ذهني مشاهد وأصوات شديدة الوضوح إلا تلك الآتية من الماضي، أسمع صدى أصوات جلسة الشاي التي جلست فيها صبية عارية وخشخشة حقل الفول السوداني الذي تجتاحه القرود، وأضحك مع وجوه هزيلة ضاحكة، ويكمل جدي أكاذيبه الماتعة، حملتني كائناتي الرفيقة الحانية إلى هناك كل يوم، وتبدد كل ما عدا ذلك.

لا أعرف إذا كنت قد نقلت بعض أحمالي الماضية وحكاياتي إلى ذاكرة ابنتي بالصورة الكافية فيما مضى، أم أن الوقت لم يسعفني، فأنا لم أكن أمًا جيدة لأروي القصص، والآن لم أعد أرغب في الكلام، ولا في لظم الحكايات، ولا حتى في توجيه البنت ورعايتها، أهيج وأصرخ لأبعدها عن ملامستي، زاعقة أو دافعة كل ما يحيط بي، لن تتحول لوشيا إلى مجذومة صغيرة بسببي.

كانت جميلة مفعمة بالدهشة وهي تشرح لي أننا نطير في السماء في قلب سفينة كبيرة، وأعتقد أنها واهمة، للصغار خيالات حرة ولو كانوا عبيداً، حُبسنا في حجرة معدنية ومقاعد جلدية مثبتة إلى الأرض، يصم آذاننا ضجيج لا يطاق، كيف يمكن لنا في هذا المحبس المعدني التحول إلى طيور حرة تعانق السماء؟ لم تنبت لنا أجنحة ولم يرفعنا سحر ساحر ولا معجزة إلهية، لعلها فرحة لوشيا بتغير المكان

فحسب، الفرحة التي كانت آخر ما رأت عيناي، اندلق الكون عندها كما البحر، هو البحر حقاً الذي أحاطنا في المركب الصغير، شممت الرائحة المالحة، تماماً كتلك التي عبأت رأسي على ظهر السفينة الأولى، وسمعت اصطفاق الماء بالهواء، ولمحت الألوان تتقلب في شحيح ما أرى، زرقة بديعة وريح تعصف بي تحرك الملاءة المسدلة التي رماها بيدرو فوق رأسي، أتوارى أم أن الكون بدأ يتوارى خلفها؟ بدا ما انطبع في ناظري واضحاً، حمرة قانية ولون برتقالي كأنه اللهب ينسكب من السماء باتجاه الماء، أغمضت عينيّ، ولم أشعر بدموعي تنساب، فقط عرفت أني كنت أبكي بصمت. كان هذا آخر مشهد رأته عيناي في الكون الفسيح.

لا شيء يساعدني على معرفة ما يدور حولي، جسدي لا يستشعر ثقل الهواء أو خفته، وعيناي لا تبصران، وسمعي يتراجع، كأن ما يصل إليه هسيس ينبىء عن الأشياء المحيطة بي، ببقية شحيحة منه أشعر باقتراب لوشيا مني فأثور وأصيح لإخافتها وإبعادها، تحاول البنت إرغامي على أن نلعب معاً دورينا في الحياة، أم وابنتها. ولكن منذ متى كان لنا أن نعيش الدورين بصدق تام؟ لا أريد لمساتها ولا ينفطر قلبي من أجل نواحها، وحدي ألعب دور الأم التي تحمي صغيرتها من مصيرها المعتم الأليم، وأفكر أحياناً ماذا ستفعل هذه البنت حين

يختفي بيدرو وسانشو؟ فليس هذا العالم المفتوح على السماء عالمهما، قطعاً سيعودان إلى حيث ينتميان، بين الجدران الباردة والنوافذ المؤطرة الموصدة والأبواب الخشبية المغلقة، وسأرحل بجسدي المنهك إلى الموت، ماذا سيكون مصير لوشيا الصغيرة؟ هل يمكن لتلك المرأة العنيدة التي تدعى سلمى أن تأخذ مكاني، لعلها أم صالحة لابنتي، ففيها إصرار عجيب على احتضاني كلما جلبت لي الطعام، تلم مخلفاتي في الكوخ ولا تتذمر، تغسل وجهي وقدميّ العفنتين وتلمس رأسي بحنان بالغ واثقة أن العدوى تنأى عنها، وتسمي ابنتي باسم جديد: تركية.

سيكون أغواش أباً جيداً أيضاً، لقد حملني كما لو كنت طفلته وجاء بأصدقائه يرقصون، لو كنتُ في لحظتها نفس رحمة التي كنتها، حفيدة كامونقو الفرس الأصيلة الشابة الضاحكة لقمت من توي وشاركتهم الرقص، قطعاً يرقصون، أسمع صوت طبولهم، وصرخاتهم وضحكاتهم وأنغاماً متناسقة مبهرة، في داخلي صبية تراقصهم، وعلى الجزيرة البعيدة التي أجهل موقعها على أرض الله الواسعة، امرأة مجذومة تآكل طرف أنفها بالأمس، تتكوم على أطرافها وتنصت صامتة لموسيقى الحياة.

النهار يمسح وجه الكون، أعرف ذلك لأنهم يحملونني إلى الخارج،

يتقدم النهار دون أن أشعر بسياط الشمس التي تتجول فوق جسدي حين يتركونني نصف عارية خارج الكوخ الصغير، ولكني أظن أنها تجفف تقيحات ذراعيّ وساقيّ، وتلاعب عيني بإنارة خافتة خفية تمثل النهارات التي تتوالى في الجزيرة، يبهجني الزعيق الضاحك الذي ينبعث من ابنتي والصبي الصغير وهما يلعبان على السفح بينما تنطلق سلمى إلى الأعلى حاملة طعاماً وشراباً للسيد سانشو، تعود بعد قليل لتقرفص قبالي «أظنها تقرفص» فصوتها يأتيني موازياً لأذنيّ، تقشر ثمرة أناناس تزج بقطع منها في فمي الملتوي ولا أشعر بطعمها، لكني أتعرف بسهولة على حموضة ثمرة القنقليز في الشراب الذي تسقيني إياه، وتسمي شجرته الباوباب، كنت في الماضي أعرف الشجرة باسم التبلدي، وأعرف لسع حموضة حبيباتها الصغيرة الماتعة.

تلح سلمى بالسؤال:

- من أين جئتم؟ أية لغات تعرفين؟ لماذا أسميت ابنتك لوشيا؟ هل ترافقيننا إلى سانتا تومي حين يسافر السيد؟

كأنها واثقة أني لا أسير نحو السيد الموت سيراً حثيثاً! تتحدث دون توقف فتفسد علي هدأة كائناتي وهي تسبح منزلقة إلى قعر نفسي. ولكنها بإلحاحها العجيب تنتزع مني كلمات متناثرة، تحرضني على الكلام بوهن، أحكي لها عن الشجرة باسمها الذي أعرفه، التبلدي،

تضحك قائلة: لا شك أنها شجرة أفريقية بامتياز. تشرح لي خصائصها وحكاياتها العجيبة بالاسم الذي تعرفه، الباوباب، في زهورها تختبىء أرواح الأسود ملوك الغابات الأفريقية، لا بد من غسل الأولاد بمنقوعها ليكبروا شجعاناً فخورين كما الأسود. لكنها شجرة متذمرة، لقد خلقها الله طويلة عريضة الجذع مدببة، بثمر صغير، عندما خلق التين شعرت بالغيرة لحلاوته، وعندما خلق النخلة جنت حسداً لطولها الفارع ورشاقتها، احتجت وراحت تجري ملتاعة صارخة عابرة أفريقيا من شرقها إلى غربها، أزعجت الخلائق كلها، فاقتعلها الله من جذورها وعاقبها بأن قلبها رأساً على عقب وثبتها في الأرض لتتوقف عن صخبها ونزقها، ثم حكم على ثمارها بالحموضة، وفرغ قلبها من شروره لتتحول إلى شجرة طيبة معطاءة. في فجوة القلب الكبيرة يجمع الناس الماء ويحفظونه، ومن ثمارها يجمعون الحبوب الصغيرة ويصنعون شراباً، ومن لحائها أوانٍ وسلالاً.

تمتعني حكايات سلمى وتسحب خيط الذكريات الذابلة من تلافيف ذهني، فأنطق ببعض الكلمات عن ماضيّ في دارفور، وعن ليلة الاختطاف في حقل الفول، تتعرف على بعضي، إذ أحكي باقتضاب يليق بوهني وانكساري، وتتحدث هي بإسهاب عن ولديها الغائبين الذين يقودان ثورة في ساوتومي، تمر مروراً سريعاً على ذكر الراحلين

الذين قضت عليهما الملاريا، مرور لا يشبه عطف الأم، ولكن حدة المقاتلة العنيدة السوداء. لو أننا في زمان مختلف، ولو أني أقف على قدمي وأنطلق حرة بين تلك الجروف الوعرة التي تصفها، كان من الممكن أن نصير صديقتين، ولكن كيف يتأتى لنفسين، واحدة تنهدم على حافة الرحيل، وأخرى تتوهج في قلب الحياة أن تلتقيا؟ لعلها الشفقة التي أثيرها بمرضي، لعلها امرأة غير سوية أساساً، تبدل ثيابي بصبر وتمسح جراحي، وتطعمني بأناملها ولا تزجر ولدها الصغير وهو يلعب حولي! لا شك أنها مجنونة، إذ لم أعد أؤمن بوجود القديسات والملائكة.

عابت عليّ استخدام اسم كريولو لمناداة ابنتي، أعطيتها اسم لوشيا، فلم يعجبها أيضاً، قالت إن كريولو استهزاء صريح بلون الفتاة المحير، استخفاف بجمعها دم البيض والسود، «لم تسألني كيف حدث هذا الأمر»، ورغم أنهم يستخدمون الاسم في وصف لغتهم الهجينة، ولكنهم لا يقللون من شأن الخالق الذي أراد لمخلوق أن يكون مزيجاً من السواد والبياض، لم يعجبها أيضاً أسم العُماد الذي أنادي به ابنتي: لوشيا. قالت إنه لا يشبهها، مقترحة تسمية الفتاة بما ظنته اسم يدل على المزيج الفريد الذي تمثله، فكانت الصيغة العربية: تركية.

ما هم الأسماء؟ فابنتي هي ابنتي، المحرومة من ملامستها، كأني لم أبرح اليوم العسير حين أخذوها من أحضاني قطعة لحم تصيح وأرسلوا بي إلى حظيرة الخنازير. ها هي سلمى تسترجع صوراً أجاهد لنسيانها. عندما نصل إلى هذا المنعطف في حديثنا أنطوي مثل ميتة، مثيرة ضجرها، فتتركني لسلامي وتنهض لشأنها، مع ذلك لا أستطيع إلا الاعتراف أنها كل ما تبقى لي من اتصال بهذا العالم وهو ينأى ويتساقط كأطرافي.

كأن سلمى بعض كائناتي، أنزلها الله مع ماء المطر لأظل حية وأتدبر أمر ابنتي، وأرتحل بعدها.

هطل المطر غزيراً وما أزال أشعر بالسيد سانشو وبيدرو يتحركان في الأرجاء، لا أعرف ما الذي أخر عودتهما، لعله الصخب الذي يقع حين تثور الريح وتضرب الأمواج سفوح الجبال بعنف.

نقلوني إلى الكوخ طوال النهار، وراح الناس يمرون بكثافة، قالت سلمى إنهم يستقبلون مسافرين هبطوا من السنغال، جنح قاربهم مع العواصف البحرية الشتائية غرباً بدل من شق المحيط شمالاً، إلى أن وصلوا إلى الجزيرة. في الخارج صياح وهرج وأخبار ومخاوف، يهيىء أغواش قارباً ينوي الرحيل به إذا تحسن الطقس، يتحدث وامرأته عن العودة إلى بلدهما ولقاء ابنيهما والانضمام إلى

احتجاجات تجتاح الرأس الأخضر والسواحل الغربية لأفريقيا، يقول أغواش غير عابىء بغضب السيد:

- سنطرد كل البرتغاليين والبيض ولن يكون هناك عبيد.

السيد سانشو لا يحاجج، فهو منشغل بمداولات لاستئجار قارب آخر يبحر إلى داكار، عائداً به وخادمه إلى منتصف الطريق حيث يطيران بعدها إلى لسبون، عادت خرافات الطيران إلى حكايات الأمسيات عند باب كوخي. قرر أغواش اصطحابي وابنتي معهم إلى جزيرتهم البعيدة، دون الالتفات إلى رغبتي، ولم يعترض السيد البرتغالي، لم نعد من اهتماماته، لقد ألقانا في هذا البعيد ليتولانا الله، أو أغواش وعائلته، فهل لدي من القوة لأحتمل رحيلاً جديداً؟ أم أني سأرحل إكراماً لابنتي؟

أمطرت بغزارة ذلك الشتاء، مطر دافىء مصحوب بعواصف بحرية، فرحَ المزارعون وحزن الصيادون، وتسلل الملل والخوف إلى السيد، أتعرف على الخوف والخسارة حين تكونان حولي مرتبكتين، تقلقان خطوات صاحبهما، تصلني طاقات حالكة وأخرى رمادية في من يحيطون بي، ألمس صوت سانشو حائراً وقد بح قليلاً وهو يذكر اقتراب موعد عودته، وأعرف أن بيدرو اقترب مني أكثر من اللازم حين ودعني معتذراً هامساً:

- اغفري لي، لا أريد تركك ولوشيا وحيدتين، لا حيلة لي... لا أريد... ولا حيلة لي، ليتني أنضم إلى الثوار في الجزيرة البعيدة، لكني... أيضاً... لا أستطيع.

أثار بكاء الشاب حزني، ربما أكثر من دموع ابنتي وهي تحاول الالتصاق بي، لكني أيضاً لا أملك حلاً.

ما حدث ويحدث مجرد انقلابات صغيرة في مجرى نهر الحياة، فليس النهر براكد أبداً، هناك دائماً منعطفات وعقبات ومنزلقات، لقد مررت بأعنفها، وما عادت كل هذه الأمواج مهما هاجت تحرك مشاعري، فليرحل من يرحل ويأت من يأتي.

دارفور، سمعت الكلمة مرتين، وأعدتها على لساني أتأكد، كنت أنا من نطقها مرة في سياق تبادل المعلومات حول الجذور مع سلمى، ولكن الاسم يعيد الذكريات، كما نتحدث عن حلم، أو مخلوق عجائبي، كما العفاريت التي لا ترى، فما الذي تعنيه سلمى الآن وهي تلاحقني بدارفور؟ ماذا عنها؟

أنا في الجانب البعيد من الكون، تأتيني في أحلامي، كيف أستوعب إذاً خبراً من دارفور؟ تتحدث سلمى بحماسة مفرطة، بالكاد أتابعها، تريثي، دعيني أحاول الفهم، ماذا عن دارفور؟

تقول:

- الرجل الضخم الذي وصل بالأمس على ظهر المركب، اسمه ديقو، تاجر العاج والأبنوس وجلود الحيوانات البرية، ذلك الذي يضع على كتفه جلد نمر أرقط، «كأني أراه!»، لقد أخبرناه عنك وعن بلادك، «ماذا تعرف هذه عن بلادي؟» يقول ديقو إنه قادم من دارفور، وإن عائلته تقطن في بلدة تدعى الفاشر.

لن يزج أحد كلماته في تلافيف ذاكرتي عنوة، أعرف كل هذه الأسماء، هي بعض من نفسي التي ضمرت وتبددت مثل أطراف جسدي، لماذا تمازحونني بهذه القسوة؟ ولماذا يدعي هذا الديقو أنه قادم من هذا المكان البعيد بعد نجوم السماء؟ أية كذبة وافتراء!

يتوقف المطر فجأة وتنادي سلمى زوجها ليأتي بالرجل، أنا لا أبصر، كيف أحزر إذاً كم يحمل من شبه بجدي؟ وعلى افتراض أني أستطيع رؤيته، فإني قد نسيت كيف يبدو جدي، كيف أتيقن من أن الرجل دارفوري حقيقي؟ وهل هناك بشري واقعي ينتمي إلى أرض الخيال تلك التي تعشش في رأسي وحدي؟

تقترب أقدام الرجلين وتنزاح سلمى، كأنها تتوقع أن يعود إلى نظري، ساذجة توقعات هذه السلمى أحياناً، يدوس الرجلان على أوراق الشجر التي حملتها الريح إلى باب الكوخ، أسمع صوت انسحاقها تحت حذائيهما، وتتكثف العتمة حين يحجب جسداهما بعض النهار

المخاتل في عينيّ الضريرتين، لا فرق عندي، كلها درجات متفاوتة للعتمة، من عتمة كالحة لأخرى داكنة، حالكة، فقاتمة، ثم شاحبة، باهتة، مغشاة، أنا بنت صنوف العتمة.

تنحنح أغواش، وأظنه توقف، وتقدم الرجل.

- حبابك عشرة.

هل تعني هذه الأحرف شيئاً؟ أية لغة نطق الرجل بها؟

عاد الصوت الغريب:

- حبابك عشرة.

قرع قلبي مثل طبل أجوف، اكتشفت أن قلبي ليس كسائر الجسد، فجأة، سرى في عضلته الصغيرة إلى يسار صدري تيار دافىء هزني، ثم انحسر تاركاً وراءه برداً عميقاً، هالني أن عضواً في هذا الجسد المتهالك قادر على استعادة الدهشة والخوف والانتظار، انتظرت ظمأى سماع الأحرف العربية والصوت الدارفوي الغريب، مرة أخرى: حبابك عشرة.

لا أحتاج إلى رؤيته لتقدير شبهه بجدي كامونقو، لم يعد نسيان ملامح جدي يشكل لي مشكلة عويصة لأتيقن، لقد منحني ديقو في ثانية وكلمتين بصمة لا يمكن أن تكون إلا لجذوري التي في الخيال، أو تلك التي قدت من حقيقة ماثلة أمامي، كما جسد عفي ارتعد جسدي

الذي كان على شفا الموت. آه ديقو، لا أعرف ماذا ترى الأن أمامك، ولكني صبية جامحة مثل فرس تعدو بزهو جسد أبانوسي عارٍ، تجلجل ضحكاتها ملء الكون وتخشخش الأوراق تحت قدمين تركضان في حقل الفول السوداني.

***

سعيد من يثق بالأزرق الذي يراه، حزين من لا تتمكن روحه من عيش زرقة السماء، آه، لو أن الخضرة والجبال الهادئة تستقر في القلب، يا للسخرية، فالنهار تعوزه الرغبة في الفرح، يظن الأرض والسماء معجزة، وأنه مالكها(*)

في هذا المدى الشاسع وقبة السماء مكورة فوقي، يستلقي تحتي الصخر والشجر والبحر، يمكنني القول أني انسان آخر، لست الذي يقطن لسبون كسيد نبيل، ولا أنا الصغير الغر الذي نشأ في فاتيما يتيماً مدللاً، يحلم بلحظة يفر فيها من قفصه المذهب، ولا حتى ذلك الشاب المثقف الذي أغرق روحه وعقله في الكتب ومناظرات السياسيين الكاذبة منمقة الحروف وحيل التجار الرخيصة التي تجعل منه ثرياً، أمام جلالة البحر بزرقته التي تغمر الروح أكثر مما تلون ماء المحيط، يعاودني الشاعر بيسوا، إلا أني أشعر بتفوقي عليه، لعلي

(*) من شعر بيسوا بتصرف.

عرفت نفسي فجأة، لعلي لم أكن يوماً كل هؤلاء الذين حملوا وصفي واسمي وأنا أخلع طفولتي على عجل وأجتاز شبابي دون خسائر، لست ذلك الرجل الذي وقع في الحب عندما شابت ذوائبه، على درب سري شديد الوعورة. لست كل هؤلاء الـ«سانشو»، كلهم ينأون عني، وأكتشف نفسي، تلك المعلقة في فراغ العالم كأنها تسبح بين الغمام، أقبض على طرف ذيل السعادة وهي تعدو جواري في محاولة للفرار، لم أكن سعيداً في أي من الرجال الذين كنتهم، الآن أتحرر منهم جميعاً، وأطفو حراً طليقاً، لا أحد يعرفني، تستحكم تلك الفكرة في ذهني حد الجنون، لا أحد يعرفني، تعني أن عليّ أن أتخلص ممن يعرفني، وهل أعرفه ويعرفني هنا غير تلك الجوهرة السوداء بيدرو؟ في بعض الليالي الحميمة التي تجمعنا، وحين أرتمي مرتوياً، أنظر إلى ظهره اللامع بشعاع رفيع أرسله القمر فتسلل من زيق النافذة، مانحاً جلده الأسود اللامع دليلاً على الجمال. هل يعقل أن يشيخ هذا الجمال أو ينكسر، أن ينطوي في جسد عبد؟ أتذكر أني حررته وفوق أوراق أخبئها في محفظتي الجلدية الكبيرة، أفزع، لن يعرف بها، قد تنبت له الحرية أجنحة يحلق بها من فوق هذا المرتفع الذي يحمل حجرتنا الحجرية، ثم يختفي بين طيات غيمات كثيفة تسبح فوق المحيط وتبتعد إلى حيث لا نصلها، أخاف حقاً هروب الرجل

الأسود الذي صار كالماء والهواء عندي، ولكني في لحظة يزورني فيها طيف الشاعر وكلماته الحاذقة المرة، أفكر أن علي التحرر من كل ما يربطني بالماضي، وبيدرو رسن غليظ يشدني إلى الماضي، قد أتسلل خلفه يوماً، وبكل ما أوتيت من حب وشغف أدفعه دون رفق من أعلى القمة فينهمر شلالاً أسود يتفتت أعلى الجروف المدببة والمسننة، وأبكيه.

ماذا تفعل بي هذه الجزيرة؟ تعيد لي كل ما حفظت من أقوال بيسوا، وتنخز روحي بذكريات الماضي كأنها ثقل لا يقوى جسدي على احتماله، تصيبني بالهلوسة، حقاً، في لحظة صحو تغلب فيها حضور سانشو الذي كان يدقق في مصير أرض صهره، فكرت أن أغواش الزنجي الساخر الذي يتصنع الفهم والضحك والجرأة، يقوم بفعل شيطاني خفي يدمر به أعصابي، لعله يسقيني شراباً ساماً سحرياً يجعلني أفرح حد الجنون أحياناً، وأرتمي في أحضان اليأس أحياناً أخرى، أعشق الجزيرة وأكرهها، أعرف نفسي وأضيعها، لعله يسممني ويحرضني بسحر إفريقي غامض على قتل بيدرو أو قتل نفسي. بت أخاف من تأثير الجزيرة على روحي، لم أكن رجلاً سيئاً أبداً في حياتي الماضية التي أنكرها الآن وأرغب باستبدالها، منذ تركني أبي الكونت دي كارمو في عهدة كارولينا، قبعت في حضن المربية الزنجية هادئاً

مؤدباً كما يفترض، وسمعت أغانيها السنغالية وآهات الحنين، كبرت نظيفاً متفوقاً جميلاً، بعيداً عن الناس، كرهت الحب. قالت لي شقيقتي إنه وهم يخاتلنا، ثم يموت، فلندفنه بأيدينا، ففعلت.

لم أخطىء مع أحد، احتفظت بأسرار المزرعة الكبيرة، من جنوا ومن كانوا أنذالاً، ومن غدروا، ومن سرقوا ومن خانوا، كانت ذاكرتي تسجل وتمحو، ونفسي تتوق للهروب. حين فتحت لي لسبون صدرها العريض كنبيل من بقايا البرجوازية المتقهقرة، لبست ثياباً منشاة، وتحركت بحرص في ظلال الأخطاء الكبيرة التي يقع فيها المجتمع الأرستقراطي، لا يمكنهم أن يشيروا نحوي بإصبع الاتهام أو يعثروا على غبار حقير فوق بزتي، أستثني الحب الذي عصف بي والرغبة التي امتلكتني حين وقعت عيناي على الماسة السوداء بيدرو، خطيئة لم أملك ردها وكأنها جائزتي في الحياة، بحق، كان يشبهني، طيبة ورفقة ولطفاً، ظلي، الصورة العكسية لي، فإذا ما لمسني اتحدنا.

لن أجادل في حقي بالحب، فالكون لا يستوعب تلك الإزاحات الأشبه بالزلازل، ها نحن على قمة كون جديد، ما الذي يجبرني على العودة إلى القيود الحضارية السقيمة؟ حيث عليّ أن أكون في العيون كما يتوقعون، ذات الإنسان الذي كنت عليه؟ هل هذه الحقيقة التي اهتدى إليها بيساوا قبل أن يودع الدنيا؟ الإقامة في حجرة واحدة مثيرة

للضجر، أليس خليقاً بي أن أضجر من الإقامة عمراً كاملاً في ذاتي؟ سنهرب أنا وهو من كل هذا، سأجعله يفرح معي بقراري الجريء، لا عودة إلى لسبون، لتصير سانتوأنتاو وطننا الجديد.

أجلس متفرجاً في الاحتفالات البدائية التي يجلب فيها أغواش صحبه الصاخبين من بورتو نوفو، يجيئني الخوف، فالزنجيات الفاتنات يتلوين مثل الأفاعي الملساء، يفركن مؤخراتهن بأفخاد الراقصين ويلصقن أثداءهن المزدانة باللافندر في صدورهم، حين يرقصون الكولا، تدمع عينا بيدرو، الكلب. ما الذي يهيج مشاعره؟ لماذا عليّ الدفاع دائماً عن بياض جلدي في وجه كل هذا السواد الوفير الثقيل؟ غالباً ما أدعي التعب، وأجره جراً ليتبعني، وأنا أسمع تعليقاتهم الكريولية الساخرة عن رجل يحتاج إلى من يرعاه كطفل عليل، عندها أعرف أن الثقة التي بنيتها كسيد نبيل فارقتني، فلست أقوى على الرد عليهم، ولا المزاح معهم ولا التعبير عن الغضب وضحكاتهم تتبعني، أصطحب صاحبي إلى حجرتنا، وأدعوه لافتراسي، ثم في لحظة الاسترخاء أفكر ملياً بدفعه من الأعلى ليموت، فأبكيه.

يجتاح الألم قلبي مثل بحر مبهم على شاطىء قاحل، لا شيء يحيا بعد الذي يجب أن يموت إلا ضوء القمر والفوحان البليد والمبهم

للكلمات التي علينا قولها (*).

ماذا تفعل بي هذه الجزيرة؟

كنت شخصاً متوازناً جديراً بالاحترام، كيف إذاً تجعلني الجزيرة بهوائها الرطب وشمسها السليطة الحارة حد الاحتراق أراجع حياتي بغثيان، تقنعني أن عليّ استبدال ما مضى بمستقبل غامض لا ملامح له في أرض غريبة، حتى أني لوهلة أسترجع حضن أفي المتعرق الحاني بلوعة، وأظن في أعماقي أني خلقت زنجياً في الأساس، حين أوشك على التصالح مع فكرتي المجنونة ألمح فرحاً في عيني بيدرو وهو يتحدث بحماسة مع أغواش، لقد تمكن العبد من فهم اللغة الكريولية سريعاً، يظهر ذكاءً مفاجئاً، لا شك أن احتواء لغتهم على نصف القاموس البرتغالي يسهل فهمها، لكنه أيضاً بارع في فهم دلالات الكلمات الأفريقية التي أحتاج إلى تفحصها والسؤال عنها، يندمج أسرع مني، أو لعلي لا أندمج بتاتاً إلا مع الحجر والبحر. لا يتردد أو يلتفت حتى ليحصل على موافقتي، يتبع أغواش مثل جرو سخيف بمرح وهمة، يصطحبه إلى القرية وقد يعودان في وقت متأخر، يطير غيابهما صوابي ويشعل غيرتي، يمازحه بصورة مقززة قائلاً إنه سيجد له بنتاً خلاسية جميلة تتزوجه إذا ما وصلا ساوتومي. كأنه يقدر على

(*) من شعر بيسوا بتصرف.

انتزاعه مني وأخذه إلى بلاده البعيدة! يستغل أغواش الصفاء الذي يعاودني كلما التصقت بالطبيعة الجارحة الصادمة المذهلة، ذلك الصفاء الذي يمنعني من معاملته بجفوة تليق بصاحب الأرض التي يعمل بها، ويغالي أكثر حين لا يتوقف عن الإساءة للبرتغاليين وتاريخهم الأفريقي، أصم أذنّي بإرادتي، في النهاية أنا من أنا، وهو من هو، أكرهه، لأنه يعاود إحياء من أنا فيّ، في حين آمل بالتخلص مني.

لم أتمكن من الخلاص من نفسي العتيقة، فالوجوه السوداء مثلت تحدياً غريباً لي، ليس أني أكرههم، بالعكس، في ليالي الكآبة الدامسة أسترجع رائحة أفي لأطمئن وأهدأ، ولكني تيقنت من خطرهم على فتاي، كنت أترقب هذا الخطر في مطار داكار، ظناً مني أن بيدرو سيحن إلى وطنه، ولكني الآن عرفت أن الوطن بالنسبة لهؤلاء ليس إلا تلك البشرة اللامعة كليل موحش، يجدون أقاربهم في من يحملون لونهم، ألم يقل لي بيدرو في لسبون إن رهمة المجذومة وابنتها آخر من تبقى له من أقارب؟

بات كل يوم جديد يطلع علينا في الجزيرة رمحاً يغرز في قلبي، وللعجب، فإني أستعذب العذاب، كان بإمكاني أن أرحل بعد يومين من وصولي، ولكني تلكأت وتوهمت أني أكتشف نفسي، سحرتني الجزيرة، وخدعتني كلمات الشعر وهي تتعلق بأهداب الطبيعة

المتوحشة المفتوحة على السماء والبحر، جربت صنفاً من الوجد مؤلم ولذيذ، ظننت أني أغتسل وأتطهر، وأن الكون يجاذبني أطراف الكلام، والآن أرى بوضوح أن الجزيرة تستلب منى فتاي، تماماً كما نبتة باهرة الجمال تمد فروعها وتتفتح بتلات زهورها ناشرة في الكون أريجها، وفجأة، تمتص البشر في لمحة بصر، أراه يضيع مني، منذ بدأ يتحدث عن الثورة المستعرة في ساوتومي وعن بطولات ولديّ أغواش الباسلين اللذين يقاتلان البرتغاليين هناك، بت أعرف أن الخطر وحش لا بد من قتله، ولكني أكابر وأنتظر. ريثما ينضج الوحش الذي في داخلي.

مساء رائق ينحسر فيه المطر وترق النسمات، يخبرني بيدرو متحمساً عن رجل إفريقي عربي وصل من بلدة رهمة، وقد قضى النهار وإياها يتحدثان رغم أنه كان حذراً في الاقتراب منها، يترك مسافة معقولة بينهما. انتهت قصة الرجل العابر التي لا تهمني كما لم تعد رهمة وابنتها في برنامج حياتي، أستمع بصبر إرضاءً له، ويتلكأ بيدرو في مشاركتي السرير، هامساً في انعطافة كبيرة لحديثه، انعطافة جعلتني أجلس متحفزاً:

- سأذهب إلى ساوتومي.

يحولني صبري إلى صندوق مغلق، بينما يتم ذكر أسباب قراره المنفرد

الجريء بالرحيل، قرار لا يبدو أنه يضعني في حساباته أو يفسح لي إلى جواره. فعمال الجزيرة البرتغالية المحاذية لغينيا يتظاهرون ويستنكرون أوضاعهم، فتقتل القوات البرتغالية مئات منهم في مجزرة يسمونها باتيبا، ما علاقتنا نحن بما يجري على بعد سحيق منا؟ يقول بيدرو الفاتن بوقاحة:

- هؤلاء أهلي.

تمطى وحشي، وتقدم يحاصره بحيلة واحتيال:

- ليسوا أهلك، أجدادك جاءوا من السنغال، هؤلاء مزيح كريه لا يشبهك، بل أني أعرف أكثر من ذلك، ربما تجري في شرايينك دماء إسبانية من مكان ما، وأنت في النهاية برتغالي، أي أنك تمثل العدو بالنسبة إليهم، قد يعاقبونك ولن تكون جديراً بالاحترام بينهم، أنا وحدي من رفعت قيمتك، عليك أن تتذكر، لم تكن شيئاً في مزرعة فاتيما، منحتك بيتي ونفسي، أنا أهلك.

يسطع وميض وينطفىء تباعاً في عينيه الواسعتين الجميلتين، ويهتز صوته طفيفاً:

- سأذهب، مكاني هناك.

- لست مثلهم، هؤلاء عمال أحرار يطالبون بحقوقهم، أنت عبد، ستظل عبداً في نظرهم حتى لو تشابهت الألوان.

لكن بيدرو لا يفهم، يشحذ سكاكيني بغبائه ويغذي مخالبي وأنيابي بإصراره، بظنه أنه يملك إرغامي على أمر لا أريده، طامعاً بليني وعطفي كما حدث في لسبون حين أصر على الارتحال إلى هذه الجزيرة المنحوسة، يريد أن يصير سيداً عليّ أولاً قبل المطالبة بحريته.

قفز الوحش من السرير، وارتعد الفتى وهو يبتعد خطوتين، ووقفت أمام قامته الفارعة القوية، أمسكت بياقة القميص القطني الملتصق بصدره، وجذبته محدقاً مباشرة في عينيه بكل وحشيتي:

- لن تفعل إلا ما أريد، وأنا أريد العودة إلى لسبون معك، لا تهز رأسك قبل أن تفهم جيداً، أنا لم أكن مع عسكر البرتغاليين وهم يرتكبون مجزرة باتيبا التي تتحدث عنها، لن تعاقبني لفعلتهم، لقد منحتك الكثير، ولكني أستطيع أن أكون رجلاً أبيض أيضاً، لو هربت أو تمردت، سيكون مصيرك مزرياً، سأبحث عنك وأكبلك، قد لا يكفيني هذا، يمكنني أن أشرب من دمك، فأنت حبيبي على كل حال، سألتهمك كما ألتهم خروفاً، ثم، لن يكفيني هذا أيضاً، أتذكر حظيرة الخنازير التي سجنت فيها شقيقتي كارولينا رهمة المجذومة؟ تذكرها؟ سأرسل للتو رسالة إلي كارولينا، وأنت تعرف أي حيوان مسعور يمكن لكارولينا أن تكونه، سأجعلها

ترسل بأمك السمينة وشقيقيك الخلاسيين ووالدك، ابن الحرام الحقيقي، تحبسهم في الحظيرة إلى الأبد، ولن تعفو عنهم، سيتعفنون هناك، سينسون الكلام ولن يخرج من حناجرهم إلا قباع الخنازير، سيحدث هذا إلى أن يموتوا، كل هذا لأنك عبد ناكر للجميل، هارب، أو متمرد، ستقتلهم كما لو أنك تقتلهم بكفيك، اسمع كلماتي جيداً، وافهمها، ثم افعل ما يحلو لك.

تكوم مذعوراً في زاوية الحجرة، كأنه لا يصدق أن تلك الكلمات خرجت من فمي، وقضيت ليلتي في الخارج أتابع سيل النجوم يخترق السماء هابطاً متفتتاً على صفحة الماء، أرتجف وأنا أسترجع نظراته المفزوعة من عينين سوداوتين حد الهلاك، كانت أطرافه ترتعش وأنا أفلته، أردت العودة لمواساته، لكن وحشي كبلني فوق الصخرة في الخارج، بكت رغبتي وتجاهلتها، لا أفهم نفسي الآن، كما لم أفهم أحداً ولم يفهمني أحد طوال سنين حياتي المنفرطة أمامي مثل النجوم المتساقطة، ساحت دموعي فوق وجهي ولم أمسحها، لا أحد يراني، ذئب بري مستوحد ووحشي.

تجاهلته في الأيام التالية، رتبت الحصول على قارب العودة، وأخذت أوراق الأرض من أغواش الذي قال بلؤم:

- خير أن تعود إلى بلادك، لم يعد البرتغاليون يأمنون على حياتهم

هنا.

دخل بيدرو كوخ المجذومة ليودعها، رجع لي عبداً، وعاودني زهوي القديم، لا أحب هذه الجزيرة التي أفلتت الوحش من محبسه فيّ، وجعلته سيداً على كل من كنتهم. أستعجل الرحيل، أركب القارب فيتبعني صامتاً ذليلاً، ما زلت أعاقبه بالتجاهل، لن أسامحه إلا حين نصل لسبون، هناك، في بيتي، سأبني باباً حديدياً صلباً، لن يغادره بتاتاً، لن تقع عيناه على أسود بعد اليوم، وإلى أن نصل فإني أتجاهله باحتقار مقيت، أبعده عني رغم رغبتي ووجعي وضجري، ألم يقل بيساوا:

- أُبعد اللذة عني كأنها كوب لا يخصني .

***

- هششششش ..

همستُ وأنا أتوارى تماماً وراء الشجرة، وتوقف بانا مقهقهاً، ثم كتم صوته واضعاً كفه على فمه متلفتاً، لم يرنا أحد، اكتشفنا زوايا خفية بعيدة للاختباء، استمتعنا بحيرتهم وهم يبحثون عنا، والآن عدونا متجاوزين السفح، ولذنا بتجمع شجري للباوباب وجوز الهند، صوت سلمى تنادي يصلنا:

- تركية... بانا.. أيها الأحمقان.

لا بد أنها تريد مني العودة إلى الكوخ، حتى أمي لم تعد تمانع من جلوسي عند باب الكوخ وسماع أحاديث الرجل الضخم الذي فقد نصف أسنانه، تنكشف في فمه فجوة إذا ضحك ضحكته البلهاء، ويتراقص لسانه في عمق الفجوة ثقيلاً معوجاً إذا تحدث بالبرتغالية، ويمتد عريضاً مشققاً إذا تحدث بلغة أمي التي أستدل عليها في كلمات معدودة.

يناديني ديقو مبتسماً متودداً ولا أستجيب، أرمقه بنظرات عدائية، ولوهلة أوشك على القول إن جحيماً يفح من الفجوة التي تتوسط فمه، أرفض الاقتراب منه وأنزوي بعيداً وأمي ترجوني الترحيب بالضيف، ما بالها رفمة؟ ألم تكن تنهاني عن الاقتراب منها؟ والآن تُقربُ هذا الغريب، وتدعوني إلى معانقته على مرمى خطوات من جلستها المعتادة، كأنها مطمئنة بأني لن أصاب بالعدوى! كما لو كان لدى هذا الرجل المزدان بجلود الحيوانات المفترسة تميمة تقيني الشرور القادمة. فوق ذلك، تسميه الخال، قطعاً ليس شقيقها، فما الذي يعجبها منه؟ هل هي اللغة التي يتفاهمان بها؟ وهل أمي قادرة أساساً على التحدث كما يجب؟ تتعثر الكلمات في شفتيها، تتآكل أو تمتط حتى تفقد دلالاتها، مع ذلك يتفاهمان!

أتجاهل الانسجام بين أمي والغريب، أشيح عنه وهو ينادي باسمي

الجديد. أغضب إذ تحدثه عن أهلها الذين صاروا مجرد أشجار في غابتي في فاتيما، ولا أحب حروف اسمي في لسانه، رغم أني تصالحت والاسم الذي اخترعته سلمى وناداني به الجميع، أتمنى حقاً الانفصال عن كل ما يخص أمي، والانتماء بكلي إلى عائلة أغواش .

أحببتهم، فهم بارعون في الفرح، ضاحكون على الدوام، حتى وهم يتذكرون فراق أبنائهم المعرضين للموت كل يوم على يد البرتغاليين في الجزيرة البعيدة، يضحكون مستبشرين. يتحدثون بأسلوب غريب، يسمونه الفخر، وأنا لا أدري ما هو الفخر على وجه التحديد، فلدى العائلة البيضاء في فاتيما ما يسمى بالزهو، ولدى عائلة فريدي ما يظنونه الكبرياء، كبرياء جريحة، لعل الفخر هي الطريقة التي تعيشها عائلة أغواش، يتصرفون كأنهم ملوك الأرض، على الأغلب أنهم ملوك هذه الجزيرة الحارة الماطرة الصخرية، ملوك المحيط الأزرق الذي يضرب حجارتها ورمالها دون هوادة ولا تريث، ملوك البلاد التي يحارب فيها ابناهما، ربما كانوا أيضاً ملوكاً على البلاد البعيدة التي جاءت منها أمي، ولو توانت السيدة كارولينا المجنونة فإنهم سيصيرون ملوك فاتيما ولسبون.

أنا معجبة بهم إلى حد كبير، يثيرون دهشتي لقدرتهم الفريدة على إزاحة الخوف والغضب وتحويل النكد من حولهم إلى أفراح ومتعة

خالصة. تلاحق سلمى صغيرها، تدلله وترعاه وقد تطلقه ليلعب بعيداً حين تكثر مهامها، تأتي بالحطب للموقدة، وتعد الطعام لعائلتها ولنا وللسيد وصاحبه، تتذكر ولدين ميتين وولدين غائبين كأنها تتذكر أشجاراً نبتت على الصخر، تنظف كوخ السيد أعلى الجبل، وكوخ أمي في السفح ثم بيتها وراء الهضبة، تلاحق زوجها باحثة عن مزيد من المهام لتقدمها، لا تأنف من غسل جسد أمي المتورم الدبق، وتضحك، تضحك ملياً. كانت أفي تتذمر حين يزيد حمل متاعبها ومهامها، تدق سلمى الأرض بقدميها مبتهجة مع الراقصات الصغيرات، وتضحك، ثم في لحظة سحرية تماماً، تداعب رأسي وتقول:

- منحتني السماء أبناءً ذكوراً، جميل لو كانت لي ابنة، سمع الإله أمنيتي، فجاء بك البحر لتكوني ابنتي.

أحببت أن أكون أمنية غالية في بال أحدهم، مثل هذه الأماني تسبغ أهمية على ذاتي المنكسرة، أحببت لو أصير ابنتها، فأنا قادرة على الاقتراب منها حد العناق، أدفن وجهي في صدرها العريض، ثم أحبس دمعي خجلاً. سأحلم في أيامي القادمة بجزيرتها الموعودة ساوتومي، لقد تحققت لي في الشهور الأخيرة معجزات لم أطلبها ولم أجرؤ أن أحلم بها: طرت في السماء محاذية للغيم، وفُك أسري من الحجر

الضيقة التي أوصدت دوني في فاتيما، فكوخنا مفتوح على الدوام، ولا ضوابط تمنعني من الجري وراء الصغير بانا، أو تسلق الباوباب الضخمة، أو إلقاء جسدي عارية في موج ماء المحيط، صار بإمكاني أن أحلم بالمزيد وأتمنى، وأستمتع بالفرح الذي هبط فوق تلك الجزيرة وشملني، مشاعر كانت تخاتلني في غابة الكستناء على استحياء، لكنها هنا تتفجر وتفيض، لا أريد لأي سبب من الأسباب تغيير حياتي الجميلة التي أحياها الآن، حيث صار لي شقيق أصغر يلعب معي، وحيث تحول بيدرو إلى حنان دافق كأنه قرر أن يكون أيضاً شقيقي الأكبر، صارت لي عائلة، الأشجار هنا حتى لو لم تكن لها أسماء إلا تلك التي خلقها الله لها، تحبني وأحبها.

في قلبي وخزة طفيفة تلومني على استمتاعي بهذه الأفراح الكثيرة، وخزة تذكرني بأن أمي مريضة توشك أن تموت، وخزة أخرى غامضة تؤنبني لأني لم أعد أحبها كما في الماضي، أتقشر عنها كما لحاء شجرة ينفصل عن أمه، وأخشى أن من حولي يدركون مبلغ الشر الذي أحمله، قد يكرهونني لقسوتي وعقوقي، لذلك أُكثر من البكاء، علهم يظنون بي خيراً ويسامحون الأفكار الشريرة التي تعتريني.

للكبار حالات لا يمكن فهمها، لا يتشابهون، كأنهم مخلوقات سقطت من السماء، كل واحد منهم جاء من نجمة مغايرة، فلا الحنان ذات

الحنـان، ولا القسـوة ذاتهـا، لا يتشـابهون كمـا الأشـجار والأسـماك والطيور، لهذا تدهشني عائلة أغواش التي تبدو خارج النظام البشـري، لو كان هنـاك نظـام أساسـاً، ولكنـي في كـل الأحـوال أعاهـد نفسـي ألا أكون نسخة عن أحد، ربما حين أكبر وتتكور بطني أمـامي وتكـون لـي ابنة، سـأحبها، لـن أتركهـا تنسـلخ عنـي، سأضـمها بكـل مـا أوتيـت مـن محبة، لن أزعق في وجهها وأنبذها، لن أعاقبها إذا لـم تحمل ملامحـي، لن أسألها من أين جاء لون عينيها أو تشكيل أنفها وما تقوله بشرتها عن أبيها المحتمل. يبدو هذا أمراً قريبـاً، فالجزيرة الفاتنة التي نزلنا أرضـها تعد بالكثير، ربما سيكون لي عدد كبير مـن الأولاد، وقـد أعـيش حتـى أشـيخ وأصـير جـدة كمـا آوا، أو جـد أمـي البعيـد كامونقـه، أفكـر فيـه أحيانـاً، لا بد أنه مات الآن، فلا أظن إنسانـاً يعيش ألـف عام، لعله كـان على هذه الأرض منذ ألف عام، أفكر فيه وبما أخبره لأمي من أن لكل منا كائنات ترافقه إذا انفض عنه الناس، يحلو لي أن أظن أننا نزلنـا إلـى جزيرة الكائنات، هؤلاء هم حولنا، يمنحوننا أيديهم نتكىء عليها، وقد يكون تصوري غبيـاً، فلهـؤلاء هيئـة النـاس العـاديين، وظـلال يكشـفها شعاع الشمس وهي تمشى أمـامهم أو وراءهـم، ظـلال يرسـمها لهيـب النار فوق الحجارة وهـم يرقصـون، تنفلـت وتطـول وتـنكمش وتقفـز، تتشـابك وتتنـافر مجنونـة علـى دقـات قـرع الطبـول، وتسـتريح إلـى

جوارهم إذا هجعوا.

يقفز سؤال آخر إلى خاطري، هل للكائنات الخفية التي لم تعد أمي تذكرها أية ظلال؟ لو كانت لها ظلال لتمكنت من رؤيتها، لا يعلم أحد أننا بينما نلعب أنا وبانا سويًا، يطارد الولد الحشرات الزاحفة والطائرة، وأطارد خلسة الظلال الغريبة، علها تكون ظلال بعض الكائنات.

ودعنا بيدرو وسار وراء سيده محني الرأس، حينها أيقنت أنه يشعر بما أشعره، لم يكن يود مغادرة هذه الجنة، لكنه يفعل منصاعًا لما يأمره به سيده، مشهد بيدرو محني الرأس يثبت في ذاكرتي وكأنه المعرفة الساطعة، تفسير كنت أحتاجه لمعرفة المعنى الدقيق لكلمة «عبد»، منذ جئنا الجزيرة وأنا أنسى كم كانت هذه الكلمة تشغلني، فقد تبخرت مثل بقعة ماء تحت سياط الشمس، لكنها عادت وانفلشت فوق مشهد بيدرو وسيده. لوحت له بكفي وهو يركب القارب عائداً إلى لسبون، وظنت سلمى أني متأثرة للغاية فاحتضنتني برفق، ولكني كنت في الحقيقة أشهد دلالات لمعاني تغطس ثم تطفو في الذاكرة، ليس أكثر، إلا أن أحداً لا يعرف مبلغ قدرتي على مفارقة من يبدون أقاربي وقريبين مني، ولأني أعرف أن أمي تسير نحو الموت فإني أستعد لمفارقتها بصلابة لا تليق بسنين عمري، لم أدرك أن رفمة كانت

أكثر عجلة مني لتحقيق هذا الفراق، فعلى حين كنت أنتظر بفارغ الصبر مرافقة عائلة أغواش إلى جزيرتهم، غيرت أمي كل المخططات وكسرت أحلامي بقسوة، وتآمر الجميع معها.

بكيت بحرقة حين أخبرتني سلمى أن أمي اتفقت وقريبها العابر المقيت على اصطحابي إلى أهلها هناك في دارفور، شرحت لي أن الديار بعيدة، قد يستغرق الأمر أشهر أبحر فيها برفقته، بمفردي! لن تكون أمي ولا أغواش ولا سلمى ولا بانا معنا، ماذا جنيت حتى يتم إلقائي لصائد الحيوانات الجهم هذا؟ حتى لو كنت أمني النفس بتحول أشجاري إلى بشر، فإن ذلك لا يبرر ما يفعلون بي، تشبثت بذراع سلمى ورجوتها باكية، أريد مرافقتها إلى ساوتومي، لتكن أمي، سأكون ابنة مطيعة، أختاً طيبة لبانا. بكت سلمى وهي تشرح قرار أمي، لا شيئ لشرحه أيها العالم، لا أحد يريدني.

حتى الصياد تاجر الجلود ديقو بدا متردداً، خاف من فورات غضبي وحزني، خاف من اصطحاب طفلة عبر البحار، ماذا لو اتهمه أحدهم بأنه خطفها؟ ماذا لو حدث له مكروه في الطريق، ماذا لو لم يجد قبيلة كامونقة تلك؟ كل أسئلته لم تثنِ عزم أمي، ولا خففت من مخاوفها من جزيرة ساوتومي، ظنت أنها إذ توافق على ذهابي إلى هناك والحرب قائمة فإنها تقودني للموت بنفسها، قالت إنها حلمت بأني

أصل إلى بلادها، وأتعلم لغتها، وأني سأكون حرة. لم أشعر يوماً إلا أني حرة.

العائلة التي أحببت وتمنيت وافقت أمي على قرارها، وكأن كل ما وعدوا به محض كذب، قالوا إن لأمي الحق في تقرير مصيري، كيف يكون ذلك والمرض يأكلها؟ لعله قضم عقلها أيضاً لترغمني على السفر مع الرجل العابر، لا أحد يريدني، والعالم يفتح فاهه واسعاً لابتلاعي، سيضعونني في قارب يمخر بي المحيط متجهاً شمالاً وعابراً المضيق بين أفريقيا وأوروبا.

اقتربت بهدوء من رفمة، علمت أني تجاوزت الحدود وقصرت المسافات، همست برجاء:

- دعيني معك، لا أريد الذهاب مع هذا الرجل.

همست وصوتها ينطلق على غير عادته وإن شابته ارتعاشة طفيفة:

- ولا أنا أريد، لكني سأموت، لن أبرح هذا المكان، وهم سيذهبون ليقاتلوا حيث لا مكان لنا، لا مكان لك، أنا أحلم على الأقل بأن تقتربي من مكان فاتن يمتد فيه سهل الفول، حيث يمكن أن تركضي وتفرحي وتجدي من يحبك، أبحث لك عن أرض تحبك.

- لكن أحداً هناك لا يشبهني.

- ولا هنا، لا أحد يشبه حبة الفستق الجميلة التي أنجبتها، سترافقك

كائنات رحيمة تخفف عنك، أطياف ساعدتني على البقاء رغم هول ما رأت عيناي، من أجلي، لا تعاندي، ببركتي اذهبي معه، لا تتركيه إلا إذا وصلتم تلك الديار، إنها ديار حنينة.

انسابت فوق الوجه المغضن المتآكل الذي لم يعد يشبه وجه أمي بتاتاً دموع غزيرة، أفرحتني، فقد كانت دليلي الوحيد على أن أمي ما تزال تشعر وتستجيب، من أجل هذه الدموع وافقت على الرحيل مع ديقو.

صمدت يوم الوداع أمام الجميع وحين راحت سانتوأنتاو تبتعد وتتحول إلى كتلة رمادية في الأفق بكيت، وتركت ديقو يربت كتفي مواسياً، وإن ظل الشك يراودني عما في عينيه الزائغتين.

صارت الدنيا محيطاً، والخلق كلهم حيتاناً تعبر حولنا، أو أسماكاً تقفز، أو غيماً يمر مسرعاً، وريحاً تأرجحنا، ونجوماً تلمع ليلاً وتضيع نهاراً، وشهباً تتهددنا. تقدم القارب في ظل صمتي الذي لم يفارقني على كثرة ما حاول ديقو، وأظنه شعر بالملل بعد فترة فانصرف لمرافقين من تجار بألوان مختلفة ولهجات غريبة، وأنا ملقاة بين بضائع متنوعة تفوح بروائح مختلطة، أفكر بدمع رفمة الذي أغرق وجهها وكسر عنادي، وبماذا يكون من شأنها إذا ماتت، هل سيأتي الراقصون والمغنون من بورتونوفو ويرقصوا حول جثمانها، وهل سينبئني قلبي بأن موتها قد ألحقها بكائناتها؟ أم ترى هذه الكائنات

ترافقني في رحلتي المشئومة؟ حتى متى سأستطيع تفادي نظرات ديقو الطامعة بجسدي؟ وإلى متى سأظل أتذكر أشجاري وحياتي القصيرة في العالم الأبيض؟ وهل ستكون حياتي قصيرة أيضاً إذا وصلت حيث تمنت أمي؟

تتجمع الغيوم فوقنا وتتبدد رمادية كما بقايا حريق، والسماء تقلب ألوانها، وروحي تطوف، أترى كم من روح ضاعت في هذا المدى المتسع الذي لا يحيط به النظر، من بين الأصوات المرتجفة والأنين، كأني أسمع صوت رفمة شجياً يخالط صخب الموج والريح، كأني أنطق بصوتها:

حين تصير لي ابنة في يوم من الأيام على هذه الأرض، أو وراء البحار أو أية أرض بعيدة، لن أفلتها، فأنا لا أعرف متى سأفقدها، سأضمها إلى روحي، وأحكي لها حكايتي وحكاية رفمة، فلا تموت الحكايات أو تتساقط كما تساقط لحم أمي بلا حس ولا آهات، سأحكي حكايتنا منذ البداية: منذ كان كامونقة يتباهي بشبابه واثباً على أسوار البيوت في نيالا البعيدة، إلى أن باعوه في زريبة العبيد ثم حرروه باسم معتوق، كيف حلم وتحول محارباً ثم انكسر، سأخبر قصة حبه لجدتنا اللمون، تلك التي تساقطت أسنانها، وكيف كانت رفمة أجمل الصبايا تركض في حقل الفول كما غزالة انفلتت في غابة، كيف اصطادوها،

سأطيل رواية قصة المرار على ظهر السفنية وهي تقطع البحر المتوسط، سأمر بالجزائر، وأخزن الروائح جيداً، بدءاً من رائحة الشمس التي لونت جسد أهلي في دارفور، مروراً برائحة الماعز وهي تطبق على أنفاس أمي في العربة المتنقلة وفوح الجبن الأبيض الذي لا تطيقه، وملح البحر العفن الذي لم تفلح أمواج الماء المجنونة بإزالته من أنفها، انتهاء برائحة الخنازير وروثها التي ربضت على صدرها حتى أرسل الله هديته لها في مرض حرمها الحس، سأتحدث عن ساراماغو، الذي لم يقو على رفع كفه ملوحاً بالوداع وقد انتظرته، سأتحدث عن شجرة آوا التي تفتتح غابة الكستناء، وكامونقه التي تتوسطها، ولوشيا التي في آخر الغابة كملاك سقط من السماء، عن كرباج كارولينا ونظرات أفي وازدراء نيتا، عن فريدي النبيل الأسود، عن سانشو الذي أنقذنا من عطن الحياة إلى قسوتها، ملاك مختلف مكسور الجناح. عن مرض أكل أمي حية، وعن الجزيرة الجنة وأشجارها المقلوبة، عن أسرار الناس البيض التي يخبئونها في تلك الجزيرة البعيدة، كما يخبئون سواد أرواحهم تحت جلودهم الملوثة بالبياض، عن الأرواح السوداء الأبية الباحثة عن حريتها، أغواش وسلمى، سأفيض عن ألمي، سأهمس بكل هذه الأخبار والحياة لابنة مستقبلية، وأقول حاولي تعلم كيف تسخرين وتضحكين، وترفضين،

غيري اسمك، لا تكوني كريولـو ولا تركيـة ولا لوشيا، اختـاري اسـماً حراً سيداً راقصـاً مغرداً يليق بـك، واحفظينـي في قلبـك وفي حكايتـك، هكذا فقط نسترد لحم رفمة الذي تساقط.

احتميت بصوت أمي القادم من كهف بعيـد، وتصلـب جسـدي وديقـو يجرني لأصير امرأته، ركنت إلـى السـماء أنتظر منهـا المطـر، وشـعرت بروح تحرث بطني وتعلـن عـن وجودهـا، لـم أعـد طفلـة، كـان شـوقي خفيـاً معتمـاً إلى عالـم لا أعرفه، وإلى روح تنبعث مني، كائن يتخلق في رحمـي لأنتسـب، وأسـتمر وأقـاوم، والسـفينة تشـق عبـاب الأبـيض المتوسط محاذية الساحل الأفريقي باحثة عن منفذ إلى دارفـور، كنـت أعلـم أني أعـود علـى الـدرب التـي جـاءت أمـي عبره، وظللـت أسـمع رجعـاً لأغنية حملتها من الرأس الأخضر لتجوب البحار فتسلي أرواح من عبروا قبلي ذاهبين أو آتيـن، مـن غرقـوا في قلـب المـاء، أو في عفـن الحيـاة، مـن طـافوا مشـارق الأرض ومغاربهـا، لجـة المـاء أو المرافـئ الغريبة، كانت الأغنية التي تعزفها الريح وتردد صداها الأمواج، تتقطر في قلبي حزنـاً صـافيـاً، أحملـه في خطـواتي شـراعـاً يعـد بشـيء غـامض مختلف:

- كبيت في السماء أو حديقة في البحر، كطـائر في صـدرك وعـودة إلـى البداية، كأمنية للنجوم أو ارتعاشة عصفور، كجزيـرة علـى فراشـك

أو غروب الشمس، سكون وصرخات وغناء، سماوات وقبلات صوت وانكسار، حياة على ظهرك وموت بين ذراعيك، ولادة في ضحكتك وكبر فوق دموعك، صرخات.. غناء.. انكسار.. سكوووووون. (*)

(*) أغنية لسيزاريا ايفوار من الرأس الأخضر.



صارت الدنيا محيطاً،
والخلق كلهم حيتاناً تَعبُرُ حولنا

سميحة خريس

فستق عبيد

هي رواية ما إن تقلب صفحتها الأخيرة حتى ينتابك شعور بأن مبدعتها قامت باستخراجها من كومة أحداث تاريخية كما المادة الصلصالية الأولى، غرفتْ منها وجمعتها، وأعادت بناءها لتستوي منجزاً متخيلاً، يصطرع في داخله أكثر من صوت، الغرض منه لغة تحرّرية تَترك المساحة واسعة لشخصياتها للتعبير عن وجهات نظرها في علاقة حوارية متبادلة، تمنح أبطالها فرصة نادرة ثمينة، كي يحكوا حكايتهم في عالم حكمَ عليهم عبر سنوات طويلة بالصمت المطبق.

د. رزان إبراهيم







عمّان، شارع الملكة رانيا،
عمارة البيجاوي (69)، طابق 3
نقال: 720 7162 79 962+
alaan.publish@gmail.com



